

رسالة القرآن

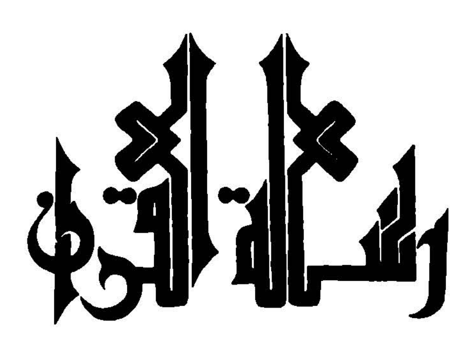
نشرة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية

العدد الثالث عشر محرّم، صفر، ربيع الأوّل ١٤١٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم
الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم
نزل عليك الكتب بالحق مصدقا
لما بين يديه وأنزل التورية والإنجيل
من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان

- المكي والمدني : الضوابط والمعطيات .
- المخلفون والعزلة القاتلة .
- في رحاب التفسير.
- على طريق ذات الشوكة .
- القرآن ومنهج التفكير.
- القرآن وثيقة تاريخية .
- البحث القرآني ونظرية الاحتمال .
- العلوية أمين نصرة . . الفقيهة المفسّرة .

RESALAT AL - QURAN - DAR AL - QURAN AL - KARIM P.O. BOX 37185 - 151 - QUM. ISLAMIC REPUBLIC OF IRAN



نشرة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية
تصدرها دارالقرآن الكريم

المراسلات:

الجمهورية الاسلامية الايرانية

قم ـ دارالقران الكريم

ص.ب ١٥١ /٣٧١٨٥





- النشرة متخصصة بالدراسات والشؤون القرآنية.
- ترحب رسالة القرآن بكل نتاج ينسجم واهتماماتها القرآنية.
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ما يرد في المقالات من افكار يتحمل الكاتب مسؤوليتها.
- النشرة غير ملتزمة باعادة المواد التي تتلقاها للنشر.

الثمن: ١٠٠ توماناً او ما يعادلها

ليتوكرافي: الكرماني

المحتويات

● كلمة الرسالة

□ فلنهاجر.. .... ٧

التحرير

● علوم القرآن

□ المكي والمدني: الضوابط والمعطيات ١١

السيّد سلام زين العابدين

□ قصة آية: المخلّفون والعزلة الخانقة ٤١

السيّد مالك الموسوي

● تفسير ومفسّرون

□ التفسير: نشأته وتطوره (٧) ٤٩

الشيخ محمّد هادي معرفة

□ في رحاب التفسير (١) ٦١

د. محمد باقر حجتي

□ العلوية أمين نصرة .. الفقيهة المفسرة ٨٥

السيد علي أشرف

● مفاهيم قرآنية

❑ الاشاعة: رؤية قرآنيّة (٣) ٩٥

الأستاذ حسن السعيد

● فقه القرآن

❑ في نكاح المسلم بغير المسلمة والعكس ١٢٥

السيّد حسين الطباطبائي اليزدي

● دراسات عامّة

❑ على طريق ذات الشوكة ١٤١

الشيخ محمد مهدي الآصفي

❑ القرآن ومنهج التفكير ١٥٧

د. عبد الجبار شرارة

❑ علي والقرآن ١٦٣

السيد عبد الأمير علي خان

❑ البحث القرآني ونظرية الاحتمال ١٨٣

السيّد محيي الدين المشعل

❑ القرآن وثيقة تاريخية ١٩٣

الاستاذ عز الدين سليم

● منتدى الرسالة

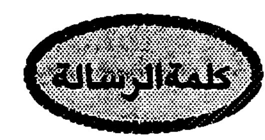
❑ وقفة مع كتاب العدد: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ١٩٩

عرض وتقديم: جلال الأنصاري

❑ أخبار قرآنية ٢٠٧

اعداد: السيّد علي أشرف

بسم الله الرحمن الرحیم



فلنهاجر..

﴿الّـذين هاجـروا في الله مـن بعد ما ظُلموا لنُبوئنهم فـي الدنيـا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لوكانوا يعلمون الذيـن صبروا وعلى ربهـم يتوكلون﴾ (النحل:٦١)

حينما يدور الحديث عن الهجرة .. تستجيش فـي النفس كثير من المشاعر والمفاهيم والقيم والتطلعات..كلها تتفاعل وتتداخل في العقل والوجدان،بشكل يهزّ ويثير..ولكن في الوقت نفسه يهدئ ويُطمئن الى النهاية المأمولة، رغم أشواك الطريق، ووعورة المسلك.

فالهجرة، في جوهرها، رحلة الى الله. ومعه. وفي سبيله. وبهذا المعنى فهي نقلة نوعية، بكل مـا تحفل به مـن مصاعب وآمـال، ومكاره وأشـواق. وبكل مـا تزخـر به من معـايير التضحيـة والمبدئية. فهنـاك هاجس الأسى لمفارقة الـوطن الذي يضم الأهل والأحبة، والمصـالح، ومراتع الصبا والذكريات.. وهناك التطلع الى الانعتاق من ربقة الظلم والعبودية والطغيان.

اذن، بكل المقاييس البشريـة، تعتبر الهجرة مسألة ليست سهلة، اذ لم تكـن نزْهة أو تغييراً في المكان بطراً. والنقلة المكانية ـ في حالة الاكراه ـ من مكان معلوم، على ماهو عليه، الى مكان أخر مجهول محفوف بمخاطر الغربة ومشاقها ومتاعبها .. مسألة عسيرة على النفس، ان لم تكن مجازفة حقيقية. وهـذا ما يحول دون اقدام البعض على اتخاذ هكذا قـرار خطير، اذ يحسب هذا البعض ألف حساب لمثل هذه الخطوة الثقيلة.

وحينما يتعرّض المـؤمنون الى الأذى، في سبيل الله، والى الفتنة فـي دينهم، يأتي الخطاب القرآني ليهديهم سواء السبيل، ويدلهم على الخروج من هذا الموقف المحرج: ﴿يا عبادي الّذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فاياي فاعبدون. كلُّ نفس ذائقة الموت ثم الينا تُرجعون﴾

وواضح انّ الخطاب يدعو المؤمنين الى الفرار بدينهم، والنجاة بعقيدتهم، وعبادة اللّه سبحانه دون خوف أو وجل.. وعلى هذا فالهجرة ـ هنا ـ هي فرار بالدين، من مضايقات أعداء هذا الدين.. الى حيث الآفاق الرحبة لعبادة ربّ العالمين. وتلك هي حقيقة الهجرة وأبعادها.

ولما كانت الهجرة تنطوي على هذه المعاني العميقة، نجد أنّ اللّه سبحانه يشدّد كثيراً على اولئك المترددين عن خوض هذه التجربة، ويصمهم بالظلم.. ظلم النفس: **﴿إنّ الّذين توفّاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها ..﴾**.

وليت الأمر يقف عند حد تقريع هؤلاء القاعدين لاحجامهم عن الهجرة، ولاستسلامهم للأمر الواقع.. بكل ما يستبطن من قبول الذل، والهوان، والاستضعاف.. وفتنة الدين، بل يمضي السياق الى تقرير النهاية المرعبة: **﴿فاولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً﴾**.

وهذا ما يترتب عليه وجوب الهجرة، وفي الآية تحذير وتهديد لمن لم يهاجروا وهم قادرون على الفرار بدينهم، ومن لم يقدم على هذه الخطوة منهم فان الملائكة تتوفاهم **﴿ظالمي انفسهم﴾**!

على أن ثمة استدراكاً يستثني فيه الباري عزّوجلّ اولئك الذين لا حيلة لهم في البقاء: **﴿إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فاولئك عسى اللّه أن يعفو عنهم وكان اللّه عفوّاً غفوراً﴾**. فهؤلاء معذورون لعجزهم الحقيقي عن الهجرة.. ولذا يؤملهم اللّه سبحانه بالعفو والمغفرة..

وتمضي المعالجة القرآنية للموقف الى مدياتها البعيدة فلا تكتفي بحدود الأوامر والنواهي، وانما تثير قضية غاية في الأهمية، الا وهي تبديد الهواجس التي قد تساور المرء عن مرحلة ما بعد الهجرة، وتسفيه تصورات اولئك الذين تشدهم أموالهم ومصالحهم الى أماكنهم فيتسمرون فيها لا يبرحونها.. فيأتي التأكيد على ضرورة الهجرة ـ بل وجوبها ـ مع وعد السعة والمتنفس في الأرض: **﴿ومن يهاجر في سبيل اللّه يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾**.

وامّا الّذين يخشون المخاطر بسبب الهجرة، أو تعتريهم مخاوف الموت بعيداً عن الأوطان والأهل والأخلّة فان القرآن الكريم قد أوضح ذلك بقوله تعالى: **﴿ومَن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على اللّه. وكان اللّه غفوراً رحيماً﴾**.. ناهيك عن أن الاجل المحتوم يحين سواء هاجر المرء أم لم يهاجر !

ولو أعدنا قراءة بعض الآيات آنفة الذكر:

﴿والّذين هاجروا في اللّه ..﴾

﴿ومن يهاجر في سبيل اللّه ..﴾

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه ورسوله ..﴾

فهنا تحديد للهجرة بأنّها في سبيل اللّه .. وللّه وحده. «وهذه هي الهجرة المعتبرة في الاسلام، فليست هجرة للثراء، أو هجرة للنجاة من المتاعب، أو هجرة للذائذ والشهوات، أو هجرة لأي غرض من أغراض الحياة. ومن يهاجر هذه الهجرة ـ في سبيل اللّه ـ يجد في الأرض فسحة ومنطلقاً فلا تضيق به الأرض، ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة» كما يقول مفسّر معاصر.

والى هذه الحقيقة أشار الرسول الاكرم صلى اللّه عليه وآله حينما قال: «إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكُل امرئٍ ما نوى. فمن كانت هجرته الى اللّه ورسوله. ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هو هاجر اليه».

فالأصل اذن يكمن في أعماق الذات وصميم الغايات وحقيقتها. وليس الأصل في قطع المسافات، مهما كانت متعبة، ومهما بلغت كلفتها، لأن الهجرة نقلة معنوية نفسية قبل أن تكون أي شئ آخر، وإلاّ فكم من مهاجر وهو لابث في مكانه، وكم من قاطع للمسافات ولكنه ليس بمهاجر !! على حدّ تعبير كاتب اسلامي.

وتتجاوز رحمة اللّه سبحانه بعباده المهاجرين حدود الدنيا الفانية، الى حيث آفاق الحياة الأخرى الباقية، فاذا ماهجر المهاجرون ـ في اللّه وفي سبيل اللّه ـ بعضاً من متاع الدنيا فان اللّه سيؤجرهم ثواب هذا الحرمان أضعافاً مضاعفة: **﴿والّذين هاجروا في اللّه من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة. ولأجر الآخرة أكبر لوكانوا يعلمون. الّذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلون﴾**.

وفي مورد آخر يصدح الحق بهذا الخصوص: **﴿والّذين هاجروا في سبيل اللّه ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم اللّه رزقاً حسناً و إنّ اللّه لهو خير الرازقين. ليدخلنهم مدخلاً يرضونه. وان اللّه لعليم حليم﴾**.

وفي الآية اشارة واضحة الى أنّ الهجرة ليست هزيمة من الظلم وهروباً الى الدعة والاستسلام والاسترخاء.. بل هي مواصلة لطريق الجهاد ضد المستكبرين والطغاة الظالمين.

ومتى ما أثبت المهاجرون المجاهدون صدقهم في الملمات، وانتصروا على أنفسهم ونوازعهم .. فلينتظروا النصر: **﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنّه الله إنّ الله لعفوٌ غفور﴾.**

تلك هي سنّة الله: **﴿ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾.**

وتلك هي سيرة الأولين من الصالحين .. **﴿سُنّة مَنْ قد أرسلنا من رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلاً﴾**

وهذا هو أبو الأنبياء ابراهيم الخليل عليه سلام الله، يهجر قومه وأهله وبيته ووطنه، وكل ما يربطه بهذه الأرض، ويهاجر الى الله، بعدما ضاقت به الأرض، وكاد له المجرمون، ومسّه الضر، وجرح الظلم كبرياءه التوحيدي: **﴿فارادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين. وقال إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين ..﴾.**

وعلى خطى الخليل.. كانت هجرة سليلة خاتم الأنبياء محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله .. الّذي تمرّد على أصنام الجاهلية وفراعنتها في مكة.. وهاجر الى حيث يثرب.. ليحط فيها الرحال .. ويقيم حكم الله.. ويجسّد عبوديته لله وحده دون سواه .. ويرسي دعائم أعظم حضارة انسانية شهدها التاريخ الإنساني.

وبعد إحدى وستين سنة من الهجرة النبوية الشريفة .. وفي غمرة تصاعدالانحراف الأموي .. يسارع الامام السبط الحسين بن علي عليهما السلام الى الهجرة .. واعلان الثورة ضد الطغيان .. وكانت ملحمة كربلاء أعظم ثورة بطولية في التاريخ .. «ولئن كان الاسلام محمّدي الوجود .. فانه حسيني البقاء»كما قيل.

في هذه اللحظة الحسّاسة من التاريخ حرّي بالمسلمين أن يرتقوا الى المضامين البعيدة للهجرة.. ويعيشوا أجواءها .. ومن لا يتطلع الى الهجرة المكانية .. فليهاجر في داخله.. .

ولتكن أمة الاسلام أمّة مهاجرة الى الله .. وفي سبيل الله .. ويومئذ سيفتح الله عليها الفتح المبين ..: **﴿ان الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم﴾.**

التحرير

المكي والمدني: الضوابط والمعطيات

السيّد سلام زين العابدين

إنَّ المقياس السائد والمُعتمد، اليوم، في تقسيم القرآن الكريم الى مكي ومدني، هو المقياس الزماني، حيث يتخذ الهجرة (قبلها وبعدها) مقياساً للتمييز بين المعنيين فما كان قبل الهجرة (ق. هـ) يسمّى مكياً، وما كانَ بعد الهجرة (ب. هـ) يسمّى مدنيا، حتى ولو نزل في مكّة بعد عام الفتح.

إنَّ هذا المقياس، بالاضافة الى شموليته لجميع الآيات والسور القرآنية، يساهم مساهمة فعّالة في التفسير القرآني، بما يوفر للمتدبّر والمفسّر، من أجواء وظروف التنزيل، ولو بصورة اجمالية. ذلك لانّهُ يحدّد لنا السور التي نزلت قبل الهجرة، حين كان المسلمون يعيشون المراحل الأولى، من مسيرة الدعوة الاسلامية، بقيادة الرسول الكريم صلّى الله عليه آله وسلّم، قبل أَنْ يؤسس الدولة الاسلامية، من السور والآيات التي نزلت، بعد اقامة الدولة التي تشكلُ الانعطافة الكبرى، في المسيرة الفكرّية والسياسية والتشريعية والعمليّة لحركه الاسلام، في صنع المجتمع وبناء الأمّة.

وليس خافياً مدى المعطيات التي تحققها تلك المعرفة، إنْ كانَ على صعيد الاطلاع، على كيفيّة البناء القرآني للأمّة المسلمة، ومواكبتها في عمليّة التغيير، أو كانَ على صعيد المعالجات القرآنية للقضايا والأحداث، بحسب اختلاف الظروف، ومعادلات القوى، في ساحة المواجهة والصراع، أو على صعيد تحديد المعاني والدلالات للسور والآيات والمفردات.. كما سنوضّح ذلك من خلال البحث ـ ان شاءَ الله ـ.

وقد اتبع بعض المفسرين طريقة تفسير القرآن وفق ترتيب نزول السور، فبدا بالسور المكية ثمّ المدنية، والذي دعاه الى ذلك رؤيته بانّ هذا هو « الافضل لفهم القرآن وخدمته. اذ بذلك يمكن متابعة السيرة النبوية زمناً بعد زمن، كما يمكن متابعة اطوار التنزيل ومراحله بشكل أوضح وأدق».

ولاتسلم مثل هذه المحاولات من مصاعب عقبات نضثر أصحابها الى الاعتراف بانّه «ليس في الامكان تعيين ترتيب صحيح لنزول السور القرآنية جميعها، كما انّهُ ليس هناك ترتيب ينبت بكامله على النقد أو يستند الى اسانيد قويّة ووثيقة».

المصحف وطريقة الجمع والترتيب:

إنَّ الذي يقرأ روايات جمع القرآن لينتابه العجب العجاب، من طريقة التأليف الغريبة التي لا تصدق على أبسط كتاب شعر لأصغر شاعر عربي، فكيفَ تصدق على القرآن الكريم!!، ذلك الدستور الخالد للأمّة الاسلامية، والمعجزة التي تتحدى العالم اجمعين الى قيام يوم الدين، والكتاب الّذي **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾**(فصلت: ٤٢).

وانهُ لمن حق المستشرقين وأعداء الاسلام والقرآن انْ يثيروا الشكوك، وعلامات الاستفهام الكبيرة، حول طريقة جمع القرآن وترتيبه، تلك المهمة التي ـ على ما تذكر الروايات ـ كُلِّفَ بها زيد بن ثابت، ذلك الشاب الذي يقول فيه الصحابي الكبير عبد الله بن مسعود: «يا معشر المسلمين أأعزل عن نسخ المصحف ويتولاها رجلٌ، والله لقد اسلمتُ وانّهُ لفي صلب رجلٍ كافر»[١]، والذي لم يكن مقتنعاً بفكرة الجمع هذه، حتى سأل عمر مستغرباً: كيفَ نفعل ما لم يفعله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؟! يقول زيد: «فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيتُ الذي رآى عمر»[٢]!!

وهكذا قام زيد بجمع القرآن من العسب «جريد النخل» واللخاف «صفائح الحجارة» والادم والقراطيس وكانت متفرقة.. فوجه نداءً عاماً: «من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأتِ به».. فجاءَ الناس بآيات القرآن وسوره.. فلا يقبلونَ من احدٍ شيئاً، حتى يأتي بشاهدين يشهدان بصحة ما عنده من قرآن!!. ولهذا فقد رفضت ما تسمى بـ«آية الرجم» التي جاءَ بها عمر، وزعم انّها من القرآن، لانّهُ لم يستطع ان يُقيم على ذلك شاهدين!! وبقي اثر ذلك في نفس عمر،

فكان يقول ـــ ايام خلافته ـــ: لو لا ان يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي[٣]!!

ومَعَ كل ذلك، لم ينظَّم القرآن على شكل سور مرتبة كمصحف، وانما اكتفوا بجمع القرآن في صحف، حتى لا يضيع منها شيءٌ! ثمَّ اودعت عند ابي بكر ثمَّ صارت عندَ عمر، وبعد ذلك كانت عندَ ابنته حفصة، وفي ايام توحيد المصاحف استعارها عثمان منها، ليُقابل بها النسخ، ثمَّ ردّها اليها، فلّما توفيت اخذها مروان ـــ يوم كانَ والياً على المدينة من قبل معاوية ـ من ورثتها، وأمر بها فشقّت[٤]!!.

تساؤلات مشروعة:

ولا داعي للاسترسال بسرد الروايات التي تتحدّثُ عن جمع القرآن، سواء في عهد الخليفة الاول أو الثالث.. ولكننا نتساءل فنقول:

اين كانَ الامام علي عليه السّلام في ذلك الوقت؟! ولماذا لم يفزعوا اليه ليعينهم في «محنة» الجمع والترتيب هذه، والتي يصفها من كُلِّفَ بها (زيد بن ثابت) بقوله «فوالله لو كلّفوني نقل جبل من مكانه لم يكن أثقل عليَّ ممّا كلّفوني به»[٥]؟! وهل هناك من هو أكبر خبرة، وأعظم معرفة، بكتاب الله من علي عليه السّلام؟ ألم تُجمع الروايات من الفريقين أنَّ علياً عليه السّلام كانَ أعلم الناس بالقرآن الكريم، وهو القائل «سلوني عن كتاب الله فوالله ما من آيةٍ إلاّ وانا اعلمُ أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل» وقوله «والله ما نزلت آية إلاّ وقد علمت فيم نزلت، واينَ نزلت انَّ ربي وهبَ لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤولاً»[٦].

ثمَّ هل ترك رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلّم، ذلك القائد الرباني المعصوم، أمرَ القرآن الكريم سُدى وهو معجزتهُ الخالدة، ليُجمعَ من بعده بشهادة شاهدين؟! ألم يعمل الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلّم شيئاً من أجل مستقبل القرآن، ويخطط لحمايته وحفظه وصيانته؟! اينَ كتّاب الوحي في زمن الرسول؟! وماذا كانُوا يكتبون طوال سنوات النزول؟!

يقول الامام الخوئي في بيانه: «إنَّ اسناد جمع القرآن الى الخلفاء امرٌ موهوم، مخالفٌ للكتاب، والسنة، والاجماع، والعقل» ثم يقول «ولو سلّمنا ان جامع القرآن هو ابو بكر في ايام خلافته، فلا ينبغي الشك في انَّ كيفيّة الجمع المذكورة، في الروايات المتقدمة، مكذوبة، وان جمع القرآن كانَ مستنداً الى التواتر بين المسلمين، غاية الأمر ان الجامع قد دونَ في المصحف ما

كانَ محفوظاً في الصدور، على نحو التواتر»[٧]

ويقول العلامة البلاغي في تفسيره: «إنَّ علياً أمير المؤمنين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لم يرتد برداء إلاّ للصلاة حتى جمع القران على ترتيب نزوله وتقدّم منسوخه على ناسخه. وأخرج ابن سعد وابن عبد البر في الاستيعاب عن محمد بن سيرين، قال: نبئتُ آنَّ علياً ابطأ عن بيعة ابي بكر، فقال: أكرهت امارتي؟

فقال: آليت بيميني ان لا أرتدي برداء إلاّ للصلاة حتى أجمع القرآن. قال: فزعموا انَّهُ كتبه على تنزيله. قال محمد: فلو اصبت ذلك الكتاب كانَ فيه علم»[٨].

عن الامام الباقر عليه السّلام قال: ما من أحدٍ من الناس يقول أنّه جمع القرآن كلّه، كما انزل الله إلاّ كذّاب، وما جمعه وما حفظه كما انزل الله إلاّ علي بن ابي طالب».

ويخبرنا الشيخ المفيد أنّ الامام علياً عليه السّلام قد جمع «القرآن المنزل من أوّله الى آخره، وألّفه بحسب ما وجب تاليفه، فقدّم المكي على المدني والمنسوخ على الناسخ، ووضع كل شيء منه في حقّه»[٩].

ولهذا فانَّ مصحف امير المؤمنين علي عليه السّلام يمتاز عن غيره من المصاحف بالترتيب الصحيح للسور المكية والمدنية بحسب التنزيل.. وبالتالي يوفّر علينا جهوداً كبيرة، صرفها ويصرفها المفسرون، في تشخيص المكي والمدني من السور والآيات.. والتي لا تسلم من القصور أو التقصير.

والسؤال الذي يطرح في المقام: لماذا سكت علي عليه السّلام عن ذلك ورضي في الترتيب، ولم يصّر على عرض مصحفه الذي كتبه بخطِّ يده؟

يقول العلامه الطباطبائي «ويمكننا القول بجرأة انَّ سكوت علي عليه السّلام الذي كانَ مصحفه يخالف، في الترتيب، المصحف المنتشر، كان لانَّ ترتيب النزول لم يكن ذا أهمية في تفسير القرآن بالقرآن الذي يهتم به أهل البيت عليهم السّلام، بل المهم فيه هو ملاحظة مجموع الآيات ومقارنة بعضها ببعض، لانَّ القرآن الذي هو الكتاب الدائم لكل الأزمان والعصور والاقوام والشعوب لا يمكن حصر مقاصده، في خصوصية زمنية، أو مكانية أو حوادث النزول واشباهها».

ولكن كم هي الخسارة التي حصلت جرّاء الاختلاف، في ترتيب النزول وتشخيص المكي من المدني؟. وكم هي المعطيات التي ضاعت من أيدينا نتيجةً لذلك؟. ولهذا فانَّ العلامة الطباطبائي

يستدرك فيقول: «نعم، بمعرفة هذه الخصوصيات يمكن استفادة بعض الفوائد، كالعلم بتأريخ ظهور بعض المعارف والأحكام والقصص التي كانت مقارنة لنزول الايات، وهكذا معرفة كيفيّة تقدّم الدعوة الاسلاميّة، في ثلاث وعشرين سنة، وامثالها... ولكنّ المحافظة على الوحدة الاسلاميّة التي كانت الهدف الدائم لاهل البيت هي أهم من هذه الفوائد الجزئيّة».

«إنَّ الامام أمير المؤمنين عليه السّلام، بالرغم من انّهُ كان اوّل من جمع القرآن، على ترتيب النزول، وردّوا جمعه، ولم يشركوه، في الجمع الاول والثاني، مَعَ هذا لم يبدِ أيّة مخالفة او معارضة، وقَبل المصحف ولم يقل شيئاً عن هذا الموضوع، حتى في ايام خلافته.

وهكذا أئمة أهلُ البيت عليهم السّلام أولاد علي وخلفاؤه لم يخالفوا في الموضوع، ولم يقولوا شيئاً، حتّى لأخص أصحابهم، بل كانوا دائماً يستشهدون بما في هذا المصحف، ويأمرونَ الشيعة بالقراءة كما يقرأ الناس»[١٠].

ولقد قالها أمير المؤمنين عليه السّلام لطلحة، عندما الحَّ عليه بالسؤال، عن المانع الذي يمنعه من اخراج مصحفه، أثناء فتنة اختلاف المصاحف، في عهد الخليفة الثالث، قال له عليه السّلام: يا طلحة، عمداً كففتُ عن جوابك. فاخبرني عمّا كتبه القوم أقرآنٌ كلُّهُ ام فيه ما ليس بقرآن؟ فاجابه طلحة: بل قرآن كلّه. قال عليه السّلام إن اخذتم بما فيه نجوتم من النار، ودخلتم الجنة.. قال طلحة: حسبي أما اذا كانَ قرآناً فحسبي»[١١].



المكي والمدني: ضوابط التمييز الثلاثة:

لقد بذل علماء التفسير، قديماً وحديثاً، جهوداً كبيرة من أجل أَنْ يشخّصوا السور القرآنية بحسب التنزيل، ليعرفوا على أقل التقادير المكي والمدني منها، اِلّا أنَّ محاولاته، وإن كانت سهلةً، في بعض السور القرآنية، اِلا أنّها في غاية التعقيد والصعوبة، في البعض الاخر، الى درجة تجد فيها الاقوال قد تصل الى حد التناقض.. ففي الوقت الذي يتحمس فيه مفسرٌ الى مكية سورة، ويكاد يقطع بذلك، ترى مفسراً آخر يتحمسُ الى مدنيتها، ويكاد يقطع بذلك..

بيد انْ هذا التحمس لم ينطلق من فراغ، أو رغبات ذاتية شخصيّة، وان كانَ لها دور شعوري أو لا شعوري، في بعض الاحيان،

إلاّ اننا نستطيع أنْ نشخص ثلاثة ضوابط أساسيّة اعتمدت، في تمييز السور المكيّة والمدنية، وهي:

الضابط الأول: الرواية (المنقول).

الضابط الثاني: الاسلوب التعبيري (الشكل).

الضابط الثالث: الموضوع (المحتوى والمضمون).

الضابط الأول: وينقسم الى نوعين:

أ-روايات المكي والمدني:

وهي التي حددت ترتيب السور بحسب النزول، ففرزت المكي والمدني منها، وتوجد عدّة روايات، في هذا الخصوص، بينها بعض الاختلاف، في بعض السور التي اختلف في مدنيتها أو مكيتها كما ان بينها بعض التفاوت في ترتيب النزول.

وقد نقلت روايتان عن ابن عباس، أحدهما عن طريق عطاء عن أبيه، والاخرى عن طريق مجاهد، ورواية ثالثه عن عكرمة والحسين بن ابي الحسن، ورابعة عن قتادة، وخامسة عن علي بن ابي طلحة، وسادسة رواها اليعقوبي في تأريخه، واليك جدولٌ بتلك الروايات يوضح ترتيب السور المدنية فحسب:

جدول مقارنة:

نستعرض هنا روايات المكي والمدني في تحديد السور المدنية، كما وردت حسب روايات: عكرمة، عطاء، مجاهد، علي بن أبي طلحة، قتادة، اليعقوبي. وكما مبين في الجدول التالي:

عكرمة	عطاء	مجاهد	ابي طلحة	قتادة	اليعقوبي
المطففين	—	—	—	—	المطففين
البقرة	البقرة	البقرة	البقرة	البقرة	البقرة
آل عمران	الانفال	الانفال	آل عمران	آل عمران	الانفال
الانفال	آل عمران	آل عمران	النساء	النساء	آل عمران
الاحزاب	الاحزاب	الاحزاب	المائدة	المائدة	الحشر
المائدة	الممتحنة	الممتحنة	الانفال	براءة	الاحزاب
الممتحنة	النساء	النساء	التوبة	الرعد	النور
النساء	الزلزلة	الزلزلة	الحج	النحل	الممتحنة
الزلزلة	الحديد	الحديد	النور	الحج	الفتح
الحديد	القتال	القتال	الاحزاب	النور	النساء
محمد	الرعد	الرعد	الذين كفروا	الاحزاب	زلزلة
الرعد	الرحمن	الرحمن	الفتح	محمد	الحج
الرحمن	الانسان	الانسان	الحديد	الفتح	الحديد
هل اتى	الطلاق	الطلاق	المجادلة	الحجرات	محمد
الطلاق	البينة	البينة	الحشر	الحديد	الانسان
لم يكن	الحشر	الحشر	الممتحنة	الرحمن	الطلاق
الحشر	النصر	النصر	الصف	المجادلة	البينة
اذا جاء نصر	النور	النور	التغابن	الحشر	الجمعة
النور	الحج	الحج	الطلاق	الممتحنة	المنافقون
الحج	المنافقون	المنافقون	التحريم	الصف	المجادلة
المنافقون	المجادلة	المجادلة	الفجر	الجمعه	الحجرات
المجادلة	الحجرات	الحجرات	الليل	المنافقون	التحريم
الحجرات	التحريم	التحريم	القدر	التغابن	التغابن
التحريم	الجمعة	الجمعة	لم يكن	الطلاق	الصف
الصف	التغابن	التغابن	الزلزلة	التحريم	المائدة
الجمعه	الصف	الصف	النصر	الزلزلة	البراءة
التغابن	الفتح	الفتح		النصر	النصر
الفتح	المائدة	المائدة			الواقعة
براءة	براءة	براءة			العاديات

اننا امام هذه الروايات التي تتحدث عن موضوع لـهُ اهميته البالغة، فـي فقه السيرة والتفسير، لا يمكن اَنْ نطمئن اليهـا، ونعتمد عليها وحدها، في تشخيص المكي والمدني، لا من حيث سندها ولا مـن حيث متنها الذي يختلف مـن روايـة الى اُخـرى فـي تـرتيب السور.

وقد كانَ موقف علمـاء التفسير متبايناً تجاههـا، ففي الوقـت الذي يتخذهـا البعض موضـع ثقتهم، وخصوصاً رواية ابن عباس، باعتبارها جاءت «بطرقٍ وأسانيد اعترف بها ائمة الفن»[١٢] حتى قال الزركشي «وعلى هذا الترتيب استقرت الرواية من الثقات»[١٣] نجد البعض الاخـر يرى «انّـهُ لا يمكن الاعتمـاد عليها بوجهٍ من الوجوه.»[١٤]، وذلك لانّها:

أولاً: ليس لها قيمه الاحـاديث الدينيّة، لانَّ سندها لـم يتصل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولـم يعلم انَّ ابـن عبـاس مثـلاً تعلّـم الترتيب مـن النبي او من انسانٍ آخـر او هو اجتهادي نظري[١٥].

ثانياً: ليس لها قيمه النقول التأريخيّة، لانَّ ابن عبـاس مثلاً أدركَ مدّة قصيـرة، من حيـاة الـرسول، فلـم يكن معـه دائمـاً حتى يُشاهد كيفية نـزول كل السور والآيات، فلو لم يكن اجتهد في هذا الترتيب فلا بدَّ انّهُ نقله من انسانٍ آخـر لم نعلم شخصه، فهـذا نقلٌ تاريخي لم يذكر فيه المصدر، فليس لهُ قيمة في سوق التحقيق[١٦].

ثالثاً: «وعلـى فـرض صحّـة هـذه الاحاديث واستقامتهـا، فهي من قبيل الخبر الواحد، وقد ثبت، في اُصول الفقه، انَّ الخبر الواحد غير حجّة، في ما عدا الفقه»[١٧].

رابعاً: «للعلم بمكيّة السـور ومدنيتها، ثُمَّ تـرتيب نـزولهـا اثرٌ هـامٌ، في الابحـاث المتعلقة بالدعوة النبـوية، وسيرها الروحي والسياسي والمدني في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم وتحليل سيرته الشـريفة، والروايات ـ كما ترى ـ لا تصلح انْ تنهض حجّة معتمداً عليها في اثبات شيءٌ من ذلك»[١٨].

خامساً: «علـى انَّ فيمـا بينهـا مـن التعارض ما يسقطها عن الاعتبار»[١٩].

ب ـ روايات اسباب النزول:

حيث تمثـل اسبـاب النزول الـوقـائع والاحداث التي جـاءت على اثرهـا الايات او السور القرآنية، ومن خلال معرفتنا بالسبب وظـروفـه وأجـوائه وزمنـه نستطيـع انْ نشخص ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها، وكثيراً ما تختلف اسبـاب النزول باختلاف الـروايات الـواردة، فلابُـدَّ من التعامـل معَ الـروايـات تعـامـلاً علميـاً من حيـث المتن والسند لنرجح احداهما على الأُخرى، وكثيراً

ما تكون الروايات ساقطة عن الاعتبار لضعف سندها.

الضابط الثاني: الاسلوب التعبيري «الشكل»:

وهو يعتمد على اختلاف السور المكية والمدنية من حيث الاسلوب والشكل، ويتمثل في:

١ـ طول السورة أو قصرها.

٢ـ هدوء أو قوّة ايقاعها.

٣ـ لين أو شدّة لهجتها.

ان السور المكية تمتاز عادة بقصرها وقصر آياتها وشدّة ايقاعها.. إلاّ ان هذا لا يعني عدم وجود سور مدنية بهذه المواصفات الشكلية.. فسورة النصر مثلاً من السور المدنية رغم قصرها وشدّة ايقاعها فيما نجد بعض السور المكية الطويلة كسورة الانعام مثلاً..

ولهذا كانَ من الخطأ، ان يُعوّل على هذا الضابط وحدهُ في عملية التمييز والفرز.

الضابط الثالث: المحتوى والمضمون:

ولعل هذا هُوَ الاساس الاوّل الذي يعوّل عليه المفسرون في تشخيص السور والايات القرآنية، باعتبار انَّ المواضيع التي تطرحها السور المكية هي ـ عادة ـ مواضيع البناء العقائدي الذي يركز على التوحيد والمعاد في تربية الانسان المسلم. فيما نجد مواضيع السور المدنية تتناسب معَ تكوين الدولة وتأسيسها وبناء المجتمع الاسلامي.

إلاّ انَّ هذا لا يعني ان لا تتحدث السورة المدنية عن عقيدة التوحيد والمعاد.

يقول العلامة الطباطبائي «فالطريق المتعّين لهذا الغرض هو التدبّر في سياق الايات والاستمداد بما يتحصل من القرائن والامارات الداخليّة والخارجية، وعلى ذلك نجري في هذا الكتاب (الميزان) والله المستعان»[٢٠].

انَّ التشخيص السليم للمكي والمدني يحتاج الى موازنة دقيقة وذكيّة بينَ هذهِ الضوابط الثلاثه.. ولهذا نرى اختلاف التشخيص بحسب:

اولاً: اختلاف العمق في النظر، والدقّة في التشخيص.

ثانياً: اختلاف الاولويات في هذهِ الضوابط.. حيث يعتبر بعض المفسرين ان الروايات هي المعتمد الاوّل، فيما يرى البعض الاخر ان الاساس الاوّل هُوَ المحتوى والمضمون، فيما يرى ثالثٌ ان الشكل والاسلوب هو المقدّم في التشخيص.

ثالثاً: وقد تلعب الأفكار المسبّقة،

والعصبيات المذهبية، دوراً في عملية التمييز والفرز.

رابعاً: كما ويلعب الموقف من الرواة دوراً في الاعتماد على الرواية أو طرحها.

خطورة الافكار المسبّقة:

انَّ من الأمور التي يجب الحذر منها في كلِّ حكم ولا سيّما في الحكم على السور بانها مكيّة او مدنية هو ما يحملهُ الانسان الباحث من افكار مسبّقة، وقناعات فكريّة تجعله يسيِّر وقائع القرآن واحداثه على ضوء قناعاته وافكاره، في الوقت الذي يجب انْ تكون وقائع القرآن هي التي ترسمُ لنا القناعات والافكار.

ولهذا فبدلاً من انْ يأخذ المفسِّر من السورة المكيّة مثلاً المفاهيم التي تطرحها، والاضواء التي تسلطها على الواقع الاجتماعي، ليتعرف على طبيعة المسيرة الاسلاميّة وما عانته من عقبات ومحن ومطبات.. بدلاً من ذلك، يأتي ليجعل قناعته المسبقة القائلة بانَّ هذهِ العقبات حدثت بالمدينة وليس في مكة.. فيقول بمدنيّة تلك السورة المكيّة لانَّ مكيتها لا تنسجم مَعَ ما يحمل من قناعات مسبقه، وتصورات جاهزة.

وقد يكون الأمر معكوساً، فيحوّل السورة المدنية الى مكيّة، لانَّ القول بمدنيتها لا ينْسجم معَ الضوابط والإمارات التي حددها هُوَ في نظرته الى المكي والمدني، وإن كانت بعيدةً عن منطق الوقائع التأريخيَّه، وسياق السورة القرآنيّة.

ومن القناعات الخاطئة التي اعتبرت ضابطاً عند بعض المفسرين وعلى اساسها فرزوا السور والايات الى مكية ومدنية، هي الفكرة القائله انَّ النفاق ظهر في المدينة بعد الهجرة، ولم يكن في مكة قبل الهجرة منافقون لانَّ الحالة الاسلامية كانت تعيش الضغوطات الصعبة التي لا يتحملها الا الرساليون المخلصون الذين وضعوا ارواحهم في أكفهم..

مثل تلك الظروف والأجواء لا وجود للمنافقين الذين يعيشونَ المصلحيّه والذاتيّة واللعب على اكثر من حبل.

وعندما اسس المسلمون دولتهم في المدينة وقويت شوكتهم ظهر المنافقون فاظهروا الايمان بهذا الدين الذي استلم زمان الحكم والسلطان، وابطنوا الكفر لما رأوا من ذهابٍ لسلطانهم واطماعهم، فعاشوا التآمر على الاسلام ودولته، واتخذوا إسلامهم نفقاً يتسللون من خلالهِ لاثارة البلبلة في المجتمع، وتمزيق الصفوف.

هذه الفكرة التي سيطرت على بعض

المفسرين جعلتهم يقولون بمدنية سورة العنكبوت على اقوالٍ مختلفة، ففريقٌ قال بمدنيتها كلها، وآخر بمعظمها، وثالث ببعضها (الاحدى عشرةَ آية الأولى) ذلك لأنَّ الآية الحادية عشرة تذكر المنافقين بقوله تعالى **﴿وليعلمنَّ اللهُ الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين﴾**.

وبسبب ذلك الاتجاه المسبّق الخاطيء، ضاعت الكثير من معاني السورة وأجوائها وأسباب نزولها.

اننا يمكن انْ نتصور ظهور النفاق في مكة قبل الهجرة رغم تلك الأجواء العصيبة والظروف الصعبة التي كانت تمرُّ بها الرسالة والمؤمنون، وذلك بوجهين محتملين:

الوجه الاول: سقوط بعض المؤمنين بالفتنة جرّاء الايذاء والمعاناة.. مما يسبب لهُ الارتياب في الدين، والارتداد الى الكفر، اِلاّ انّهُ يكتمُ ذلك خوفاً من الفضيحة، وطمعاً في اللعب على الحبال المتناقضة، والاستفادة من الجميع.

ولعل هذا ما توضحهُ سورة العنكبوت في قوله تعالى **﴿ومن الناس من يقولُ آمنا بالله فإذا اوذي في الله جَعَلَ فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصرٌ من ربِّك ليقولنَّ إنّا كُنّا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمنَّ اللهُ الذينَ آمنوا وليعلمنّ المنافقين﴾** (العنكبوت: ١٠-١١).

ومن المعلوم انَّ الفتنة والايذاء في الله «انَّما كانَ بمكّة، فلم تكن في المدينة بعد الهجرة فتنة» وقد جاء التعبير باذا «الدالة على تحقق الوقوع بخلاف مجيء النصر، حيث عبّر عنهُ بانْ الشرطية الدالة على امكان الوقوع دون تحققه»[٢١].

ولهذا فانَّ العيش في أجواء الفتنة يحتاجُ الى جهادٍ وصبرٍ عظيمين، وهذا ما تحدثت عنهُ الاية السادسة من سورة العنكبوت **﴿ومن جاهد فانما يُجاهد لنفسه﴾** والتي جعلها البعض دليلاً اخر على مدنية السورة! وكأنَّ الجهاد لا يطلقُ اِلاّ على القتال في ساحات الحرب وميدانَ المعركة العسكريّة.

الوجه الثاني: دخول بعض المنافقين في الاسلام رغم قساوة الظروف، جرّاء التطلع الى المستقبل، وتغيّر معادلات القوى في الساحة.. فتراهم «يعيشونَ على خطرٍ مصرّين على ذلك رجاءَ ان يوفقوا يوماً لاجراء مرامهم، ويتحكموا على الناس باستقلالهم بادارة رحى المجتمع والعلو في الأرض»، وخصوصاً انَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلَم كانَ «يذكر في دعوته لقومه ان لو آمنوا بهِ واتبعوه كانوا ملوك الأرض».

ولهذا فـانّهُ «من الجائز عقـلاً انْ يكون بعض من آمنَ بهِ يتبعه في ظـاهر دينه طمعاً في البلـوغ بـذلك الـى أُمنيتـه وهي التقـدّم والرئاسـة والاستعلاء، والأثر المتـرتب على هذا النوع من النفـاق ليس هو تقليب الأمور وتـربص الـدوائر على الاسـلام والمسلمين وافساد المجتمع الديني بل تقويته بما امكن وتفديته بالمال والجـاه لينتظم بذلك (الأمر) ويتهيأ لاستفـادتـه منـه واستـدراره لنفـع شخصه»[٢٣].

ولعل هـذا ما يُشير اليـه قوله تعـالى: ﴿ولئن جاءَ نصرٌ من ربِّك ليقـولنَّ انا كُنّا معكم﴾(العنكبوت:١٠)، فهؤلاء ـ على ما يظهر ـ انمـا دخلـوا فـي الاسـلام في مكـة لانهـم يترقبـون النصر والغلبة ليكـون لهم الغنم، من دونِ انْ يكـون عليهم الغرم.. ولهـذا فانَّ عملية الايـذاء اذا وصلت الى درجـةٍ تجعلهم يعيشـون اليـأس مـن المستقبـل، يبـدأون بالشكـوى والجزع ممـا هم فيه مـن المحنة التـي اصبحت تضغـط عليهم بثقلهـا وقـد تكلّفهـم حَيـاتهـم.. فتـذهـب أَحـلامهـم المستقبلية ادراج الرياح.

وهكـذا تلعـب المـواقـف المسبّقـة والاتجاهات النفسيّة للمفسّـر دورها الكبير في ليّ عنق النـص القرآني، وفرض قناعـاته واتجاهاته عليه.

من هـذا المنطلق ينبغـي الانتبـاه الى خطورة الافكار المسبقة، والملامح الجاهزة التي قد يتخذها المفسِّر في تشخيص المكي والمدنـي من السور القـرآنية، التـي تجعلُه يـرفـض الكثيـر من القـرائن والـروايـات والـوقـائع التأريخيـة المخـالفه لنظـرتـة وقناعتـه، بدلاً من انْ يغيّر نظـرته ويصحح قناعته على ضوء تلك المعطيات.

سورة الانسان: نموذجٌ تطبيقي:

ومن أجل انْ يتضح دور تلك الضوابط الثلاثـة في تشخيص المكي والمدنـي، لابُدَّ من اللجـوء الى النمـاذج التطبيقيّه، ولنأخـذ سورة الانسان (الدهر) نموذجاً لذلك.

لقد اختلف المفسرون في مدنية سورة الانسان، فبعضهـم تحمّس كثيراً لمكيتهـا، فيما تحمَّسَ آخرون لمدنيتها.

١ـ الروايات:

انَ الروايـات مستفيضـة من الفـريقين في مدنية سورة الدهر.

بل لعلهـا تصل الـى حدِّ التـواتـر في روايات اهـل البيت عليهم السّلام. سواء كانت روايـات القسم الاول (المكـي والمـدني) او روايـات القسم الثـاني (أسبـاب النـزول)، واليك الروايات:

١ــ رواية عكرمة والحسن بن ابي الحسن. وقد ذكرها السيوطي في اتقانه عن البيهقي في دلائل النبوة[٢٣].

٢ـ رواية عطاء عن أبيه عن ابن عباس، وقد ذكرها السيوطي في الاتقان عن ابن الضرّيس في فضائل القرآن باسناده عن عثمان بن عطاء الخراساني عن ابيه عن ابن عباس[٢٤].

٣ـ رواية مجاهد عن ابن عباس، وقد ذكرها صاحب الاتقان عن البيهقي في الدلائل باسناده عن مجاهد عن ابن عباس[٢٥].

٤ـ رواية ابن عباس: في الدر المنثور اخرجَ ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانسان بالمدينة[٢٦].

٥ـ رواية سعيد بن المسيب عن علي عليه السّلام: في المجمع باسناده عن الحاكم باسناده عن سعيد بن المسيب عن علي بن ابي طالب انهُ قال: سألتُ النبي عن ثواب القرآن: فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء.

فاوّل ما نزل عليه بمكّة فاتحة الكتاب ثمّ اقرأ باسم ربّك ــ الى ان قال ــ واوّل ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثمَّ الانفال ثمَّ آل عمران ثم الاحزاب ثمَّ الممتحنة ثم النساء ثمَّ اذا زلزلت ثمَّ الحديد ثم سورة محمد ثم الرعد ثم سورة الرحمن ثم هل أتى (الانسان)[٢٧].

٦ــ رواية ابي حمزة الثمالي: وفي المجمع عن ابي حمزة الثمالي في تفسيره قال: حدثني الحسن بن الحسن ابو عبد الله بن الحسن انها مدنية نزلت في علي وفاطمة السورة كلها[٢٨].

روايات أسباب النزول:

١ـ رواية ابن عباس: في الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ويطعمون الطعام على حبه..﴾ الاية. قال: نزلت هذه الاية في علي بن ابي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم[٢٩].

٢ـ رواية ابن عباس: وفي الكشاف عن ابن عباس انَّ الحسن والحسين مرضا فعادهما رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلّم في ناس معه. وذكر الزمخشري رواية النذر المعروفة ومجيء المسكين واليتيم والاسير ونزول السورة.

قال صاحب تفسير الميزان: الرواية مروية بغير واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس. ونقلها البحراني في غاية المرام عن ابي المؤيد الموفق بن احمد في كتاب

فضائل أمير المؤمنين باسناده عن مجاهد عن ابن عباس وعنه بإسناد آخر عن الضحاك عن ابن عباس وعن الحمويني في كتاب فرائد السمطين باسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وعن الثعلبي باسناده عن ابي صالح عن ابن عباس، ورواه في المجمع عن الواحدي في تفسيره.

وقد ذكر صاحب تفسير البصائر جماعة كبيرة من اعلام السنّة من الذين ذكروا هذا الحديث، ومن أهمهم: ابن الاثير في (اسد الغابة)، البغوي الشافعي في (معالم التنزيل)، وابن حجر العسقلاني في (الاصابة)، سبط ابن الجوزي في (التذكرة)، محب الدين الطبري في (ذخائر العقبى)، ابن كثير الدمشقي في (البداية والنهاية)، الفخر في تفسيره (مفاتيح الغيب)، أبو حيان الاندلسي في تفسيره (البحر المحيط)، البيضاوي في تفسيره (انوار التنزيل)، النظام النيشابوري في تفسيره (غرائب القرآن)، والالوسي في تفسيره (روح المعاني).

حتى ان الآلوسي نقل عن امام الشافعية محمد بن ادريس المطلبي الشافعي قوله:

الى م الى مَ وحتّى متى
أُعاتب في حبِّ هذا الفتى
وهل زوّجتْ فاطمُ غيره
وفي غيره هل اتى هل اتى[٢٩]

٣ـ رواية عطاء عن ابن عباس: في اسباب النزول للواحدي النيسابوري في قوله تعالى ﴿**ويطعمون الطعام على حبّه مسكينا..**﴾ الآية. قال عطاء عن ابن عباس: وذلك ان علي بن ابي طالب نَوْبةً آجَر نفسه يسقي نخلاً بشيء من شعير ليلة، حتى اصبح وقبض الشعير وطحن ثلثه، فجعلوا منهُ شيئاً ليأكلوه يُقال لهُ: الخزيرة (العصيدة). فلما تمَّ إنضاجه اتى مسكين فاخرجوا اليه الطعام، ثمَّ عمل الثلث الثاني، فلما تمَّ انضاجه اتى يتيم فسأل فاطعموه. ثُمَّ عمل الثلث الباقي، فلما تمَّ انضاجه اتى اسير من المشركين فاطعموه، وطووا يومهم ذلك. فأنزلت فيه هذهِ الايات»[٣٠].

ولم يذكر الواحدي غير هذا السبب في نزول الآية.

٤ـ رواية الامام الصادق عليه السّلام: في تفسير القميِّ عن أبيه عن عبد الله بن ميمون عن ابي عبد الله عليه السّلام قال: كانَ عند فاطمة عليها السّلام شعير فجعلوه عصيدة.

وذكر الرواية الى ان قال: فانزل الله سبحانه الايات فيهم، وهي جارية في كلِّ مؤمنٍ فعل ذلك لله عزّوجل.

قال العلامة الطباطبائي في ميزانه: روى ذلك البحراني في غاية المراد عن المفيد في الاختصاص مسنداً، وعن ابن بابويه في الأمالي باسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وباسناده عن سلمة بن خالد عن جعفر بن محمد عن ابيه عليهما السّلام، وعن محمد بن العباس بن ما هيار في تفسيره باسناده عن ابي كثير الزبيري عن عبد الله بن عباس، وفي المناقب انّهُ مروي عن الاصبغ بن نباتة[٣١].

ولايسعنا استقصاء الروايات في هذا المقام والتي تؤكد على نزول السورة في علي عليه السّلام.

امّا ما روي في قصّة الحبشي أو الرجل الاسود الذي «فاضت روحُه» أو «زفَرَ زفرة فخرجت نفسه» عندما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم سورة الانسان، فهذهِ الروايات «على تقدير صحتها لا تدلُّ على أزيد من كون نزول السورة مقارناً لقصّة الرجل، واما كونها سبباً للنزول فلا»[٣٢].

الضابط الثاني: الاسلوب التعبيري:

يظهر من السورة انّها اقرب في اسلوبها وشكلها الى السور المكيّة، وان كانت هادئة في ايقاعها.

الضابط الثالث: المحتوى والمضمون:

فاننا نلمحُ بعض مواضيع السور المكيّة حيث تحوي على «صور النعيم الحسيّة المفصلة الطويلة» و«صور العذاب الغليظ» وتوجيه «الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم الى الصبر لحكم ربِّه، وعدم اطاعة اثم منهم أو كفور، مما كان ينزل عند اشتداد الاذى على الدعوة واصحابها في مكة، مَعَ امهال المشركين وتثبيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم على الحق الذي نزل عليه، وعدم الميل الى ما يدهنون.. كما جاءَ في سورة القلم، وفي سورة المزمل، وفي سورة المدثر مما هو قريبٌ من التوجيه في هذه السورة»[٣٣].

بيد اننا في نفس الوقت نلمح بعض المواضيع المدنيّة في السورة ذاتها، حيث نجد انها تذكر «الأسير» في قوله تعالى **﴿ويطعمون الطعام على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾**، ووجود «الأسير فيمن اطعمه هؤلاء الابرار نعم الشاهد على كون الايات مدنية، فانَّ الاسر انما كانَ بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وظهور الاسلام على الكفر والشرك لا قبلها». وكذلك الحال في موضوع النذر في قوله تعالى **﴿يوفونَ بالنذر ويخافونَ يوماً كانَ شره**

مستطيراً﴾.

وقد لجأ بعض المفسرين الى تأويل الأسير بعدة تأويلات متكلّفة، حيث قال بعضهم ان المقصود به: الاسير من اهل القبلة في دار الحرب بايدي الكفار، وقال آخر هُوَ المحبوس، وقال ثالث هو المملوك من العبيد، وقال رابع هُوَ الزوجه.. «كل ذلك تكلّفٌ من غير دليل يدلُّ عليه»[٢٤].

وبالموازنة بين تلك الضوابط الثلاثة رجّحَ بعض المفسِّرين مكية السورة.. بل وقطعَ بذلك، حيث اعتبرها من «بواكير ما نزل من القرآن المكي» .. واعتبر ان احتمال مدنية السورة «هُوَ احتمال ضعيف جدّاً، يمكن عدم اعتباره»، وفسر «الاسير» في قوله ﴿مسكيناً ويتيماً واسيرا﴾ من ضمن «الضعاف المحاويج»، كما فسَّر «النذر» في قوله ﴿يوفون بالنذر﴾ بمعنى «اعم من المعنى العرفي المتبادر من كلمة «النذر» ليكون معناه «ما اعتزموا من الطاعات، وما التزموا من واجبات».

ومن الغريب انَّ صاحب الظلال قد أهمل روايات اهل السنة التي وصلت الى حدِّ الاستفاضه على مدنية السورة، كما اهمل روايات اهل البيت التي وصلت حدَّ التواتر!! ولم يذكر منها شيئاً، في الوقت الذي نجده في كثير من الاحيان يذكر بعض روايات اسباب النزول وغيرها رغم ضعفها ووهنها سنداً ومتناً ويعوّل عليها في تفسيره.

ومع اعتراف صاحب التفسير الحديث «محمد عزة دروزه» على أنَّ «الروايات تقتضي ان تكون الآيات مدنية» إلاّ انّهُ يرى أنَّ «الطابع المكي قوي البروز عليها». ولهذا فإنَّه ورغم الروايات المستفيضة من غير الشيعة يرى أنَّ نزول الآيات في سورة الإنسان في علي وفاطمة عليهما السلام «فما نالت حفاوة المفسرين الشيعة كثيراً، الّذين ولعوا في صرف كثير من الآيات الى علي رضي اللّه عنه وذريته بقطع النظر عن المناسبة والسياق حتى لقد يخطر بالبال ان تكون رواية مدنية السورة أو الآيات من ذلك الباب» !! *

انْ من الخطأ ان يكون المقياس في تشخيص المكي والمدني على المحتوى والمضمون، او الشكل والاسلوب، وإهمال الروايات المستفيضة بل المتواترة بحجة ان السورة تتحدث عن يوم القيامة وما سيواجه المجرمين فيه من عذاب وبحجه انّها ترسم «صور النعيم الحسيّة المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ». ولستُ ادري هَلْ انَّ أُصول الدين تختص بمرحلة ما قبل الهجرة فحسب، بحيث لا يمكن انْ يركّز عليها القرآن في تربية الأمّة بعد الهجرة ويذكرها في

احدى سوره؟! هل انَّ المجتمع الاسلامي لم يعد بحاجة الى من يـذكرهُ بأُصول دينه من توحيد ومعاد ويوم قيامة؟ فهذه سورة الحج يجمع المفسرون على انّها من السور المدنية أو على اقل التقادير «مشتركة بين مكية ومدنية» والذي «يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية، وجو السور المكيّة، فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة واثبات البعث وانكار الشرك ومشاهد القيامة وآيات الله المبثوثه في صفحات الكون.. بارزةٌ في السورة والى جوارها الموضوعات المدنية من الاذن بالقتال، وحماية الشعائر، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي، وهو يرد العدوان، والامر بالجهاد في سبيل الله» وهكذا «تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة الى قوّة الأوامر والتكاليف، وتبرير الدفع بالقوة، وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين»[٣٦].

ان ابتداء سورة الحج بقوله تعالى ﴿يا ايها الناس اتقوا ربكم إنَّ زلزلةَ الساعة شيءٌ عظيم.يوم ترونها تذهل كُلُّ مرضعةٍ عمّا ارضعت وتضعُ كـلُّ ذاتِ حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾..

ان ذلك لا يعني بالضرورة ان تكون هذهِ الايات مكيّة.. لأنَّ ذكر هذا الموضوع الاساس في التصور والفكر الاسلامي لا يختص بمرحلة دون مرحلة، ولا بزمان دون زمان..

كما وان ذكر السورة لبعض القضايا الاقتصادية والاجتماعية لا يعني بالضرورة انْ تكون من السور المدنية..

وقد اختلفت الروايات في سورة المطففين. فبعضهم قال بمكيتها، والاخر بمدنيتها، ولكننا اذا نظرنا الى محتواها نجد انها تعالج قضيةً اقتصادية معاملاتية في تصديها لظاهرة التطفيف في الكيل والميزان.. فهل يحق لنا انْ نجزم بمدنيتها لأنها تصدت لذلك، أو لابُدَّ من عقد موازنةٍ دقيقةٍ بين الضوابط والموازين في التشخيص.؟

اننا نجد صاحب الظلال في سورة المطففين يلجأ الى تأويل المضمون المدني للسورة، لانّهُ ـ على ما يبدو ـ اعتمد على الروايات والشكل التعبيري، فقال بمكيتها، حيث يقول: «والتصدي لشأن المطففين بهذا الاسلوب في سورة مكيّة امرٌ ملفتٌ للنظر. فالسورة المكيّة عادةً توجه اهتمامها الى أُصول العقيدة الكليّة: كتقرير وحدانيه الله، وانطلاق مشيئته، وهيمنته على الكون والانسان.. وكحقيقة الوحي والنبوة.. وكحقيقة الاخرة والحساب والجزاء. مَعَ

العناية بتكوين الحاسة الاخلاقية في عمومها، وربطها بأصول العقيدة. أمّا التصدي لمسألة بذاتها من مسائل الاخلاق ـ كمسألة التطفيف في الكيل والميزان ـ والمعاملات بصفةٍ عامة، فأمرٌ جاءَ متأخراً في السورة المدنية عند التصدي لتنظيم حياة المجتمع في ظلِّ الدولة الاسلامية، وفق المنهج الاسلامي الشامل للحياة».

«ومن ثمَّ فانَّ التصدي لهذا الأمر بذاته في هذه السورة المكيّة أمرٌ يستحق الانتباه، وهو يشي بعّدة دلالات متنوعة، تكمن وراء هذه الايات القصار».

وراح سيد ببراعته الأدبية يعددُ الدلالات والايحاءات لهذه «اللفتة المبكرة» في البيئه المكيّة، ومن جملتها شموليه المنهج القرآني «للحياة الواقعية وشؤونها العمليّة؛ واقامتها على الاساس الاخلاقي العميق الاصيل في طبيعة هذا المنهج الألهي القويم. فقد كره هذه الحالة الصارخة من الظلم والانحراف الاخلاقي في التعامل. وهُوَ لم يتسلم بعد زمام الحياه الاجتماعية، لينظمها وفق شريعته بقوّة القانون وسلطان الدولة. وارسل هذهِ الصيحة المدوية بالحرب والويل على المطففين. وهم يومئذٍ سادة مكه، واصحاب السلطان المهيمن.. فكان الاسلام بهذه الصيحة المنبعثة من ذاته ومن منهجه السماوي مواقظاً للجماهير المستغلة ولم يكن قط محذراً لها حتى وهو محاصر في مكّة..»[٢٧].

اِذا كانَ الموضوع (المحتوي والمضمون) المدني للسورة لم يغيّر من قناعتنا في مكيتها وحاولنا انْ نجد لهُ الحكمة والدلالات والايحاءات، باعتباره يمثل «لفتة مبكرة»، فلماذا لا نقبل بـ«اللفتة المتكررة» التي تأتي للتأكيد على أُصول العقيدة التي لا تختص بزمانٍ دون زمان ومكانٍ دون مكان، بل لابُد وان يكون التذكير بها طوال مراحل المسيرة، سواء كانت في مرحلة الدعوة والثورة أو في مرحلة الحكم والدولة. وخصوصاً اذا كان المضمون يتضمن مواضيع مدنية في ظاهره لا يمكن التخلّص منها اِلاّ بتأويلات متكلّفة، متجاهلين وقائع تأريخيّة شهدت كتب السيرة على وقوعها، واستفاضت الروايات من الفريقين على نقلها، وألَفَّ الشعراء قصائدهم في احداثها.

ان الموازنة بينَ الضوابط الثلاثة في تمييز المكي والمدني يحتاج أولاً وقبل كُلِّ شيء الى الموضوعيّة في التشخيص والحكم، والابتعاد عن العصبيات والاهواء التي تجعل بعض المفسرين غافلاً عن أَوضح الدلالات وأَروع الظلال والاشارات،

في الوقت الذي تصبح فيه الأوهام حقائق موضوعية، والروايات الموضوعة دلائل واقعيّة!

ولهذا فاننا لا نستغرب اذا ما طالعنا ادّعاء عكرمة مثلاً بمدنيّة سورة الكوثر، وتصويب السيوطي بقوله: «الصواب انّها مدنية، ورجحّة النووي في شرح مسلم لما اخرجه مسلم عن انس، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بين اظهرنا، اذ اغفى اغفاءة فرفع رأسه مبتسماً، فقال: أُنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿انا اعطيناك الكوثر...﴾[٣٨].

ولا نستغرب كذلك من استثناء آيتين من سورة براءة المدنية (الآية ١١٣ ــ ١١٤) والادعاء بانهما نزلتا في مكّة في شأن ابي طالب عندما حضرته الوفاة، «وابى ان يقول: لا اِله اِلاّ الله». فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلّم عند ذلك: لاستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنك. فنزلت الاية ﴿ما كانَ للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى..﴾[٣٩].

نعم، لا نستغرب ولا نعجب من كُلّ تلك الادّعاءات والتخرصات التي تخالف المتواتر من الروايات، والحقائق الواضحات البينات، ذلك لانّهُ اذا عرفَ السبب بطل العجب!

الدروس والمعطيات:

انَّ لمعرفة وتشخيص المكي والمدني معطيات رائعة في حركة الاسلام الحاضرة، وفي اعطاء النظرة القرآنيّة الصائبة.. ويمكننا انْ نذكر اهم المعطيات والدروس:

اولاً: المسيرة الاسلاميّة: بين الدعوة والدولة:

انَّ التشخيص الدقيق للسور المكيّة والمدنية يرسمُ لنا وبوضوح حركة الدعوة الاسلامية في عصرها الاوّل بقيادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، وهي تمرُّ بمرحلتين مختلفتين: مرحلة ما قبل الدولة، ومرحلة ما بعد الدولة، اي (ق. د) (ب. د).. وبالتالي يوفر لنا الاطلاع على طبيعة المسيرة في كلٍّ من المرحلتين.. ذلك لانّه من الطبيعي ان تختلف طبيعه التحرك والبناء في كُلّ منهما.. فانّ لكلِّ مرحلةٍ ملامحها واهدافها وشعاراتها..

انَّ القرآن المكي يمثل حركة الدعوة وانطلاقتها ومعاناتها وعقباتها وشعاراتها وأهدافها.. وهي تشقُّ طريقها المليء بالعقبات والمعاناة متحديّة اساليب الاعداء في ساحه المواجهة والصراع.. فمن اسلوب الاستهزاء والسخريّة الى اسلوب المساومة والقبول بانصاف الحلول، الى اسلوب السجن والنفي والتصفية الجسدية: ﴿واِذ

يمكرُ بك الذينَ كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكرُ الله والله خير الماكرين﴾.

انّهامرحلة **﴿كفّوا أيديكم﴾**[٤٠] ومرحلة **﴿تخافون انْ يتخطفكم الناس﴾**[٤١]، فلابدَّ انْ تأتي الأوامر والتوجيهات القرآنية ملبيةً لاحتياجات المرحله، ومستجيبةً لتحدياتها، لترسم للمسلمين وهم **﴿قليل مستضعفون﴾**[٤٢] الاهداف والشعارات، وتعطي لهم طرق مواجهة الاحداث والتحديات.

اما القرآن المدني فانهُ يمثّل حركة الدولة وانطلاقتها ومعاناتها وعقباتها.. وهي تسعى في تأسيس دستورها، واقامة مؤسساتها، وتخطيط اقتصادها، وتكوين المجتمع الاسلامي، ومواجهة عوامل الهدم الداخليّة والخارجيّة.

ولهذا كانَ لكلٍّ من القرآن المكّي والمدني أهدافه واسلوبه وتوجيهاته في عمليّة البناء وقضيّة التغيير.. في الوقت الذي تشترك فيه المرحلتان في الكثير من العناصر الثابتة غير المتحركة والتي لا تقبل التغيير.. فقد تتغيَّر الاهداف المرحلية اِلاّ انَّ الهدف الاساس ثابتٌ لا يتغيّر، وقد تختلف الطرق والاساليب الا ان المضمون الكلي والتصورات الاساسيّة لا تقبل الاختلاف، وقد تتبدل قوى الصراع ونوعية الاعداء اِلاّ انَّ هوية الصراع وطبيعة المواجهة واحده.. ذلك لانّ المرحلتين وإن كانتا مختلفتين اِلاّ انهما تمثلان حركة الدعوة ومسيرتها التصاعديّة التكامليّة في تحقيق الأهداف الكبرى، واقامة حكم الله في الأرض:

﴿ذلك الدين القيّم ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾(الروم: ٣٠).

﴿ونريدُ ان نمنَّ على الذينَ استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾(القصص: ٥).

فاذا كان المسلمون في مرحلة الدعوة والثورة يعيشون الاستضعاف والقهر والمظلوميّة، فانهم في مرحلة الدولة يعيشون القوّة والتمكين والغلبة.. ولا يمكن للاسلام انْ يحقق اهدافه في الحياة من دونِ دولةٍ وحاكميّة وسلطان.

إن «الدولة والثورة هما حركة الدعوة في مسألة التطبيق، كما ان الدعوة هي النظرية في خط الثورة والدولة في حركة الانسان في الواقع، ويبقى الفرق بين الدولة والثورة، انَّ الثورة تعني التحرّك نحو تحقيق الشروط الموضوعيّة لتحضير الارض وتنقيتها من كُلّ العوامل المضادة للتغيير، وتهيئة الأوضاع الملائمة في الجوانب السلبيّة والايجابية لحركة الدولة.. ولذلك

فـانَّ الثورة لا تعبّـر في طبيعتها عـن منطق مخالف لمنطق الدولة، لانهما يمثلان المنطق التكـاملي فـي تحـويل الـدعـوة في خطهـا النظري الى حركةٍ حيّة في الواقع التطبيقي، فيما هي المقدمـات والنتائج، مما يجعل من الدولة قمّة الثورة»[٤٣].

ان دراسـة واعية للمنهج القـرآني بكلتا مـرحلتيه: المكيـة والمدنيّـة يجعلنـا نعيش البصيرة في حـركه الدعوة في بنـاء القاعدة الرساليّة التي تعيش العقيدةَ حركةً في القلب والـروح والعقل والضميـر قبل ان تعيشهـا حـركةً فـي السياسـة والـدولة والاقتصـاد والمجتمع.. كما ويجعلنا نعيش البصيرة في حـركه الثـورة لتنطلق بخطىً صحيحـة في اقـامة الـدولة علـى أُسس سليمـة وقواعـد رصينة..

ولهذا كـانت الـدولة «وسيلـة لتحقيق الاهداف الساميّة»[٤٤] على حد تعبيـر الامام الخميني، و«تصعيداً للعمل النبوي»[٤٥] على حـد تعبيـر المرجـع الشهيـد محمد بـاقـر الصدر، و«قمّـة الثورة»[٤٦] على حـدّ تعبيـر العلامة فضل الله.

لقـد «ظلَّ الانبيـاء يـواصلـونَ بشكلٍ وآخـر دورهـم العظيـم فـي بنـاء الـدولـة الصـالحـة، وقـد تـولى عـددٌ كبيـر منهـم الاشـراف المبـاشـر على الـدولـة كـداوود وسليمان وغيـرهما، وقضى بعـض الانبياء كل حياتـه وهو يسعى في هـذا السبيل كما في حالة موسى عليه السّلام، واستطاع خاتم الانبياء صلى الله عليه وآلـه وسلّم أنْ يتوجّ جهود سلفه الطاهر باقـامة انظف واطهر دولة في التـاريخ شكّلـت بحق منعطفـاً عظيمـاً فـي تأريـخ الانسان وجّسـدت مبـادىء الدولـة الصـالحة تجسيداً كاملاً ورائعاً»[٤٧].

ولقد استوعبَ الامـام الخميني مسيره المعانـاة والتمكين في القرآن الكـريم، نكان يقـول لانصاره وهُـوَ يعيش في منفـاه قبل انتصار الثـورة الاسلاميّـة باكثر مـن عشر سنين: «كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلّم اذ صَدَع بالرسالـة لا يملك من اسباب القوّة الاّ صبياً لم يتجاوز العاشرة هو علي بن ابي طالب عليه السّلام، وامرأة متقـدمة فـي العمر هي زوجـه خديجـة، فقد آمنـا به ونصـراه وأعاناه على امره، وكانَ سائر الناس يؤذونه ويعاندونه ويكذبونه، ولكنَّ اليأس لم يكن لهُ الى النبـي صلى الله عليـه وآلـه وسلّـم وناصريه سبيل، فقـد ثبتوا بعـزمٍ وصبر وحـزم حتى ظهـر امـرُ الله، وخسـر هنـالك المبطلـون. وضـرب الاسلام اوتـاده في شـرق الارض وغربها»[٤٨].

ثانياً: وضوح المنطقات والأهداف

إنَّ عيش اجواء نزول السـورة القرآنية

ولـو بصورة اجمـالية، يـرسمُ لنـا المنطلق الصحيح في فهم آياتهـا واهدافها والدروس التي تريد اعطاءها.

ولا يخفى ان معـرفة سـورةٍ ما بـأنّها مكيّـة مثـلاً يجعلنا نعيـش اجواء المعـانـاة والآلام والاستضعـاف والضغوطـات الكبيره التي كان يعيشها المؤمنون الرساليون.

فعندما نعرف ان سـورة يوسـف مثلاً، نزلت فـي تلك الاجواء العصيبة، نـدركُ جيداً اهداف تلك القصّـة، واسـرار مجيئها في ذلك الظرف الـرهيب.. في السنوات الأخيـرة من حياة الدعوة في مكة قبيل الهجرة..

اِنّها تـريـد ان تصّـور للمـؤمنيـن المحاصرين هناك، مسيرة المعاناة والعقبات التـي مـرَّ بهـا ذلـك الـرسـالـي الصـابـر المحتسب.. وهو ينتقلُ من محنةٍ الى محنة، ومن معانـاةٍ الى معاناة.. فما تـزيدُه المكائد اِلاّ سؤدداً، والمكر اِلاّ علواً.. تـرعاهُ يد الغيب المقتدرة لتجعلـه متمكناً في الأرض ﴿**يتبوّءُ منها حيثُ يشاءُ**﴾ بعد ان كان يعيش ضيق الجبِّ وضنكه، ومهـانة الرق وذلتـه، وظلمة السجن وحلكته.

وكأنَّ قصّـة يوسـف عليه السّلام تريدُ اَنْ ترسم للمؤمنين المحاصرين في مكّة مسيرة المعاناة والصبـر والتمكين.. لتعطيهم درساً بليغاً من دروس التـاريخ ملخصه: ﴿**اِنّهُ من يتـق ويصبـر فـانَّ اللهَ لا يُضيـع أجـر المحسنين**﴾ (يوسف: ٩٠)، وان الاعداء مهمـا اجمعوا في القضاء على المـؤمنين، فان ذلك لا يـزيدهم اِلاّ اقتـرابـاً من النصر والغلبـة والظفر: ﴿**واللهُ غالبٌ على امره ولكنَّ اكثر الناس لا يعلمون**﴾(يوسف: ٢١)،وان المعاناة اذا ما وصلت الى قمتها انفرجت: ﴿**حتى اذا استيئس الـرسل وظنّـوا اَنّهم قـد كُذبـوا جاءهـم نصرنـا فنجّي من نشـاء ولا يُرَدُّ بأسُنا عن القوم المجرمين**﴾(يوسف: ١١٠).

وعنـدمـا نـريـد اَنْ نـدرس سـورة العنكبوت، ومـا تُريد اَنْ تعطيـه من دروس، لابُدَّ وان نضع في الحسبان اَنّهـا نزلت قبل الهجـرة.. حيـث اَجـواء المعـانـاة والاستضعـاف.. فها هم المـؤمنون يـرونَ الكفـر حصيناً منيعـاً يعيش القوّة والكثـرة والكبريـاء.. في الوقـت الذي يعيشـون فيه التشـرّد والخـوف والفتنـة.. واذا بسـورة العنكبوت تنزلُ على قلب الرسول القائد صلى الله عليـه وآلـه وسلّـم، لتـرسـم للمـؤمنيـن المستضعفين المعـذّبين حقيقة القـوى في سـاحـه الصراع، وتبصّـرهـم بـالمستقبل القريب الذي ينتظرهم.. ولتقول لهم انَّ قوى الكفر التي ترونها امامكم، بخيلها وخيلائها، انّما هـي قوى عنكبوتيـة، لا تملك مقـومات القـوة والبقـاء، ولا تملك عنـاصـر النصـر

والغلبة: ﴿مثل الذينَ اتخذوا من دون الله اولياء كمثلِ العنكبوت اتخذت بيتا وإنَّ اَوهنَّ البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾(العنكبوت: ٤١) وهكذا تبدأ لتقصَّ للمؤمنينَ نهاية اعداء الرسالات السماوّية، وكيف كانَ مصيرهم الزوال والانتهاء، فهؤلاء قوم نوح اخذهم «الطوفان وهم ظالمون»، وهؤلاء قوم لوط قد أَنزل الله عليهم «الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين»، وهؤلاء الطواغيت قوم عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان استكبرا وبغوا ﴿فكلًا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من اخذته الصيحةُ ومنهم من خسفْنا به الارضَ ومنهم من أغرقنا وما كانَ الله ليظلمَهم ولكن كانوا أنفُسهم يظلمون﴾(العنكبوت: ٤٠).

وتنتهي سورة العنكبوت بعد انْ بصّرت المؤمنين بحقيقة القوى وعواقب الصراع، بقوله تعالى: ﴿والذينَ جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبُلنا وانْ اللهَ لمع المحسنين﴾(العنكبوت: ٦٩).

وعندما نعيش أجواء الاستضعاف في مكّة ونحنُ نقرأُ سورة القصص.. نجدها ترسمُ للمؤمنين المستضعفين صورة العجز التام الذي عليه اعداؤهم، رغم ما يملكون من حول وقوّة وطول..

كما وترسمُ صورة الغفلة رغم ما هم عليه من حذرٍ ويقظة!!.. فهذا موسى طفلٌ صغير رغم كُلِّ القرارات الجائرة بالقضاء عليه، ورغم كل العيون المبثوثة في الشوارع والازقة والبيوت بحثاً عنه.. يعيشُ في قصر فرعون، وينمو ويترعرع على يديه، ويكبرُ في احضانه.. ليقضي بعد ذلك عليه وعلى جنوده واعوانه!

لقد ركزت السورة على طفولة موسى.. وكيفَ تتقاذفه أمواج البحر المتلاطمة.. لتأتي به الى قصر فرعون!.. كل ذلك من اجل ان يدركَ المؤمنون عجز القوى الطاغية، وغفلتها ووهن كيدها وخيبة مكرها.

وهكذا نرى السور المكيّة في عرضها لقصّة موسى عليه السّلام تختلف عن السور المدنيّة.. فبينما تركز الاولى على قصة صراعه مَعَ فرعون، تركز الثانيةُ على قصّةِ صراعه معَ قومه بني اسرائيل أنفسهم!.. وبذلك تختلف المشاهد والمواقف التي تعرضها السورة المكية عن المشاهد والمواقف التي تعرضها السورة المدنيّة.

فقد احتلت قصّة موسى عليه السّلام مَعَ قومه بني اسرائيل في سورة البقرة المدنيّة، مساحة واسعة من الآيات المباركة، تتحدث عن معاناةِ موسى عليه السّلام من قومه، تمردهم، عصيانهم، مؤامراتهم، هروبهم من

القرارات، نقضهم للعهود والمواثيق: ﴿وإذ واعدنا موسى اربعين ليلةً ثمَّ اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون..﴾ (البقرة: ٥١ ـ ٦٠)، ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد..﴾ (البقرة: ٦٠)، ﴿وإذ قال موسى لقومه انَّ الله يامركم ان تذبحوا بقرة..﴾ (البقرة: ٦٧ ــ ٧٣)، ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثمَّ اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون﴾ (البقرة: ٩٢).

وتحدثت سورة النساء المدنيّة عن مشاهد التمرد والعصيان والاعتداء على الأنبياء ومعاناة موسى عليه السّلام معهم: ﴿يسئلكَ اَهل الكتاب ان تُنزّل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة..﴾ (النساء: ١٥٣ ـ ١٦١).

وفي سورة المائدة المدنية نجد قصّة موسى ومعاناته مَعَ قومه: ﴿يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتبَ الله لكم ولا ترتدّوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين..﴾ (المائدة: ٢١ ـ ٢٦).

وفي سورة الصف المدنية عرضٌ لمعاناة موسى وعيسى عليهما السلام مَعَ بني اسرائيل ﴿واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمونَ أنّي رسولُ اللهِ اليكم..﴾ (الصف: ٥ ـ ٦).

بينما نجد في سورة هود المكيّة عرضاً لصراع موسى عليه السّلام مَعَ فرعون وليس مَعَ قومه: ﴿ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين الى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمرُ فرعونَ برشيد..﴾ (هود: ٩٦ ـ ٩٩).

وفي سورة الاسراء المكيّة: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آياتٍ بيّنات فاسال بني اسرائيل اذ جاءهم فقال لهُ فرعون اني لأ ظُنُّكَ يا موسى مسحورا..﴾ (الاسراء: ١٠١ ـ ١٠٤).

إنّ من اسرار هذهِ الظاهرة في قصّة موسى واختلاف المشاهد المعروضة في القرآن المكي والمدني.. هُوَ طبيعة الصراع في كل من المرحلتين.. فانّ السور المكيّة تريد أن تعطي للمؤمنين المستضعفين في مكّة، الأمل الكبير في ترقب النصر، وعدم اليأس من روح الله، وترسم لهم موازين القوى وحقيقتها في ساحه الصراع والمواجهة.. حيث تبدو قوى الكفر رغم ما تملك من عدد وعدّة، قوى عنكبوتيه عاجزة غافله.. لا تملك عناصر البقاء والدوام.. فيما تحتضنُ اليد الالهية القوّة الايمانيه وترعاها من كيد اعدائها.

اما السور المدنّية فانها تريد أَنْ تسلّط الاضواء على اليهود باعتبارهم العدو الاول للدولة الاسلاميّة، لتكشفَ عن مكرهم

وكيدهم ونقضهم للعهود والمواثيق، كما تكشفَ عن دورهم الخطير في تاليب الاعداء على الاسلام وقيادته ودولته.. وهي في نفس الوقت تحذّر المؤمنين من انْ يكونوا كبني اسرائيل في تعاملهم مَعَ قيادتهم الشرعيّة، حتى لا يعيشوا التمرد على قراراتها كما عاشهُ اليهود، ولا العصيان لمخططاتها والهروب من تنفيذ أوامرها وتوجيهاتها. إلّا أنَّ هذا لايعني أنَّ لاتتحدث بعض السور المكّية عن صراع موسى (ع) مع قومه كما في سورة طه وغيرها.

وهكذا نرى مدى الفائده الكبيرة في عيش اجواء النزول، وطبيعة الظروف التي اكتنفت نزول السور القرآنية، في استجلاء المنطلقات، واستيعاب الأهداف، وفهم أُسلوب القرآن في مواكبة الأمّة وتطويرها.

ثالثاً: وضوح المعاني والدلالات

إنَّ لمعرفة مكية السورة من مدنيتها لهُ قيمة في عالم التفسير وتعيين الدلالات والايحاءات التي تدلُّ عليها الكلمات والمفردات في الايات المباركة.

ولهذا فاننا نجد في بعض السور الاتجاهات المختلفة في تفسير مفرداتها وسياقها بحسب اختلاف التشخيص ونتائج الموازنة بين الضوابط المستعملة في تقسيم المكي والمدني.

ولنأخذ مثلاً على ذلك كنموذجٍ تطبيقي من أَجل ان تتضح الفكرة بصورة اكبر.

ففي سورة العاديات اختلف المفسرون بمدنيتها أو مكيتها وبالتالي اختلف تفسيرهم للمقصود من المقسم به في السورة.

فقد اختلفت روايات المكي والمدني في سورة العاديات، حيث انَّ بعضها عدتها في آخر السور المدنية، بينما عدّتها روايات اخرى ضمن السور المكيّة.

اما روايات اسباب النزول فتؤكد على مدنيتها رغم اختلافها في التفاصيل.. فقد روي عن مقاتل انَّ الغزوة كانت «سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى حيّ من كنانه بقيادة المنذر بن عمرو الانصاري»[٤٩]، وابهمت الرواية المنقولة عن ابن عباس الغزوة فلم تذكر قائدها ولا الجهة التي قصدتها، حيث ذكر هكذا: «بعثَ رسولُ الله خيلاً، فلبثت شهراً»[٥٠].

بينما ذكرت الرواية الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام الغزوة بصورة تفصيليّة، كما روى القمّي في تفسيره[٥١]. وقد لخصَّ صاحب مجمع البيان سبب النزول بقوله «لما بعث النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّاً الى ذات السلاسل فأوقع بهم، وذلك بعد ان

بعثَ عليهم مرارا غيره من الصحابة، فرجع كُلٌ منهم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو المروي عن ابي عبد الله عليه السّلام في حديث طويل...»[٥٢].

وقد رجّح صاحب الاتقان مدنية السورة بقوله «ويستدل لكونها مدنية بما اخرجه الحاكم وغيره عن ابن عباس: (بعثَ رسولُ الله خيلاً، فلبث شهراً لا يأتيه منها خبر. فنزلت «والعاديات»)[٥٣].

اما فيما يخص الضوابط الأخرى فإنَّ الشكل يظهر منهُ طابع السور المكيّة حيث قصر الايات وحدّةُ الكلمات، وعنف الوقع.

اما موضوع السورة، فانَّ نصفها الأول (المقسم به) موضوعه مدني، في حين انَّ النصف الثاني طابعه مكيٌّ.

وباختلاف القول في مكيتها ومدنيتها اختلفَ لذلك تفسير المقسم بهِ ودلالاته وايحاءاته.

فالقائلون بمكيّه السورة فسّروا «العاديات» بعُدة اتجاهات:

الاتجاه الاوّل: العاديات هي ابل الحاج!

ونقلوا رواية عن ابن عباس يقول فيها: «كُنتُ جالساً في الحجر، فجاء رجلٌ فسألني عن العاديات ضبحا، ففسرتها بالخيل.. فذهبَ الى علي عليه السّلام فسأله وذكر لهُ ما قلت، فقال: ادعُهُ لي.

فلما وقفتُ على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله إنْ كانت لاوَّل غزوه في الاسلام بدراً، وما كانَ معنا إلاّ فرسان.. العاديات ضبحا، الابلُ من عرفة»[٥٤]!!

ولذلك فإنَّ اصحاب هذا التفسير وجدوا انفسهم مضطرين الى فصل العاديات عن الموريات.. فقالوا بانَّ معنى الموريات «هم الحاج اوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة» وقالوا بانَ المراد بالمغيرات «الابال ترتفع بركابها يوم النحر ما جمع الى منى» امّا ﴿فوسطنَ بهِ جمعا﴾ معناه توسط الآبال جمع منى!!

انَّ تفسير العاديات بإبل الحاج فيه من الضعف ما فيه.. فلا يساعد عليه لا اللغة ولا السياق.. اما ما نقل عن توبيخ علي عليه السّلام لابن عباس فبعيدٌ عن الصحة لضعف الرواية ووهنها اولاً، وللروايات المنقولة عن ابن عباس نفسه في تفسير العاديات والموريات بخيل المجاهدين، وللروايات المروية عن أهل البيت عليهم السّلام في أنها خيل الجهاد ثالثاً.

الاتجاه الثاني: العاديات هي الخيل مطلقاً[٥٥]، وليست خيل المجاهدين خاصة. ولهذا فانّ السورة تقسم بالخيل وتصوّر معركةً حربية، وهذا المشهد مألوفٌ في الأجواء المكيّة، وما اكثر الغزوات والحروب والغارات في مكّة آنذاك.

ولهذا رفض أصحاب هذا الاتجاه أنْ يكون القسم من أجل الالفات الى قيمة خيل المجاهدين، وقيمة الغزو في سبيل الله، وقيمة المجاهدين المضحين..

الاتجاه الثالث: العاديات هي خيل المجاهدين.. ولكنَّ اصحاب هذا الاتجاه وجدوا انفسهم بعيدين في تفسيرهم عن الاجواء المكيّة التي كانَ يعيشها المؤمنون في مكّة، قبل الهجرة، حيث لا خيل ولا معارك حربية، ولا غارات.. ولهذا ذهبوا الى تأويل ذلك بالاشارة الى المستقبل.. الذي يحملُ في ثناياه بشائر الأمل الكبير والنصر الاتي.

يقول أحد المفسرين المعاصرين[٥٦]:

«تُرى اذا كانت هذهِ السورة مكيّة كما نفهم، والله تعالى اعلم، وكانَ المسلمون في مكّة في ذلك الحين قوماً مستضعفين مطاردين، فما هُو وجهُ القسم؟ ما هي الصلة بينَ هذا القسمْ وبينَ الحياة الواقعيّة التي يعيشها هؤلاء المسلمون المستضعفون، هم مطاردون، حذرون، لا يفكرون بغارة، ولا بخيل، فما هي العلاقة بينَ هذا القسم وبينَ الحياة الواقعيّه للمسلمين في ذلك الحين؟».

فيجيب العلامة شمس الدين بقوله «نقول ـ والله سبحانه وتعالى أعلم ـ انَّ هذا القسم يحمل في طياته بشائر، ويحمل في ثناياه علامات النصر الاتي. حيث يبيِّنُ الله سبحانه للمسلمين وللمشركين في ذلك الحين انَّ هذهِ الدعوة، وإنَّ هذه الرسالة سيكون من شأنها ان يكون الوضع هكذا. ان تتعاطى مَعَ الخيل الضابحة، القادحة، المغيرة المنتصره» ولهذا فإنَّ «هذا القسم فيما نرى ــ والله أعلم ــ يتضمن معنى الاشارة».

وهذا يشبه الأمل الذي يعطيه الطبيب للمريض المشكك بسلامته بالحديث مَعَهُ: «نحنُ بعد شهرين أو في الربيع.. سنذهب الى الريف أو الى الخارج ونسبح في البحر ونتسابق على الخيل.. ويحدثهُ عن نشاطات تحتاج كلّها الى القوّة، والحيوية والنشاط والصحّة. فهذا الحديث من الطبيب لهذا المريض يتضمن بشارة بأنَّ مرضه سيزول، وضعفه سينتهي، وصحته ستعود، وان جسمه سيكونُ قادراً على القيام باشدِّ الأعمال حيث الطبيب دون أنْ يدخل في معنى الشفاء والمعافاة، يحدثُهُ عن مشاريع المستقبل، فكأنَّهُ يحملُ اِليه بشارة الشفاء، وبشارة العافية» وهكذا فإنَّ «الله سبحانه بهذا القسم يضمِّن البشرى لهؤلاء المسلمين والمستضعفين والمطاردين في مكة، وهم بشر كسائر البشر يتألمون وييأسون وتثور في قلوبهم هواجس، يبشرهم الله

سبحانه بانهم سيكونونَ اصحاب الخيل الضابحة المغيرة المنتصرة»!

والذي دعا أَصحاب هذا الاتجاه الى هذا التأويل، هو ترجيحهم لمكيّة السورة النابع من اعتمادهم الكبير على رواية ابن عباس(رض) في ترتيب السور «رواية المكي والمدني»، وعلى موضوع القسم الثاني من السورة، حيث يركز «على عقيدة اليوم الآخر وعلى المسؤولية الجزائية للبشر» لتكوين «الحالة الايمانيه العامة في النفوس»، وعلى شكل السورة من حيث «طول الايات وقصرها، وأنواع الكلمات وحّدتها»[٥٧].

هذهِ هي أهم الاتجاهات في التفسير للمفسرين الذين ذهبوا الى القول بمكيّه سورة العاديات.

ولا يخفى انَّ المفسرين القائلين بمدنيّة السورة يلتقون مَعَ الاتجاه الثالث في التفسير، حيث اجمعوا على انَّ المقصود بالعاديات هي خيل المجاهدين، ولكنهم لم يحتاجوا الى «التأويل» الذي ذهبَ اليه اصحاب الاتجاه الثالث. كما هو واضح. كما انهم يرفضون الاتجاه الثاني القائل بمطلق الخيل، لانَّ القسم يصرف المقسم به الى اشرف مصاديقه وهي خيل المجاهدين.. فالسورة تقسم بخيل الجهاد الاسلامي. وتصّور غزوة اسلامّية.. والاّ ما قيمة الغزوات والغارات التي كانت في الجاهليّة والتي غالباً ما تشن ظلماً وعدواناً..

ومن الواضح انهم يرفضونَ أيضاً الاتجاه الأوّل الذي يفسِّر العاديات بابل الحاج.. لانّهُ تفسير بعيدٌ عن ظاهر اللفظ ذلك لان «العاديات من العدو وهو الجري بسرعة والضبح صوت أُنفاس الخيل عند عدوها، وهو المعهود من الخيل، وإن ادّعي انهُ يعرض لكثير من الحيوان غيرها» وانَّ «ما في الآيات التالية من الصفات لا يُلائم كون الابل هو المراد بالعاديات» وانَّ «المتعين حملها على خيل الغزاة وسياق الآيات وخاصة قوله: **﴿فالمغيرات صبحا﴾ ﴿فوسطنَ بهِ جمعا﴾** يعطي انّها غزاة بعينها اَقسم الله فيها بخيل المجاهدين العاديات، والفاء في الايات الأربع تدل على ترتب كل منها على ما قبلها»[٥٨].

وهكذا نرى الخطأ الذي يقع فيه بعض المفسرين في نظرتهم الى القرآن المكي والمدني، التي تجعل طابعهما مختلفاً في أمور لا تتعدى دائرة الشكل والأسلوب البياني أو بعض مفردات المضمون امثال **﴿يا أيّها الناس﴾** أو **﴿يا ايها الذينَ آمنوا﴾**.. وبالتالي لم يستفيدوا في نظرتهم الى المنهج القرآني القيّم الذي انشأ الثورة الفكريّة والاجتماعيّة في مكة خلال ثلاثة

عشر عاماً.. وواكب الأمّة في مسيرتها بعد الهجرة في بناء دولتها الاسلاميّة المباركة التي استطاعت انْ تمدَّ سلطانها على الجزيرة العربيّة خلال سنوات معدودة، بل انطلقت رسل مؤسسها الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلّم الى رؤساء الدولتين العظميين ـ آنذاك ـ الروميّة والفارسيّة، يدعوهم الى الاسلام «اسلم تسلم يؤتِك الله اجرك مرّتين».. حتى ان كسرى لم يتحمل ذلك الخطاب السياسي القوي من رجلٍ يعتبر بنظره من «حفاة الصحراء»، مما دعاه الى تمزيق الرسالة بغضبٍ وكبرياء. ولمّا أُخبر الرسولُ القائد صلى الله عليه وآله وسلّم بما فعل كسرى برسالته، قال قولته الواثقة: «مزّقَ كسرى ملكه»!

الهوامش

* محمد عزّه دروزه: التفسير الحديث ١: ١٢٨.

(١) محمد هادي معرفة: التمهيد في علوم القرآن ١: ٢٨١

نقلاً عن المصاحف للسجستاني: ١٥. وفتح الباري لابن حجر ٩: ١٧.

(٢) السيوطي: الاتقان ١: ٢٠٢. وانظر صحيح البخاري ٦: ٢٢٥.

(٣) التمهيد ١: ٢٢٦ـ ٢٢٧. مصدر سابق. نقلاً عن ابن كثير ٣: ٢٦١، والبرهان للزركشي ٢: ٣٥.

(٤) التمهيد ١: ٢٢٨. نقلاً عن القسطلاني: شرح البخاري ٧: ٤٤٩.

(٥) البخاري ٦: ٢٢٥. وانظر الاتقان ١: ٢٠٢.

(٦) محمد باقر الحكيم: علوم القرآن: ٨٩ نقلاً عن البخاري، فتح الباري ١: ٤٢٣ ط ١٣٧٨.

(٧) الخوئي ـ البيان: ٢٥٧.

(٨) البلاغي: آلاء الرحمن ١: ١٨ بالهامش.

(٩) المجلسي: بحار الانوار ٩٢: ٨٨.

(١٠) الطباطبائي ـ القرآن في الاسلام: ١٧٢ـ١٧٤.

(١١) المجلسي: البحار ٩٢: ٤٢.

(١٢) معرفة: التمهيد ١: ٣٠١.

(١٣) الزركشي: البرهان ١: ١٩٣.

(١٤) الطباطبائي: القرآن في الاسلام: ١٦٧.

(١٥) و(١٦) و(١٧) ن. م.

(١٨) و(١٩) الطباطبائي: الميزان ١٣: ٢٣٥.

(٢٠) ن.م.

(٢١) الطباطبائي: الميزان ١٦: ١٠٧.

(٢٢) الطباطبائي: الميزان ١٩: ٢٨٩.

(٢٣) السيوطي: الاتقان ١: ٤٠ـ ٤١.

(٢٤) السيوطي: الاتقان ١: ٤٢ـ ٤٣.

(٢٥) ن. م.

(٢٦) الطباطبائي: الميزان ٢٠: ١٣٢.

(٢٧) الطباطبائي: الميزان ٢٠: ١٣٣.

(٢٨) ن.م.

(٢٩) ن. م ١٣٢.

(٢٨) ن. م: ١٣٢.

(٢٩) الجويباري؛ البصائر ٥١: ٩ـ ١٠.

(٣٠) الواحدي؛ أسباب النزول.

(٣١) الطباطبائي؛ الميزان ٢٠: ١٢٣.

(٣٢) ن.م: ١٢٤.

(٣٣) سيد قطب؛ في ظلال القرآن ٦: ٣٧٧٧.

(٣٤) الطباطبائي؛ الميزان ٢٠: ١٢٧.

(٣٥) سيد قطب؛ في ظلال القرآن ٦: ٣٧٨١.

* محمد عزة دروزه؛ التفسير الحديث.

(٣٦) ن.م ٤: ٣٤٠٦.

(٣٧) ن.م ٦: ٣٨٥٥.

(٣٨) السيوطي؛ الاتقان ١: ٥٥.

(٣٩) السيوطي؛ الدر المنثور ٣: ٢٨٢.

(٤٠) سورة النساء: ٧٧.

(٤١) سورة الانفال: ٢٦.

(٤٢) ن.م.

(٤٣) فضل الله؛ الحركة الاسلاميّة هموم وقضايا: ٢٢١.

(٤٤) الامام الخميني؛ الحكومة الاسلاميّة: ٥٣.

(٤٥) محمد باقر الصدر؛ الاسلام يقود الحياة: ١٧.

(٤٦) الهامش ٤٣.

(٤٧) محمد باقر الصدر؛ الاسلام يقود الحياة: ٥.

(٤٨) الامام الخميني؛ الحكومه الاسلاميّه: ١٣١.

(٤٩) الطباطبائي؛ الميزان ٢٠: ٣٤٧، نقلاً عن مجمع البيان للطبرسي.

(٥٠) السيوطي؛ الاتقان ١: ٥٤.

(٥١) راجع تفسير القمي ٢: ٤٣٤ـ ٤٣٨.

(٥٢) راجع تفسير مجمع البيان للطبرسي في تفسير السورة.

(٥٣) السيوطي؛ الاتقان ١: ٥٤.

(٥٤) بنت الشاطيء؛ التفسير البياني ١: ١٥١ـ ١٥٢.

(٥٥) انظر المصدر السابق.

(٥٦) هو العلامة محمد مهدي شمس الدين. وقد بدأ في تفسير القرآن وفق منهج خاص وبحسب ترتيب النزول، على شكل محاضرات. وقد توقفت الان. أنهى معظم الجزء الثلاثين. وفي النيّة ان تطبع كتاباً.

(٥٧) شمس الدين؛ صحيفة القرار البيروتية: ٩ ذي العقدة عام ١٤٠٥هـ.

(٥٨) الطباطبائي؛ الميزان ٢٠: ٣٤٦.

قصة آية
المخلّفون والعزلة الخانقة..

السيّد مالك الموسوي

﴿وعلى الثلاثة الذينَ خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارضُ بما رحُبت وضاقت عليهم أنفسُهُم وظنّوا أنْ لا ملجأ من الله إلاّ إليه ثُمَّ تابَ عليهم ليتوبوا إنَّ الله هو التّواب الرحيم﴾ (التوبه: ١١٨)

«ما يقعدنا بالمدينة ولا يكلّمنا رسولُ الله ولا اخواننا ولا أهلونا، فهلمّوا نخرج الى هذا الجبل.. فلا نزال فيه حتى يتوبَ اللهُ علينا أو نموت».

هكذا قررَ الثلاثة الذينَ خُلِّفوا عن ركب المجاهدين في غزوة تبوك.. في ساعة العسرة.. لانّهم آثروا المكوث عند اهليهم على الخروج مَعَ الجيش الاسلامي الزاحف لمحاربة الروم، القوة العظمى آنذاك، والتي استطاعت انْ تنتصر على الامبراطوريّة الفارسيَة، القوّة العظمى الأُخرى المنافسة في العالم.

لقد اتخذوا قرارهم في الذهاب الى رؤوس الجبال خارج المدينة، بعد أنْ قررَ الناسُ جميعاً.. نساءً ورجالاً، صغاراً وكباراً.. مقاطعتهم.. وحتى عدم ردّ السلام عليهم!.. حتى انَّ نساءهم جئنَ الى الرسول القائد صلّى الله عليه وآله وسلّمفقلنَ له: يا رسولَ قد بلغنا سخطُكَ على ازواجنا أفنعتزلهم.؟

فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: لا.. ولكن لا يقربوكن.

ولنستمع الى قصتهم على لسانِ احدهم «كعب بن مالك» وهو يحدّثنا بلوعة ومرارة وحزن[1]:

كانَ من خبري حينما تخلّفتُ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّمفي غزوةِ تبوك.. أني لم اكن قط اقوى ولا أيسر منّي.. واللهُ ما جمعتُ قبلها راحلتين قط.. وكانَ

رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّمقلّما يُريد غزوة الاّ ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، وعدواً كثيراً.. فجلّى للمسلمين امرهم ليتاهبوا اهبةَ عدوّهم، فأخبرهم بوجهتهم التي يُريد.

وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال.. وانا اليها أصغو، وطفقت اغدو لكي أتجهّزَ معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً، فأقولُ لنفسي: أنا قادرٌ على ذلك ان اردت. فلم يزل ذلك يتهادى[٢] بي حتىّ استمرَّ بالناس الجد، فاصبح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّمغادياً والمسلمون مَعَه ولم اقض في جهازي شيئاً، فلم يزل يتهادى بي حتى اسرعوا وتفارط الغزو، فهممتُ ان أرتحل فأدركهم ، وليتَ اني فعلت، ثُمَّ لم يقدر لي ذلك، فطفقتُ اذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّميحزنني اني لا أرى لي أُسوة الاّ رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله.

ولم يذكرني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّمحتى بلغَ تبوك، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك»؟ فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسولَ الله حبسه برداه والنظر في عطفيه. فقال لهُ معاذ بن جبل: بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عنهُ اِلاّ خيرا. فسكتَ رسول الله.

قال كعب: لقد توانيت وثقلت بعد خروج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّمأياماً.. ادخلُ السوق ولا أقضي حاجة. فلقيتُ هلال بن أُمية، ومرارة بن الربيع.. وقد كانا تخلفا أيضاً.. فتوافقنا ان نبكّر الى السوق فلم نقضِ حاجة.. فلا زلنا نقول نخرج غداً أو بعد غد حتى بلغنا اقبال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّمفندمنا..

فلما وافى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّماستقبلناه نهنئهُ بالسلامة، فسلمنا عليه.. فلم يردّ علينا السلام واعرضَ عنّا، وسلمنا على اخواننا فلم يردّوا علينا السلام فبلغ ذلك أهلينا فقطعوا كلامنا.. وكنا نحضر المسجد فلا يُسلِّم علينا احد ولا يكلِّمنا.. فجاءت نساؤنا الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّمفقلن: قد بلغنا سخطكَ على ازواجنا. افنعتزلهم؟ فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: لا تعتزلنهم ولكن لا يقربوكن[٣].

اضاف كعب:

ونهى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّمعن كلامنا نحنُ الثلاثة من بين من تخلّفَ عنه.

فاجتنبنا الناس.. حتى تنكرت لي في نفسي الارض.. فما هي بالارض التي كنتُ اعرف.. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة!!

فأمـا صـاحباي فـاستكانا وقعـدا في بيوتهما، امّا انا فكنـتُ اشدّ القوم واجلدهم، اخرجُ فاشـهد الصلاة مَعَ المسلمين واطوفُ في الأسواق فلا يكلّمنـي احد.. وآتي رسول الله فاسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاه واقـولُ في نفسـي: هل حـرّكَ شفتيـه بـرد السلام أم لا؟ ثمَّ أُصلي قريبـاً منه وأُسارقه النظر، فاذا اقبلت على صلاتي نظر اِليّ، فاذا التفتُ نحوه أعرض عنـي، حتى اِذا طال ذلك من هجـر المسلمين مشيـتُ حتى تسـورتُ حـائط ابي قتـادة ـ وهـو ابن عمـي واحبُّ الناس اِليَّ ـ فسلمتُ عليـه. فوالله ما رد عليَّ السلام. فقلت له: يا أبا قتادة انشدُكَ الله. هل تعلم أني أحـبّ الله ورسوله؟ فسكـت فعدتُ فنشدته فسكت، فعدتُ ثـالثه فنشدته. قال: الله ورسولـه اعلم. ففاضت عينـاي وتوليت حتى تسوّرتُ الجدار.

ويستمر كعب في حديثه فيقول:

وبينما انـا امشي بسوق المـدينة.. اذا نبطيٌ مـن انبـاط الشـام ممن قـدم بطعـام يبيعه، يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق النـاسُ يشيرون لـه اليَّ.. حتى جـاءَ فدفَعَ اِليَّ كتاباً من ملـك غسّان، فقرأته فاذا فيه:

«امـا بعد فقـد بلغنا أنَّ صـاحبكَ قـد جفـاك، ولـم يجعلك اللهُ بـدار هـوان ولا مضـيعة، فالحق بنا نواسيك»!!

فقلت حين قرأتها: وهذا ايضاً من البلاء !، فتيممت بها التنور فسجرتها!

ولما رأى كعب بـن مالك وصاحبـاه ما قد حلَّ بهم، قالوا:

«ما يقعدنا بالمـدينة ولا يكلمنا رسول الله ولا إخوانـنـا ولا أهلونا؟ .. فهلمـوا نخرج الى هذا الجبل .. فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت».

فخـرجـوا ال ذُبـاب، وهـو جبلٌ فـي المدينـة، فكانـوا يصومـونَ، وكان أهلـوهم يأتـونهـم بـالطعام والشـراب، فيضعـونـه ناحية.. ثمَّ يولونَ عنهم ولا يكلمونهم.

وبقوا على هذا أياماً كثيرة يبكونَ الليل والنهار، ويدعونَ اللهَ انْ يغفر لهم.. فلمّا طال عليهم الأمر، قال لهم كعب:

يا قـوم قد سخـط الله علينا ورسـوله.. وقد سخط علينا اهلونا واخواننا.. فلا يكلمنا احد.. فلم لا يسـخطُ بعضُنا على بعض؟!

فتفرقـوا في الجبل وحلفـوا انْ لا يكلِّم احدٌ صـاحبه حتى يموت أو يتوب الله عليه!

قال كعب:

فلبثنا عشـر ليالٍ، فكمل لنـا خمسون ليلة مـن حين نُهي عن كـلامنا، ومـا ان حلَّ صباحُ الليلة الخمسين، وبينمـا كنتُ جالساً

اصلي صلاة الفجر، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرضُ بما رحبت، واذا بصارخ يقول بأعلى صوته:

يا كعب بن مالك.. أبشر!! فخررتُ ساجداً، وعرفتُ ان قد جاءَ الفرج، فأذن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتوبةِ الله علينا حين صلى الفجر.

فذهبَ الناس يبشروننا.. فلمّا جاءَ الذي سمعتُ صوته يبشرني نزعتُ لهُ ثوبيَّ فكسوتهما ايّاه ببشارته، فاستعرتُ ثوبين فلبستهما فانطلقتُ أؤم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّميتلقاني الناس فوجاً بعد فوج يهنئونني بالتوبة ويقولون:

هنيئاًلك توبة الله عليك، حتى دخلتُ المسجد، فاذا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلّمجالس وحولهُ الناس، ولقد كانَ وجهه يبرقُ من السرور، فقال لي: «ابشر بخير يوم مرَّ عليكَ منذُ ولدتك امّك».. ثمَّ قرأ قوله تعالى:

﴿وعلى الثلاثةِ الذينَ خُلّفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارضُ بما رحُبت وضاقت عليهم انفسُهُم وظنُّوا أن لا ملجأ منَ الله الاّ إليه ثمَّ تابَ عليهم ليتوبوا انَّ الله هو التواب الرحيم﴾(٤).

انَّ في الآية المباركة وقصتها دروساً رائعة، وعبراً كبيرة، ولعل من أهمها:

الدرس الأوّل:

في ساعات العسرة، وفي مواطن المحنة والشدّة، تُبلى السرائر، وتمتحنُ الضمائر.. ويمضي ركبُ المجاهدين في مسيرته الزاحفة الصاعدة مخلّفاً وراءهُ طوابير المخلَّفين، وليس المتخلفين فحسب!!

انّهُ تعبيرٌ قرآني لهُ دلالاتهُ وايحاءاته، فهؤلاء في حقيقة الأمر قد خلّفهم ركبُ الجهاد السائر الى حيثُ العلياء.. تاركاً وراءه «الذين ادركتهم ثقلةُ الأرض. ثقلة الحرص على الراحة، والشح بالنفقة. وقعد بهم ضعف الهمّة وهزال النخوة..».

«وكثيرونَ هم الذينَ يشفقون من المتاعب، وينفرونَ من الجهد، ويؤثرونَ الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون اعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات»(٥).

انَّ هؤلاء وامثالهم نماذج مكرروة في كُلِّ زمان، تغمرهم الفرحةُ وهم يرونَ أنفسهم مَعَ الخوالف، ظنّاً منهم انهم استطاعوا بحنكتهم انْ يستغفلوا القيادة

الاسلامية، ويتخلّصوا من «ورطة» المسير مَعَ ركب الجهاد والمجاهدين، ولكنهم لا يعلمونَ انهم خُلِّفوا كالمتاعِ، وأُهملوا كما يهمل الرخيصُ من الاشياء: **﴿فرحَ المُخلَّفونَ بمقعدهم خلافَ رسول الله وكَرِهوا انْ يُجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحرِّ. قل: نارُ جهنم اشدُّ حرّاً لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون﴾**[٦].

وهناك نموذجٌ آخر من المخلَّفين.. الذينَ يعيشونَ الايمان بالرسالة، والشعور بمسؤوليات الجهاد والمقاومة.. في سبيل عزتها ورفعتها وكرامتها، ولكن يُبطِّئهم ضعف الارادة في المواقف الصعبة، فيعيشوا الكسل والاسترخاء، والتردد والتواني، فيحرمهم من التطلع الى العلياء.. فتفوتهم الفرصة، لتكون عليهم غصّة، ثمُ يأخذهم الحزن العميق، والندم الشديد، واللوعةُ القاتلة، على مواقفهم الكسولةِ المتخاذلة.

«فهذا كعب وزميلاه يتخلفونَ عن ركب رسول الله، في ساعة العسرة، ويدركهم الضعف البشري الذي يحبب اليهم الظلَّ والراحة، ولكنّهم سرعان ما يشعرون بالتقصير والخطيئة»[٧].

وشتان بين من يخلّفهم ركبُ المجاهدين لكسلهم وترددهم واسترخائهم، وبينَ منَ يُخلّفهم لتربّصهم ومكرهم ونفاقهم.

ولهذا فقد اختلف الموقف القرآني من المخلَّفين، بحسب اختلاف النوايا والمقاصد، فهناك الموقف الصارم والحاسم تجاه بعض النماذج، فلا يسمح لهم بالمشاركة في ايِّ معركةٍ قادمةً مهما الحّوا على الخروج:

﴿فان رجعكَ اللهُ الى طائفةٍ منهم فاستاذنوكَ للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا ولن تقاتلوا معي عدوا انّكم رضيتُم بالقعود اوّل مرّة فاقعدوا مَعَ الخالفين﴾[٨].

ذلك لانَّ الذين يفرحون بتخلفهم في ساعة العسرة.. نفاقاً وجبناً ومكراً.. ليس لهم الحق في المشاركة في الجولات القادمة، لانهم لا يستحقونَ شرف الجهاد، ووسام الجنديّة في الصفوف الايمانية، ولانهم يشكّلونَ الثغرة في ايّة معركة قادمة.

من هذا المنطلق فانَّ «الذينَ يضعفون ويتخلّفونَ يجب نبذهم بعيداً عن الصف، وقاية لهُ من التخلخل والهزيمة. والتسامح مَعَ الذينَ يتخلفونَ عن الصف في ساعة الشدّه».. ثُمَّ يعودونَ إليه في ساعة الرخاء،

جنايـة على الصفّ كلّـه، وعلى الدعـوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير»[9].

ويستمر هـذا الموقف الرافـض لهؤلاء حتى بعد مماتهم:

﴿ولا تصلّ على أحدٍ منهـم ماتَ ابدا ولا تقم على قبره﴾[10].

ففي الوقت الـذي نرى هـذا المـوقف القرآني الصارم والحاسـم تجاه تلك الطائفة من المخّلفيـن، نجد المـوقف تجـاه الثلاثـة المخلّفين مختلفـاً، فقد فُتحَ لهم بـابُ العودة الى الانتظام بالصفوف المجاهدة من جديد، وسُمحَ لهم فـي الالتحاق بالـركب المجـاهد بعد الكرب الشديد.

ولهـذا فقد افـردَ القـرآن القيّم لهـؤلاء الثلاثة موقفاً متميزاً بينَ طوائف المخلّفين:

﴿وعلى الثلاثة الذينَ خلّفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارضُ بما رحبت..﴾.

الدرس الثاني:

انَّ الكسل والتـواني والاستـرخاء قـد يُصيـبُ بعـض المـؤمنيـن المخلصيـن المستبصريـن في بعض المواقـف الصعبة، عنـدما تستجيـبُ النفوس لهتـاف الغريـزة والشهوة، فتركنُ الـى الاسترواح في الظلال البـاردة، وتكـره النفيـر الى سـوح الـوغـى اللاهبة.

وقد سمعنا قبل قليل حديث أحد الثلاثة المخلّفين «فتجهزَّ المسلمـون وطَفِقتُ أغدو لكي اتجهّزَ معهم.. فـارجع ولا اقضي شيئاً، فأقول لنفسي: انـا قادرٌ على ذلك إن أردت. فلم يـزل يُتهـادى بي حتـى استمَّر النـاس الجد.. فأصبح رسولُ الله غادياً والمسلمون مَعَه.. ولم اقضِ في جهازي شيئاً.. ولم يزل يتهادى بي حتى اسرعوا.. فهممتُ ان ارتحل فأُدركهم.. وليت أني فعلت»!!

وكم كانَ حزنهُ كبيراً عندما لم يجد في طـوابيـر المخلّفين في المـدينـة «الاّ رجـلاً مغموصاً عليه في النفـاق أو رجلاً ممن عَذَرَ الله»! من الـذيـنَ يملكـون العـذر الشـرعي كالمرضى، والذينَ لا يملكون وسيلة الجهاد.

هكـذا تفـوت الفـرصــة على الـذيـنَ يستجيبونَ لنداء الراحة والدعة.. فيعيشون الحسرة والندم واللوعة.

فهذا الصحابي المجاهد أبو خيثمة كادَ ان يكون رابع الثـلاثة لولا انْ تداركـهُ نعمةٌ من ربّه، فانتفضت الارادةُ في نفسه، وثارت العزيمةُ في قلبه، فرفضَ كُلَّ خطوط الضغط التي ارادت أَنْ تشـدّه الى الارض.. عنـدمـا وجَـدَ نَفْسـهُ بعـد أيّام مـن مسيـرة الـركب الجهادي الزاحف الى تبـوك، بينَ امرأتين لهُ في عريشتين لهما في حائطه (حديقته)، قد رشت كلّ واحدةٍ منهما عـريشها، وبردت لهُ

فيه ماء، وهيأت لهُ فيه طعاما. فلما دَخَلَ قام على باب العريش، فنظر الى امرأتيه وما صنعتا له، فتذكّر حالة الاسترخاء والدعة التي هو عليها، في الوقت الذي يغذّ فيه ركبُ المجاهدين السير نحو مواجهة الأعداء، بقيادة الرسول الكريم.

فقال في نفسه:

لا والله ما هذا بانصاف.. رسولُ الله قد غَفَرَ اللهُ لهُ ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، قد خرجَ في الفيح والريح، وقد حمل السلاح يُجاهد في سبيل الله، وابو خيثمة قويٌّ قاعد، في ظلٍّ بارد، وبينَ امرأتين حسناوين.. في مالهِ مقيم؟!

لا والله ما هذا بالنصف!..

ثمَّ خاطبَ زوجتيه خطابَ المجاهد الرسالي:

والله لا ادخل عريش واحدةٍ منكما حتى الحقَ برسولِ الله، فهيئا لي زاداً.

وسرعان ما خرجَ ابو خيثمة يغذُّ السير في طلب ركب المجاهدين، حتى ادركهُ في تبوك[11]!.

لقد كانَ الرسولُ القائد يقول للمجاهدين، عند سماعِهِ انباء مَنْ يتخلّف عن ركب المقاتلين:

«دعوه فان يكُ فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم،وان يكن غيرذلك فقداراحكم الله منه»!

الدرس الثالث:

في اجواء المجتمع الاسلامي الواعي لتكاليف الرسالة، واعباء المسؤوليّة، لا مجال للمتخلفين القاعدين في صفوفه..

ولهذا فقد قاطع الناسُ في المدينة هؤلاء الثلاثة المخلفين، فلم ينبس احدٌ معهم ببنت شفة، ولم يردّ عليهم مخلوقٌ بسلامٍ وتحيّة. وقد ادركت نساؤهم قيمة المقاطعة، وفلسفة العزلة، فكنَّ السبّاقات على تنفيذها بحقِّ ازواجهن.. وهكذا امتدت المقاطعة التامة، والجفوةُ العامة، من قبل الرجال والنساء على حدٍّ سواء.. حتى اصبح هؤلاء الثلاثة بُعداء مطرودين غرباء.. وقد وَصَل بهم الأمر الى درجةِ الاحساس المرير بالعزلة القاتلة، والغربة الخانقة، والوحشةِ التي بلغت حدّاً اصبحت فيه الأرض الواسعة جحْراً ضيّقاً، وكهفاً موحشاً.. وضغطت عليهم انفسهم حتى كادت انْ تقطّع أنفاسهم..

وما ابلغ وأروع التعبير القرآني وهُوَ يصوّر لنا ما يعتملُ في نفوس هؤلاء:

﴿حتى اذا ضاقت عليهم الارضُ بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا انْ لا ملجا من الله الاّ اِليه ثُمَّ تابَ عليهم ليتوبوا﴾.!

لقد لعبت المقاطعةُ الاجتماعيةُ دوراً فعّالاً في الاحساس بجسامةِ الذنب الذين

ارتكبوه، وعظم الجرم الذي اجترحوه. فهاهم يرونَ انفسهم غرباء رغم انهم يعيشون بينَ نسائهم وأولادهم وابناء عمومتهم واصدقائهم. فلم تعد تلك المرأةُ زوجته التي كانت تسمع لهُ وتطيع، ولم يعد ذلك الشاب ابنهُ الذي كانَ يكنُّ له أسمى آيات الاحترام والتقدير.. وتحوّل ذلك الصديق الحميم الذي كانَ دائمَ السؤال عن الصحة والأحوال، إلى الجافي الذي يبخلُ حتى بردِّ التحيّة والسلام.

ولهذا «قال بعضُهم لبعض: قد هجرنا الناس ولا يكلّمنا أحد منهم، فهلاّ نتهاجر نحُن أيضاً؟! فتفرقوا ولم يجتمع منهم اثنان»[12]!!

وهكذا يُطوِّقُ المجتمع الايماني الحي مظاهر التخاذل والتواني والقعود، من خلال تحسيس المخطئين بخطئهم، مما يدفعهم الى تصحيح موقفهم. فقد وردَ في الحديث انّ «أدنى الانكار انْ تلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»[13].

من هنا كانَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ابرز صفةٍ للامةِ الاسلاميّة «الخيّرة» التي تعيش الريادة بينَ الأمم:

﴿كنتم خير امّةٍ أُخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهونَ عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[14]

انَّ ذكر صفة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» قبل «الايمان بالله» لهُ دلالاتهُ الرائعة وايحاءاته الكبيرة.

وانَّ تعطيل تلك الفريضة في المجتمع يمثلُ بداية النهاية لحياة ذلك المجتمع وفاعليته وحيويته.

فعن الامام الرضا عليه السّلام: «كانَ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: اذا أُمتي تواكلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتأذن بوقاعٍ منَ الله»[15].

الهوامش:

(١) راجع تفسير القمي، وتفسير مجمع البيان للطبرسي، والميزان للطباطبائي، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، في تفسير الآية. وقد اعتمدنا بصورة اساسيّة على رواية عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، التي اخرجها احمد والبخاري ومسلم عن طريق الزهري.

(٢) التهادي: التثاقل والابطاء، والتهادي ـ كما يقول صاحب لسان العرب ـ مشيُ الابل الثقال، وهو مشيٌ في تمايل وسكون.

(٣) تفسير القمي ١: ٢٩٧.

(٤) التوبة: ١١٨.

(٥) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ ٣ / ١٦٨٢.

(٦) التوبة: ٨١ـ٨٢.

(٧) في ظلال القرآن ـ سيد قطب: ٣ / ١٧٢٠.

(٨) التوبة: ٨٣.

(٩) في ظلال القرآن ـ سيد قطب. ٣ / ١٦٨٢.

(١٠) التوبة: ٨٤

(١١) راجع تفسير مجمع البيان للطبرسي.

(١٢) راجع تفسير مجمع البيان للطبرسي.

(١٣) الوسائل: ١١ / ٤١٣.

(١٤) آل عمران: ١١٠.

(١٥) البحار: ١٠٠ / ٩٢.

التفسير: نشأته وتطوره (٧)

الشيخ محمد هادي معرفة

السادس ــ حسن أيضاً ـ طريق الضحّاك بن مزاحم الهلالي الخراساني قال ابن شهرآشوب: اصله من الكوفة، كان من اصحاب السجّاد عليه السّلام[١]

وقال ابن قتيبة: هو من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة. وكان معلّماً، أتى خراسان فاقام بها. مات سنة ١٠٢[٢].

وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: لقي جماعة من التابعين، ولم يشافه احداً من الصحابة.. وكان مُعلّم كتاب.

وقال عبد الله بن احمد عن ابيه: ثقة مأمون. وقال ابن معين وابو زرعة: ثقة.

قال ابو داود سلمة بن قتيبة عن شعبة: حدثني عبد الملك بن ميسرة، قال: لم يلق الضحاك ابن عباس، انما لقي سعيد بن جبير بالرّي فأخذ عنه التفسير[٣].

قال الزهير: الضحاك بن مزاحم البلخي المفسّر، ابو القاسم.. وكان يؤدّب، فيقال: كان في مكتبه ثلاثة آلاف صبيّ، وكان يطوف عليهم[٤].

ونقل المامقاني عن ملحقات الصراح: انه كان يقيم ببلخ وبمرو، وأيضاً ببخارى وسمرقند مدّة، ويعلمّ الصبيان احتساباً. وله التفسير الكبير والتفسير الصغير[٥].

وعدّه الشيخ من اصحاب الامام زين العابدين، قال: الضحاك بن مزاحم الخراساني. اصله الكوفة، تابعي[٦].

واستظهر المامقاني من عبارة الشيخ هذه كونه إمامياً.. ولعله من جهة كونه من الكوفة مهد التشيّع آنذاك! نعم روى عنه القمي (علي بن ابراهيم بن هاشم) في تفسيره، وقد تعهد في مقدمة التفسير ان لا يروي إلاّ عن مشايخه الثقات[٧] فقد روى ـ عند تفسير سورة الناس ــ باسناده عن

مقاتل بن سليمان عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس[8] وقد جعل سيدنا الاستاذ الامام الخوئي تبعاً للحر العاملي ذلك دليلاً على وثاقة كل من وقع في اسناد هذا الكتاب[9].

وانما غمزوا فيه جانب ارساله في الحديث، ولا سيما عن ابن عباس. قال ابن حجر في التقريب: صدوق كثير الارسال[10]. قلت: لا ضير في الارسال بعد معلومية الواسطة وكون الرجل صدوقاً. كما ذكره ابن حجر بشأن علي بن ابي طلحة الهاشمي.

إذن لا وجه لما ذكره السيوطي: ان طريق الضحاك الى ابن عباس منقطعة، فان الضحاك لم يلقه!

وأضاف: فان انضم الى ذلك رواية بشر بن عمارة عن ابي روق عنه، فضعيفة لضعف بشر. قال: وقد أخرج من هذه النسخة ابن جرير وابن ابي حاتم كثيراً. قال: وان كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشدّ ضعفاً لان جويبراً شديد الضعف متروك. ولم يخرج ابن جرير ولا ابن ابي حاتم من هذا الطريق شيئاً، وانما أخرجها ابن مردويه وابو الشيخ ابن حبّان[11].

السابع، طريق صالح، هو طريق ابي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الخراساني، المروزي. اصله من بلخ وانتقل الى البصرة ودخل بغداد وحدث بها. وكان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز. وله التفسير المشهور. قال ابن خلكان: أخذ عن مجاهد بن جبر وعطاء بن ابي رباح والضحاك وغيرهم. وكان من العلماء الأجلّاء. قال الامام الشافعي: الناس كلهم عيال على مقاتل بن سليمان في التفسير[12] توفي سنة (١٥٠).

قال احمد بن سيّار: كان من اهل بلخ، وتحوّل الى مرو، وخرج الى العراق. توفي بالبصرة سنة ١٥٠.

كان تفسيره موضع اعجاب العلماء من اول يومه. غير انهم كانوا يتهمونه بأشياء هذا منها براء. قال القاسم بن احمد الصفّار: قلت لابراهيم الحربي: ما بال الناس يطعنون على مقاتل؟ قال: حسداً منهم له.

فعن ابن المبارك ـ لما نظر الى شيء من تفسيره ـ: يا له من علم، لو كان له اسناد! وعن سفيان بن عبد الملك، عنه قال: ارم به، وما احسن تفسيره، لو كان ثقة!

قال عبد الرزاق: سمعت ابن عيينة يقول: قلت لمقاتل: تحدّث عن الضحاك، وزعموا انك لم تسمع منه! قال: سبحان الله، لقد كنت آتيه مع ابي، ولقد كان يُغلَق عليَّ

وعليه الباب! كناية عن انه كان يبادله الحديث ساعات طوال[١٣].

ورماه ابو ضيفة بالتشبيه.. ولكن لما سأله بعضهم عن ذلك، فقال: بلغني أنك تشبّه؟ قال: انما اقول: **﴿قل هو الله احد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً احد﴾** فمن قال غير ذلك فقد كذب[١٤].

واخرج الخطيب عن القاسم بن احمد الصفار، قال: كان ابراهيم الحربي يأخذ مني كتب مقاتل، فينظر فيها. فقلت له ذات يوم: أخبرني يا ابا اسحاق، ما للناس يطعنون على مقاتل؟قال: حسدا منهم لمقاتل! .. قال: وقال مقاتل: أغلق عليّ وعلى الضحاك باب اربع سنين.

قال الخطيب: وكان له معرفة بتفسير القرآن، ولم يكن في الحديث بذاك. واخرج عن احمد بن حنبل، قال: كانت له كتب ينظر فيها، إلا أني أرى أنه كان له علم بالقرآن .. وعن يحيى بن شبل، قال: قال لي عباد بن كثير: ما يمنعك من مقاتل؟ قال: قلت: ان اهل بلادنا كرهوه ! قال: فلا تكرهنّه، فما بقي احد اعلم بكتاب الله منه .. وكان عند سفيان بن عيينة كتاب مقاتل كان يستدل به ويستعين به. وقال مقاتل بن حيان ـــ لما سئل انت اعلم ام مقاتل بن سليمان ـــ: ما وجدت علم مقاتل في علم الناس إلا كالبحر الاخضر (المحيط) في سائر البحور .. وعن بقية بن الوليد، قال: كنت كثيرا اسمع شعبة وهو يسأل عن مقاتل، فما سمعته قط ذكره إلا بخير.

ومن طريف مايذكر عنه ـ وهو حال ببغداد ـ: أن أبا جعفر المنصور كان جالسا ذات يوم، وكان ذباب قد ألح عليه يقع على وجهه، ألح في الوقوع مرارا حتى اضجره. فأرسل من يحضر مقاتل بن سليمان، فلما دخل عليه قال له: هل تعلم لماذا خلق الله الذباب؟ قال: نعم، ليذل الله به الجبارين، فسكت المنصور[١٥].

نعم كان الرجل صريحا في لهجته، واسع العلم، بعيد النظر، شديداً في دينه، صلبا في عقيدته .. وفوق ذلك كان يميل مع مذهب أهل البيت، ذلك المنهج الذي انتهجه اشياخه من قبل، من المتأثرين بمدرسة ابن عباس رضوان الله عليه. الامر الذي جعل من نفسه مرمى سهام الضعفاء القاصرين.. وكم له من نظير.!

يدلك على استقامة الرجل في المذهب، كما يدل على وثاقته واعتماد الاصحاب عليه أيضاً، ما رواه ابو جعفر الصدوق باسناده

الصحيح الى الحسن بن محبوب ـ وهو من اصحاب الاجماع ـ عن مقاتل بن سليمان عن الامام ابي عبد الله الصادق عليه السّلام ـ يرفعه الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: قال: انا سيّد النبيين ووصيّي سيّد الوصيّين واوصياؤه ـــ ثم جعل يذكر الانبياء واوصياءهم حتى انتهى الى بردة، من اوصياء عسى بن مريم عليهما السّلام ـ قال: ودفعها (اي الوصاية) اليّ بردة، وانا أدفعها اليك يا عليُّ ـ الى قوله ـ ولتكفرنّ بك الامة، ولتختلفنّ عليك اختلافاً شديداً، الثابت عليك كالمقيم معي، والشاذ عنك كالشاذ مني، والشاذ مني في النار، والنار مثوى الكافرين[١٦].

هذه الرواية ان دلّت فانما تدلّ على كون الرجل من اخصّ الخواص لدى الامام عليه السّلام، وقد عدّه الشيخ ابو جعفر الطوسي، من اصحاب الباقر والصادق عليهما السّلام[١٧].

وله رواية اخرى، رواها الكليني باسناده الصحيح الى ابن محبوب عنه عن الصادق عليه السّلام[١٨].

وعدّه ابو عمرو الكشّي من البتريّة (الزيدية)[١٩]. لكن يبعّده ان عقيدته كانت امتداداً لعقيدة ابن عباس.

وبعد، فلعلّك تعرف السبب فيما ذكره السيوطي بشأنه: الكلبي يفضّل عليه، لما في مقاتل من المذاهب الرديئة[٢٠] أما الخليلي فقد انصف حيث قال: فمقاتل في نفسه ضعّفوه، وقد ادرك الكبار من التابعين. والشافعي اشار الى ان تفسيره صالح[٢١].

الثامن ـــ أيضاً صالح ـــ طريق ابي الحسن عطية بن سعد بن جنادة، العوفي الكوفي المتوفى سنة (١١١).

قال الذهبي: تابعي شهير[٢٢] روى عن ابن عباس وعكرمة وزيد بن ارقم وابي سعيد قال عطية: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث مرات على وجه التفسير. واما على وجه القراءة فقرأت عليه سبعين مرة وعن ملحقات الصراح: ان له تفسيراً في خمسة اجزاء[٢٣].

قال ابن عدي: قد روى عن جماعة من الثقات، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وكان يُعدّ مع شيعة اهل الكوفة.. كتب الحجاج الى عامله محمد بن القاسم ان يعرضه على سبّ عليّ عليه السّلام فان لم يفعل فاضربه اربعمائة سوط واحلق لحيته، فاستدعاه فأبى ان يسبّ، فأمضى فيه حكم الحجّاج. ثم خرج الى خراسان، فلم يزل بها حتى ولّى عمر بن هبيرة العراق، فقدمها فلم يزل

بها الى ان توفّى سنة١١١.

قال ابن حجر: وكان ثقة ان شاء الله، وله احاديث صالحة. قال: ومن الناس من لا يحتجّ به. وقال ابن معين: صالح الحديث.

قال ابو بكر البزّار: كان يعد في التشّيع، وروى عنه جلّة الناس. وقال الساجي: ليس بحجّة، وكان يقدّم علياً على الكُلّ(٢٤).

قال السيوطي: وطريق العَوفي عن ابن عباس، اخرج منها ابن جرير وابن ابي حاتم كثيراً. والعَوفي ضعيف ليس بواهٍ. وربمّا حسن له الترمذي(٢٥).

قلت لا قدح فيه بعد ان كان منشأ الغمز هو تشيّعه لآل الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والدفاع عن حريمهم الطاهر. ومن ثم فقد اعتمده القوم، ورأوا أحاديثه صالحة وكان عندهم مرضياً.

فقد ذكر أبو عبد الله الذهبي — في ترجمة أبان بن تغلب، بعد ان يصفه بأنه شيعي جلد، لكنه صدوق، فلنا صدقه وعليه بدعته، وقد وثقه ابن حنبل وابن معين وأبو حاتم —: فلقائل ان يقول: كيف ساغ توثيق مبتدع، وحدّ الثقة العدالة والاتقان؟ فكيف يكون عدلاً من هو صاحب بدعة!

قال: وجوابه، ان البدعة على ضربين، فبدعة صغرى كغلوّ التشيّع أو كالتشيّع بلا غلّو ولا تحرّف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم، مع الدين والورع والصدق. فلوردّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوّية وهذه مفسدة بينة(٣٦).

قال ابن حجر ـ بعد ان ذكر توثيق ابن عدي لأبان بن تغلب قائلاً: له نسخ عامتها مستقيمة، اذا روى عنه ثقة. وهو من اهل الصدق في الروايات، وان كان مذهبه مذهب الشيعة، وهو في الرواية صالح لا بأس به —

قال ابن حجر: هذا قول منصف. واما الجوزجاني فلا عبرة بحطّه على الكوفيين...(٣٧).

وذكر النجاشي أن عطية العوفي، روى عنه أبان بن تغلب، وخالد بن طهمان السلولي، وزيادبن المنذر ابو الجارود(٢٨).

قال المحدّث القمي: عطيّه العوفي احد رجال العلم والحديث يروى عنه الأعمش وغيره، وروى عنه اخبار كثيرة في فضائل امير المؤمنين عليه السّلام، وهو الذي تشرّف بزيارة الحسين عليه السّلام مع جابر الأنصاري يوم الاربعين، الذي يعدّ من فضائله أنه كان اوّل من زاره بعد شهادته. قال: ويظهر من كتاب بلاغات النساء انه سمع عبد الله الحسن يذكر خطبة فاطمة

الزهراءعليهاالسّلام في امر فدك[٢٩].

ومن مواقفه الحاسمة دون بني هاشم، انه كان رأس الفريق الذين انتدبهم ابو عبد الله الجَدَلي مبعوث المختار بن ابي عبيدة الثقفي في اربعة آلاف لانقاذ بني هاشم ـ وفيهم محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس ـ من دور قد جمع عبد الله بن الزبير لهم حطبا ليحرقهم بالنار، ان لم يبايعوا. فدخل عطية بن سعد بن جنادة العَوفي مكة، فكبّروا تكبيرة سمعها ابن الزبير، فانطلق هارباً حتى دخل دار الندوة، ويقال: تعلّق بأستار الكعبة وقال: انا عائذ الله.. فاقبل عطية فاخّر الحطب عن الأبواب، وانقذهم، في تفصيل ذكره محمد بن سعد كاتب الواقدي في الطبقات[٣٠].

قال الدكتور شواخ: كان عطية شيعيًا، وعدّه الكلبي حجة في تفسير القرآن. وهذا التفسير مروي، فقد نقل الطبري من هذا التفسير نقولاً استخدمها في (١٥٦٠) موضعاً من تفسيره بالسند التالي: «حدّثني محمد بن سعد، قال: حدثني ابي، قال: حدثني عمّي الحسين بن الحسن عن ابيه عن جدّه (عطيّة بن سعد العوفي) عن ابن عباس...». كما استخدم الطبري في تاريخه أيضاً نقولاً وشواهد من هذا التفسير. وقد استخدم الثعلبي السند السابق في كتابه «الكشف والبيان».

وهذا التفسير يدخل ضمن الكتب التي حصل الخطيب البغدادي على حق روايتها من اساتذته في دمشق، كما في مشيخته. وتاريخ التراث العربي (١ / ١٨٧ ـ ١٨٨)[٣١].

وذكر ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ في المنتخب من ذيل المذيّل ـ فيمن توفى سنة (١١١)، قال: ومنهم عطيّة بن سعد بن جنادة العَوفي من جديلة قيس ويكنى ابا الحسن. قال ابن سعد: اخبرنا سعيد بن محمد بن الحسن بن عطيّة، قال: جاء سعد بن جنادة الى علي بن ابي طالب عليه السّلام وهو بالكوفة فقال: يا امير المؤمنين، انه ولد لي غلام فسمّه، فقال: هذا عطيّة الله، فسُمّى عطيّة. وكانت امّه روميّة. وخرج عطيّة مع ابن الأشعث. هرب عطيّة الى فارس، وكتب الحجاج الى محمد بن القاسم الثقفي أن ادع عطيّة فإن لعن علي بن ابي طالبعليه السّلام، وإلاّ فاضربه اربعمائة سوط واحلق رأسه ولحيته، فدعاه وأقرأه كتاب الحجاج، وأبى عطيّة ان يفعل، فضربه اربعمائة سوط وحلق راسه ولحيته. فلمّا ولّى قتيبة بن مسلم خراسان خرج اليه عطية، فلم يزل بخراسان حتى ولّى عمر بن

هبيرة العراق، فكتب اليه عطيّة يسأله الإذن له في القدوم فاذن له، فقدم الكوفة فلم يزل بها الى أن توفّى سنة (١١١) وكان كثير الحديث ثقة إن شاء الله[٣٢].

التاسع ـ وهو أيضاً طريق صالح على الأرحج ـ طريق ابي النضر محمد بن السائب بن بشر، الكلبي، الكوفي، النسّابة المفسر الشهير. عن ابي صالح مولى امّ هانيء، عن ابن عباس.

وقد وصفه السيوطي بأنه ادهى الطرق! واضاف: فان انضّم الى ذلك رواية محمد بن مروان السُدّى الصغير، فهي سلسلة الكذب! قال: وكثيراً ما يخرّج منها الثعلبي[٣٣] والواحدي[٣٤].

ثم استدرك ذلك بقوله: لكن قال ابن عدي في الكامل: للكلبي احاديث صالحة، وخاصّة عن ابي صالح..

واخيراً قال: وهو ــ الكلبي ــ معروف بالتفسير، وليس لأحد تفسير اطول ولا اشبع منه[٣٥].

قال ابن خلّكان: صاحب التفسير وعلم النسب، اماماً في هذهين العلمين[٣٦].

قال ابن سعد: كان محمد بن السائب عالماً بالتفسير وانساب العرب واحاديثهم. وتوفّى بالكوفة سنة ١٤٦في خلافة ابي جعفر المنصور[٣٧].

وكان يتشيّع عن ارث تليد، وليس طارفاً. قال ابن سعد: وكان جدّه بشر بن عمرو وبنوه السائب وعبيد وعبد الرحمن شهدوا الجمل مع علي بن ابي طالب عليه السّلام[٣٨].

ومن ثم رموه بالضعف تاره وبالابتداع أخرى، ومع ذلك فلم يجدوا بدّاً من الانصياع لمقام علمه الرفيع. وان يلمسوا اعقابه بكل خضوع وبخوع. فقد اعتمده الأئمة وجهابذة التفسير والحديث[٣٩].

أما ما ألصقوه به من الغلوّ في التشيّع، فلا اساس له، وانما وضعوه عليه قصداً لتشويه سمعته، بعد ان لم يكن رميه بمجرد التشيّع قدحاً فيه. فعن المحاربي قال: قال قيل لزائدة بن ورامة: ثلاثة لا تُردى عنهم، ابن ابي ليلى، وجابر الجعفي، والكلبي؟ قال: اما ابن ابي ليلى فلست اذكره. واما جابر فكان يؤمن بالرجعة[٤٠]. واما الكلبي ـ وكنت اختلف اليه ـ فسمعته يقول: مرضت مرضةً فنسيت ما كنت احفظ، فأتيت آل محمد، فتفلوا في فيّ فحفظت ما كنت نسيت! قال: فتركته[٤١]. وعن ابي عوانة: سمعت الكلبي بشيء، من تكلّم به كفر... قال الاصمعي:

فراجعت الكلبي وسألته عن ذلك، فجحده.
قال الساجي: كان ضعيفاً جدّاً، لفرطه في التشيّع[٤٢].

هذا.. ولكن ابن عدي قال بشأنه: له غير ذلك (الذي رموه بالغلو) احاديث صالحة، وخاصّة عن ابي صالح، وهو معروف بالتفسير. وليس لأحد أطول من تفسيره. قال: وحدّث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير[٤٣]..

ولابي حاتم ـ هنا ـ كلام غريب، ننقله بلفظه:

قال: يروى الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس التفسير، وابو صالح لم ير ابن عباس ولا سمع منه شيئاً، ولا سمع الكلبي من ابي صالح، إلاّ الحرف بعد الحرف. فجعل لما احتيج له، تُخرج له الارض افلاذ كبدها!

قال: لا يحّل ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به. والله جلّ وعلا ولّى رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم تفسير كلامه[٤٤] ومحال ان يأمر الله نبيّه ان يبين لخلقه مراده ويفسره لهم، ثمّ لا يفعل. بل أبان عن مراد الله وفسرّ لأمته ما يهمّ الحاجة اليه، وهو سننه صلّى الله عليه وآله وسلّم فمن تتّبع السنن، حفظها، واحكمها، فقد عرف تفسير كلام الله، واغناه عن الكلبي وذويه!

قال: وما لم يبينه من معاني الآي، وجاز له ذلك، كان لمن بعده من امّته أجوز! وترك التفسير لما تركه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أحرى. ومن اعظم الدليل على ان الله لم يرد تفسير القرآن كله، أنّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ترك من الكتاب متشابها من الآى، وآيات ليس فيها احكام، فلم يبيّن كيفيّتها لأمّته. فدلّ ذلك على ان المراد من قوله ﴿لتبيّن للناس ما نزّل اليهم﴾ كان بعض القرآن لا كلّه[٤٥].

قلت: هذا كلام ناشيء عن عصبيّة عمياء. كيف يجرؤ مسلم ملتزم ان ينسب الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم انه لم يفسّر لأمته جميع ما أبهم في القرآن ابهاماً، وقد أمره تعالى بذلك! وقد اثبتنا فيما قبل أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بيّن الجميع اما في ايجاز أو تفصيل، ولم يترك شيئاً تحتاج إليه امّته ـ ومنها فهم معاني القرآن كله ـ لم يبينّه لهم، انما عليه البيان كما كان عليه البلاغ.

اما توسع الكلبي في التفسير، فأمر معقول، بعد كونه ناجماً عن توسعه في العلم وتربيته في مهد العلم كوفة العلماء الأعلام من صحابة الرسول الأخيار. وهذا لا يعدّ

عيباً في الرجل. (ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم، بهنّ فلول من قراع الكتائب)!

وتفسير الكلبي هذا لا يزال موجوداً منعّماً بالحياة، وقد استقصى الدكتور شواخ نسخة المخطوطة في المكتبات اليوم، منذ نسختة التي كتبت سنة ٤٤١هـ حتى القرن[٤٦].

واما ابو صالح ـــ ويقال له: با ذام أو باذان، مولى ام هانيء بنت ابي طالب ـ فقد روى عن علي عليه السّلام وابن عباس ومولاته ام هانيء. وروى عنه الأجلاء كالأعمش والسّدي الكبير والكلبي والثوري وغيرهم.

قال علي بن المديني عن يحيى القطان: لم ار أحداً من اصحابنا تركه، وما سمعت احداً من الناس يقول فيه شيئاً.

قال ابن حجر: وثقه العجلي وحده. قال: ولمّا قال عبد الحق ـــ في الأحكام ـــ ان ابا صالح ضعيف جدّاً، أنكر عليه ابو الحسن بن القطان في كتابه![٤٧]. وقال ابن معين: ليس به بأس. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه تفسير[٤٨].

قلت: وما وجه تضعيفه الا ما ضُعّف به نظراؤه ممن حام حول هذا البيت الرفيع. اذ من الطبيعي ان مولى امّ هانيء اخت الامام امير المؤمنين، وقد كانت كأخيها الامام موضع عناية النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم من اوّل يومها وكانت ذات علاقة باخيها امير المؤمنين عليه السّلام تخلص له الولاء، فلا يكون مولاها ـ وهو تحت تربيتها ـــ بالذي يختار غير سبيلها المستقيم.. فلا غرض إذن ممن لا يعرف ولاء لهذا البيت، أن يتهّم الموالين لهم، واقله الرمي بالضعف!

هذا الجوزجاني يقول: كان يقال له: ذو رأى غير محمود[٤٩]! نعم غير محمود عندهم ولا كان مرضيًا لديهم، ما دام لم ينخرط في زمرتهم من ذوى الرأى العام!

وبعد.. فقد تفرّد ابن حبّان بأن ابا صالح باذان لم يسمع عن ابن عباس.. كيف لم يسمع منه وهو معه في زمرة عليّ مع سائر اوليائه الكرام!

قال ابن سعد: ابو صالح، واسمه بازام، ويقال باذان، مولى ام هانيء بنت ابي طالب، وهو صاحب التفسير الذي رواه عن ابن عباس. ورواه عنه الكلبي محمد بن السائب.. وأيضاً سماك بن حرب واسماعيل بن ابي خالد[٥٠].

واما محمد بن مروان بن عبد الله الكوفي، السُدّي الصغير، فقد روى عن جماعة من اهل العلم كالأعمش ويحيى بن سعيد الأنصاري ومحمد بن السائب الكلبي

واضرابهم.. وروى عنه الكثير من الأعلام كالاصمعي وهشام بن عبيد الله الرازي ويوسف بن عدي وامثالهم... مما ينبىء عن موضع الرجل وانه موضع الثقة من ائمة الحديث.

وقد ضعّفه كثير من اصحاب التراجم[٥١] ديدنهم في التحامل على الكوفيين على ما اسلفنا، سوى أن محمد بن اسماعيل البخاري لم يضعّفه صريحاً، إذ لم يجد الى ذلك سبيلاً، واكتفى بأن لا يكتب حديثه.، قال: محمد بن مروان الكوفي، صاحب الكلبي، سكتوا عنه. لا يكتب حديثه البتة[٥٢]. وقال النسائي: متروك الحديث[٥٣].

وقد عدّه ابن شهرآشوب من اصحاب الامام محمد بن علي الباقر عليه السّلام قال: ومحمد بن مروان الكوفي، من ولد ابي الأسود[٥٤] ولعله من جهة البنت. وكذا عده الشيخ من رجال الباقر عليه السّلام[٥٥] لكن وصفه بالكلبى نسبة الى شيخه محمد بن السائب. وفي الكشي - في ترجمة معروف بن خربوذ - رواية عن محمد بن مروان - ولعله السدّي - تدل على ملازمته للامام الصادق عليه السّلام عندما كان يقدم عليه المدينة أو عندما كان الامام مبعداً الى الحيرة في العراق[٥٦].

الهوامش

(١) المناقب ٤: ١٧٧.

(٢) المعارف: ٢٠١ - ٢٠٢.

(٣) تهذيب التهذيب٤: ٤٥٤-٤٥٤

(٤) ميزان الاعتدال٢: ٣٢٥.

(٥) تنقيح المقال ٢: ١٠٥ / ٥٨٣٢.

(٦) المصدر السابق

(٧) التفسير ١: ٤.

(٨) التفسير ٢: ٤٥٠

(٩) معجم رجال الحديث ١: ٤٩و٩: ١٤٥-١٤٦

(١٠) تقريب التهذيب ١: ٢٧٣ / ٧.

(١١) المصدر السابق

(١٢) وفيات الاعيان ٥: ٢٥٥ رقم ٧٣٢. قال شواخ: وتوجد قائمة بالتفاسير الثابتة التي اخذت من تفسيره عند مسينون.

وكان هذا التفسير احد مراجع الثعلبي في كتابه «الكشف والبيان».

وقد حصل الخطيب البغدادي في دمشق على اجازته وروايته. كما في مشيخته. وقد استخدمه الطبري في تفسيره وفي تاريخه. وقد حققه الدكتور شحاتة. وهو في رواية ابي صالح الهذيل بن حبيب الونداني الذي كان يعيش في سنة ١٩٠هـ وقد اضاف هذا في بعض المواضيع في نص مقاتل من

اسـانيد بعـض الآخريـن.. راجع معجم مصنفـات القرآن الكريم ٢: ١٧٠رقم٧.

(١٣) تهذيب التهذيب ١٠: ٢٨٠.

(١٤) المصدر : ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(١٥) تاريخ بغداد ١٣: ١٦٠ـ ١٦٩، وابن خلكان ٥: ٢٥٥ رقم ٧٣٣.

(١٦) من لا يحضره الفقيه ٤: ١٢٩ـ١٣٠ باب ٢٧ / ١.

(١٧) رجال الطوسي: ١٣٨ رقم ٤٩ و٢١٣ رقم ٥٣٦.

(١٨) روضة الكافي ٨: ٢٣٣ رقم ٣٠٨.

(١٩) رجال الكشي: ٣٣٤

(٢٠) الاتقان ٤: ٢٠٩.

(٢١) المصدر: ٢٠٨.

(٢٢) ميزان الاعتدال ٣: ٧٩ـ ٨٠ رقم ٥٦٦٧.

(٢٣) تنقيح المقال للمامقاني ٢ : ٢٥٣ رقم ٧٩٤١.

(٢٤) تهذيب التهذيب ٧: ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢٥) الاتقان ٤: ٢٠٩.

(٢٦) ميزان الاعتدال ١: ٥

(٢٧) تهذيب التهذيب ١: ٩٣.

(٢٨) رجال النجاشي (ط حجرية): ٧ و١١٠ و١٦١.

(٢٩) سفينة البحار ٢: ٢٠٥. واما الزيارة فقد نقلها السيد امين في اللـواعج: ٢٣٧ ـ ٢٣٨ عن كتـاب بشارة المصطفى لعماد الدين الطبري.

(٣٠) الطبقات ٥: ٧٤ ـ ٧٥ في ترجمة محمـد بن الحنفية. (ط ليدن ١٣٢٢هـ).

(٣١) معجم مصنفات القرآن الكريم ٢: ١٦٢ رقم ٩٩٧.

(٣٢) منتخب ذيل المذيّل: ١٢٨ الملحق بالجزء الثامن من تاريخ الطبري ط القاهرة ١٣٥٨هـ.

(٣٣) هـو ابـو اسحـاق احمـد بن محمـد بن ابـراهيـم النيسابـوري. وقد اعتمده اكـابر المفسريـن امثال الزمخشري والطبـرسي وغيرهما. قـال القمي: كان يتشيّع او لم يكن يتعصّب كما يتعصّب اقرانه. توفي سنة ٤٢٧ او ٤٣٧.

(الكنى والالقاب ٢: ١٣١).

(٣٤) هو ابـو الحسن علي بن احمـد النيسابـوري استاذ عصره وواحد دهـره وكان النظام يكرمـه ويعظّمه. توفي سنة ٤٦٨

(الكنى والالقاب ٣: ٢٧٧).

(٣٥) الاتقان ٤: ٢٠٩.

(٣٦) وفيات الاعيان ٤: ٣٠٩ رقم ٦٢٤.

(٣٧) الطبقات ٦: ٢٤٩ (ط ليدن).

(٣٨) المصدر. وتهذيب التهذيب ٩: ١٨٠.

(٣٩) تهذيب التهذيب ٩: ١٧٨ رقم ٢٦٦.

(٤٠) بماذا يفسّر منكرو الرجعـه قوله تعالى: ﴿واذا وقع القول عليهم أخرجنـا لهم دابةً من الارض تكلمهم انّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون * ويوم نحشر من كـل امّـة فـوجـاً ممن يكـذّب بـآيـاتنـا فهـم يوزعون﴾(النمل: ٨٢).

ما ذاك اليوم الـذي تخرج الدابّة لتكلمهـم ولتلزمهم الحجة، وقد وقع القول عليهم؟! (مجمع البيان ٧: ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

وما ذاك اليوم الذي يحشر من كل امة فوج؟ وقد صرح المفسرون بأنّ «من» هنا للتبعيض (الفخر ٢٤: ٦١٨).

في حين أن يوم الحشر الاكبر هو اليوم الذي يحشر فيه الناس جميعاً ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً﴾ (الكهف: ٤٧).

قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الارض إلاّ من شاء الله * وكل اتوه داخرين﴾ (النمل: ٨٧).

(٤١) هذا كلام من اعمته العصبيّة الجهلاء كيف يستنكر ذلك بشأن آل محمد الطيبّين الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً! أليس الله قد شافى عليّاً عليه السّلام من الرمد يوم خيبر، بريق النبي الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم رواه الفريقان واتفقت عليه كلمة الأئمة الثقات!.. قال ابو نعيم:... فبصق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في عينيه ودعا له فبرا حتى كأن لم يكن به وجع (حلية الاولياء ١: ٦٢رقم). وهذا من فضل الله على عباده المخلصين، يجيب دعاءهم ويجعل الشفاء على يديهم رحمه منه على العباد.

(٤٢) تهذيب التهذيب ٩: ١٧٩ـ ١٨٠.

(٤٣) تهذيب التهذيب ٩: ١٨٠.

(٤٤) في الآية رقم ٤٤ من سورة النحل.

(٤٥) كتاب المجروحين لابن حبّان ٢: ٢٥٥.

(٤٦) معجم مصنفات القرآن الكريم ٢:...

(٤٧) تهذيب التهذيب ١: ٤١٦.

(٤٨) ميزان الاعتدال ١: ٢٩٦.

(٤٩) تهذيب التهذيب ١: ٤١٧.

(٥٠) الطبقات ٦: ٢٠٧ (ط ليدن).

(٥١) تهذيب التهذيب ٩: ٤٣٦ رقم ٧١٩.

(٥٢) كتاب الضعفاء للبخاري: ١٠٥ رقم ٣٤٠.

(٥٣) كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي: ٩٤ رقم ٥٣٨.

(٥٤) المناقب ٤: ٦١١.

(٥٥) رجال الطوسي: ١٣٥ رقم ٤.

(٥٦) رجال الكشي: ١٨٤ رقم ٨٨

في رحاب التفسير (١)
من عصر النزول الى عصر التابعين

د. سيد محمد باقر حجتي
تعريب: عبد الرحيم مبارك

مقـدّمة: قبـل البدء فـي المقالـة الأصليةنجـد لـزامـاً أن نمهّـد بمطالعة في المسـائل الثالية:

أ ـ القـاء الضـوء على اصطـلاحـات الترجمة، التفسير والتأويل.

ب ـ ايضـاح الفـرق بيـن التفسيـر والتأويل.

ج ـ بيـان بـدايـات استعمـال هـذه الاصطلاحات في القرآن والحديث.

الترجمة:

عـدّ جمع من واضعـي الاصطلاحـات وكتّـاب الأدب هذه الكلمـه غير عـربيـة، في حين عدّهـا آخرون كلمة عربيـة وذكروا لها معاني ومفـاهيم متعددّة مثل: ذكـر، سيرة، واخـلاق، ونسب الاشخـاص (تـرجمـة الأحـوال)، شرح وبيـان أمر معيّن، عنـوان الرسائل والمكاتبات ونقل الكلام من لغة الى اخرى. وقـد ذكروا لكلمة (الترجمـة) معاني اخرى أيضـا [١]، لكنّ المعنى الأول والاخيـر يعدّان من المعاني اللغوية المشهورة.

وقد اختلفـت وجهات نظر العلمـاء في جواز ترجمة القرآن من العـربية الى سواها، فمن بين محرّم لذلك ومجوّز، وكتب كلاهما رسـائل ومقالات في هذه المسـألة[٢].

وقد نـاقش المحققون المسلمـون في كتبهم مسـألة جـواز الترجمـة وأفردوا لهـا فصولاً خاصـة، ونشيـر فيمايلي باختصار الى قسـم من أدلّة التحريم ومن ثمّ أدلّة جواز ترجمة القرآن.

إن القائلين بعدم جـواز الترجمة يرون انّ الترجمة من شأنها تثبيط الناس عن تعلّم العـربيـة التي تعـدّ أحـد عوامـل التكـاتف والاتحاد بين المسلمين، كما أنّ البعض من

معانـي ومفاهيم القـرآن تمتـاز بـالعمـق والشمـول فـي نفس الـوقـت الـذي تمتـاز بـالغمـوض والابهـام، حيث انّ ايّ تـرجمـة ستكون قاصرة وعـاجزة عن نقل وأداء هذه المعانـي والمفاهيم، يضـاف الى ذلك ان أيّ ترجمة لـن يكون بامكانها استبطـان نواحي الإعجـاز اللفظـي والمعنـوي للقـرآن، وفـي النتيجـة فـان تـرجمـة القـرآن ستحطّ مـن اسلـوبـه البـلاغي وستتجـرّد مـن عنصـر الاعجاز كما هو الحال في التعبيرات القرآنية المتفرّدة، يُضاف الى ذلك انّ تـرجمة القرآن تعدّ نوعاً من الجـرأة والجسارة لم يُقدم على مثلهـا أحد مـن الصحابـة ومسلمي صـدر الاسـلام.

انّ للمـدافعين عـن وجهة النظـر هـذه (عدم جواز ترجمـة القرآن) دلائل اخرى في هذا المجـال، وقد ألّفوا وكتبوا كثيـراً في هذا المـوضـوع، لكنّ هـذه الـدلائل لا يمكـن أن تضعف القنـاعـة بجـواز تـرجمـة القـرآن، فالدعـوة الاسلامية دعوه عامّـة وعالمية[٣] وقد بُعث نبـيّ الاسـلام صلّى الله عليـه وآلـه وسلّم وقرآنه لارشـاد كافّـة الأمم والأقوام وهدايتها والتي لهـا لغاتها المختلفـة، ولابدّ ـــ وصولاً الى إطلاع و إنهام العالَم محتوى القرآن ـ ان يُترجم القرآن الى اللغات العالميّة المختلفة.

إن تعلّم العربيّة لجميع سكاّن العالم لم يكن، وليس بالأمر السهـل الميسور اضافة الى أنّ تعليـم العـربيّة ليـس هدفـاً بنفسـه للاسلام، بل ان فهم القـرآن وتطبيق قوانينه هو ما يهدف إليه الشارع المقدّس.

ونتسـاءل هنا: هل انّ تـرجمة القـرآن تمثّـل شيئـاً غيـر شـرح لغتـه و بيـان اصطلاحـاته وتعبيراته؟ ألا يجـري الشرح والبيان في أمر تفسير القـرآن ـ مهما كانت اللغة المستعملة فيه ـ بكلام غير الهي؟ وهل ان الترجمة والتفسير يختلفان في هذا الأمر الأخير؟.

سيدلّك جواب هذه الأسئلة أن لا مناص في الترجمة والتفسير كليهما من بيان الكلام الالهي وشرحه ببيان بشريّ، وإذا كان دليل عدم جواز ترجمة القـرآن هو فقدان وتداعي إعجاز القـرآن واسلوبه البلاغـي، فإن الأمر ينطبق أيضـاً على التفسير ـ بأيّ لغة كانت ـ وسيكون التفسير غير جـائز وغير مسموح بـه، في حيـن ان أيّ محقّق مسلـم لم يـدّعِ حرمة تفسير القرآن!.

لـذا فإنّ الدلائل التـي أقامهـا مؤيّـدو تحريم تـرجمة القرآن تعـدّ واهيةً مرفـوضة أمـام الاتّجـاه الآخر الـذي دعـا إليـه بعض المحققين المسلمين وألّفوا رسائل وكتباً في جواز تـرجمة القرآن، وبـالطبع فإن تـرجمة القرآن لها شرائطها التي إنْ اهملت مراعاتها

في أمر نقل محتوى القرآن الى لغة اخرى أو بنفس لغته فإن الترجمة ستكون غير جائزة ومحرّمة(٤).

التفسير:

لم يعدّ المستشرق المعروف (بلاشير) كلمة (التفسير) اصطلاحاً أصيلاً في اللّغة العربية، بل عدّها كلمة شبيهة بكلمات (تلميذ، قيوّم، قراءة، دجّال، وزنديق) تمثل لغة دخيلة وغربية ترجع أصولها الى جذور غير عربيّة(٥).

ويعتبر المفسّرون كلمة (التفسير) تعود الى أصل (فسر) حيث انها في الاشتقاق تعود الى كلمة (سفر) ومقلوبها، والاثنان بمعنى كشف وإزاحة الستار والغطاء، مع فارق أنّ (فسر) تستعمل في الكشف الباطني والمعنوي في حين تستعمل (سفر) في الكشف الظاهري والمادّي.

وقد كتب أبو الفتوح الرازي في هذا المجال انّ أبا الحمد الخازنجي قال: هذه الكلمة هي مقلوب سفر كجذب وجبذ، وأصل السفر كان الكشف أيضاً، و(سفرت المرأة) أي أبرزت وجهها، و(أسفر الصبح) إذا اضاء نوره.

وقال ابن دريد: أصل الكلمة من (التفسرة) وهو ماء المريض الذي يُعرض على الطبيب ليتفحّصه لتشخيص المرض، فكما يكشف الطبيب بنظره الى الماء عن حال المريض، فانّ المفسّر يكشف عن شأن الآية وقصّتها ومعناها وسبب نزولها(٦).

بدايات استعمال كلمة التفسير في القرآن والحديث:

لدينا مورد واحد في القرآن الكريم استعملت فيه هذه الكلمة بمعنى الشرح والتفصيل: **﴿ولا ياتونك بمثَلٍ الاّ جئناك بالحقّ وأحسن تفسيراً﴾**(٧)، وامّا كلمة (سفر) ومشتقّاتها فقد استعملت في أحد عشر مورداً في القرآن(٨) اكثرها لا يخصّ موضوع بحثنا.

امّا في الاحاديث النبويّة والامامية فنواجه كلمة (التفسير) أو مشتقّاتها كثيراً، ونذكر ـ كمثال لذلك ـ عدّة أحاديث:

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: من فسرّ القرآن برأيه، إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فليتبوّأ مقعده من النار(٩).

وقال أمير المؤمنين عليه السّلام: إيّاك أن تفسرّ القرآن برأيك حتى تفقهه من العلماء(١٠).

وروي عن الصادق عليه السّلام: من

فسرّ القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر، وإن أخطأ كان اثمه عليه[11].

ولكي يتّضح المعنى الاصطلاحي لكلمة (تفسير) يجب الانتباه الى انّ هذه الكلمة كانت على مرّ تاريخ العلوم الاسلامية تمتلك معنىً خاصّاً في مجال العلوم العقلية والنظرية والعلوم التجريبية أحياناً، وقد استعملت غالباً بمعنى شرح وبيان الكتب العلمية والفلسفيّة أو الطبيّة أو بيان الترجمات العربية لكتب أرسطو والفلاسفة الآخرين، فكانوا ـ مثلاً ـ يقولون (تفسير طيماوس لإفلاطون)، وهذا الكتاب معروف بـ(تفسير التفسير)[12]، و(تفسير أربع مقالات بطليموس) لعليّ بن رضوان في علم النجوم، و(تفسير التحرير) للنظام النيشابوري وهو شرح على تحرير المجسطي، و(تفسير حيّ بن يقظان) عن ابن زيلا وغيرها، لكنّ هذه الكلمة تستعمل في العلوم النقليّة بشكل محدود في الشرح والكشف عن معاني القرآن وبيان لغاته وتعبيراته.

التأويل: يلاحظ مقابل كلمة (التفسير) اصطلاح آخر في القرآن والحديث يمتلك معنىً مشابهاً للتفسير وهو مصطلح (التأويل)، وهذه الكلمة مشتقّة من مادة (أول) بمعنى التدبير والتفسير والتقدير والإرجاع وتعبير الرؤيا.

وإذا ما أخذت كلمة (التأويل) من كلمة (أول) بمعنى الرجوع، فإنّ المؤوّل في تأويل القرآن يفسرّه بشكل كأنّه يعيده الى أحد معانيه المحتملة.

وسنوضّح، ضمن بيان التفاوت بين التفسير والتأويل، المعاني اللغوية الاخرى لكلمة التأويل.

وترد كلمة التأويل في القرآن والحديث أحياناً بمعنى التفسير، واحياناً بمعانٍ اخرى، ففي آية ﴿... **وما يعلم تاويله إلاّ الله والراسخون في العلم...**﴾[13] يعدّ التفسير أحد معاني التأويل، كما انّ لها نفس هذا المعنى في حديث «اللّهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل»[14].

ويمكن القول بخصوص المعنى الاصطلاحي لكلمة (التأويل) انّ لها عند قدماء المفسرّين معنييْن، أحدهما المعنى اللغوي حيث يرادف التأويل في هذه الحالة التفسير، وقد كان المفسرّان الكبيران المسلمان مجاهد والطبري على هذا الرأي.

والآخر هو المراد الأصلي من الكلام، فإذا كان الكلام بصورة الأمر مثلاً فتأويله عبارة عن فعل نفس المطلوب، أو إذا قيل (طلعت الشمس) فإنّ تأويله هو نفس طلوع الشمس، وفي رأي ابن يتمية فإنّ كلمة

(التأويل) الموجودة في القرآن تعود الى هذا المعنى.

امّا عند المتأخرين ـ بما فيهم الفقهاء والمتكلّمين والمحدّثين وحتّى المتصوّفة ـ فالتأويل عندهم عبارة عن صرف اللفظ من المعنى الراجح الى المعنى المرجوح مشروطاً بوجود شواهد ودلائل تؤيّد هذا الصرف والارجاع، وعلى هذا فالتأويل يستلزم شرطين:

الأول: ان يثبت انّ اللّفظ يستبطن المعنى المرجوح والمعنى المقصود.

الثاني: انّ هناك دليلاً وشاهداً يؤيد صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح؛ وقد جاء في (جمع الجوامع) انّ التأويل هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإذا اقترن هذا الحمل بالدليل فالتأويل صحيح، وإذا كان الحمل على أساس الحدس والظن فسيكون التأويل فاسداً غير صحيح، إمّا إذا لم يقترن الحمل بأيّ منهما فسيكون لهواً وعبثاً[١٥].

الفرق بين التفسير والتاويل:

بالرغم من انّنا قد عرضنا بأجمال للفرق بين التفسير والتأويل فيما سبق، إلاّ ان عرض آراء اخرى سيعمّق الاطّلاع في هذا المجال.

يقول أبو عبيدة معمر بن المثنّى: إنّ هذين الاصطلاحين يمتلكان نفس المعنى، وكما شاهدنا فإن بعض المحقّقين على هذا الرأي، غير انّ حبيب النيشابوري لا يتفق مع هذا الرأي بل هو يرىٰ: انّ هناك في زماننا مفسرين إن سُئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل عمي عليهم ذلك!.

وقد كتب الراغب الاصفهاني في الفرق بين التفسير والتأويل انّ التفسير أعمّ من التأويل، ويستعمل غالباً فيما يختصّ بشرح الألفاظ ومفردات القرآن، في حين أنّ التأويل يستعمل في الغالب في شأن معاني الجمل والتعبيرات، كذلك فإنّه يغلب استعمال (التأويل) في الكتب الالهية، في حين يستعمل التفسير في الكتب الالهية وغيرها على حدّ سواء.

ويعتقد عدّة من المحقّقين انّ التفسير عبارة عن الشرح والبيان اللفظي الذي يحتمل وجهاً واحداً فقط، في حين انّ التأويل توجيه لفظي يحتمل وجوهاً ومعاني مختلفة، والمؤول يصرف اللفظ بالاستفادة والاستعانة من الشواهد والقرائن، ويحمله على أحد تلك الوجوه.

يقول (ماتريدي) ان التفسير عبارة عن القطع واليقين بالنسبة الى مراد اللفظ ومدلوله، والمفسرّ يُشهد الله على رأيه

واظهار نظره، وفي هـذه الحالـة حين يعلم المفسـرّ دليلاً قطعيـاً ويورده فإنّ تفسيـره سيكون جـائزاً وصحيحاً، اما في غيـر هذه الحالـة فالتفسيـر سيكون تفسيـراً بالـرأي الذي قد نُهي عنه؛ والتأويل عبارة عن ترجيح أحـد المعـانـي المحتملـة والـذي لا يقطـع المؤوّل به ولا يمكنـه أن يُشهد الله على رأيه واظهار نظره.

ويعتقد (أبو طالب الثعلبي) انّ التفسير هو بيان المعنـى الحقيقي أو المجازي، ومن ثمّ فهـو بيان المعنى الظـاهري للّفـظ، مثل تفسيـر (الصـراط) بـالطـريـق، وتفسيـر (صَسيّب) بـالمطر، لكنّ التـأويل هو شـرح لباطن اللفظ، فالتأويل إذن عبارة عن الإخبار بحقيقة المراد المقصود من اللفظ، والتفسير اخبار عـن الدليل المـراد، لأن اللفظ كـاشف عن المراد والمقصـود، والكاشف هـو نفسه الدليل.

هذه المطالب هي انمـوذج للاختلافات التي أوردهـا السيوطي في كتـابه نقـلاً عن المحققّين المسلمين، ويجدر بالذكر ان هناك آراءً اخـرى حـول الفـرق بين التفسيـر والتأويل أعرضنا عن ذكرها وإيرادها رعاية للاختصار[١٦]، إلاّ اننا رأينا ان مـن المناسب ايـراد بيان أبـي الفتوح الـرازي فـي نهايـة موضوع الفرق بيـن التفسير والتأويل، فقد كتب يقول:

امّـا التأويل فهـو صـرف الآية الـذي يُحتمل أن يـوافق الأدلّة، وأصلـه من (أول) وهو الرجوع، وقالوا: أصله من (إيالة) وهي السياسة، يقول العرب: (النا وايل علينا) أي سسنا وسـاسنا غيـرُنا[١٧]، فمـؤوّل الآيـة سـائسها والعـالمُ بهـا يضعهـا موضعهـا، والفـرق بيـن التفسيـر والتـأويـل هـو انّ التفسير علم بسبب نزول الآية والعلم بمراد الله تعالـى من ذلك اللّفظ، وتعاطيـه لا يمكن إلاّ بالسماع والآثار، امّا التأويل فالعالم بلغة العرب والمتقن لعلم الاصول هو الذي يحمل الآية على محتمـلات اللغة لانه لـن يمكنه أن يقطع بـالأصـول وخـاصة عنـد الاحتمـال والتـرديد ولن يمكنـه أن يقطع بمـراد الله إلاّ بدليل.

بـدايـة ظهور التفسيـر أو المفسـر الأول للقرآن:

إنّ الاهتمام الذي أبداه المسلمون لفهم معاني القـرآن من صدر الاسـلام الى اليوم هـو العـامل الأسـاس والبـاعـث المستمـر لاتّساع التحقيقات والـدراسات المعمّقة في مجال البحـوث القرآنية. وخاصـة في مجال التفسيـر، حيث أُلّفت كتب جمّـة في العلـوم القرآنيه والتفسير تستحـقّ الاهتمام والدقة

والمطالعة.

لقد طوى تفسير القرآن عبر القرون الاسلامية الأربعة عشر مراحل وأساليب مختلفة، بدأت بصورة بسيطة وغير معمّقة، وتدرّجت وصولاً الى مراحل التكامل وامتلاك قواعد وضوابط كعلم بين سائر العلوم الاسلامية احتلّ موقعاً رفيعاً سامياً وامتلك مباني واصولاً عميقة ومعقّدة ومتفرّعة وواسعة في نفس الوقت.

وإذا ما شئنا ان نناقش المراحل والأساليب المختلفة للتفسير خلال القرون الماضية فنحن مجبرون ـ كمرحلة أولى ـ ان نبدأ بموضوع نشوء التفسير والتعرّف على المفسّر الأول للقرآن.

لقد كان القرآن الكريم يفسرّ في عصر الرسول الاكرمصلّى الله عليه وآله وسلّم بصورة بسيطة تضعه في متناول فهم عامّة الناس، لكنّ تعابيرَ وألفاظاً معقّدة ومبُهمة كانت ترد في بعض الآيات يستعصي فهم معانيها ومقاصدها حتى على المتمرّسين والمتضلّعين بالعربية، مما ولّد لديهم القناعة ان تعابير كهذه بحاجة الى شرح وتفسير وتوضيح؛ ومع انّ ابن خلدون قد ذكر انّه نظراً لأنّ القرآن قد نزل بلسان عربي وكان نسيجه واسلوب بلاغته بهذه اللّغة، فقد كان العرب زمن النبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم يدركون معانيه في قالب الاصطلاحات المنفردة وتركيبات الجمل[١٩]، لكنّ هذا المفكرّ يذكر بعد هذا القول انّ رسول اللهصلّى الله عليه وآله وسلّم كان يبيّن ويفسرّ المطالب المجملة والمعقّدة للقرآن ويُبيّن ناسخه ومنسوخه[٢٠].

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار هذه الملاحظات وما أوردنا قريباً من الشواهد التاريخية والأحاديث، فالمفسّر والشارح الاول للقرآن كان شخص النبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم، إذ كان صحابته ومعاصروه يقصدونهصلّى الله عليه وآله وسلّم كلّما واجهوا مشكلة في فهم الآيات القرآنية فيفسّرها لهم، كما قد ورد في بعض آيات القرآن ذكر النبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم بعنوان المبيّن والمفسّر: **﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزِّل اليهم ولعلّهم يتفكّرون﴾**[٢١].

لا شك لدى المفسرين والمختصين بعلوم القرآن في انّ نبيّ الاسلامصلّى الله عليه وآله وسلّم كان المفسّر الاول للقرآن، وقد ذكروا ـ لتأييد ذلك ـ القرائن والأدلّة الكثيرة:

فقد أثبت السيوطي في خاتمة كتاب (الاتقان) عدداً غير قليل من الآيات القرآنية التي فُسّرت من قبل الرسولصلّى الله عليه وآله وسلّم، مع شرح وبيان النبيّصلّى الله عليه وآله .

وسلّم نفسه بشأنها.

والكثير من هذه الآيات المفسّرة ابتداءً من سورة البقرة الى آخر القرآن كانت ـ كما يقول السيوطي ـ عن طريق الروايات التي تنسبها صراحة الى نبي الاسلام صلّى الله عليه وآله وسلّم، وهذه الروايات هي غير الروايات المنقولة عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم بشأن نزول الآيات[٢٢].

وربّما يمكن القول ان هذا القسم من كتاب السيوطي ـ على فرض صحّة الروايات ـ يعدّ أقدم مصادر تفسير القرآن، ونورد هنا نماذج من التفسير للآيات منسوب الى رسوله الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

لمّا نزلت هذه الآية **﴿الذين آمنوا ولم يُلبسوا إيمانهم بظلمٍ اولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾**[٢٣] شقّ ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، وأيّنا لا يظلم نفسه! قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: انّه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: **﴿انّ الشرك لظلم عظيم﴾**[٢٤]! انّما هو الشرك.

وقد كتب أبو الفتوح الرازي في ذيل تفسير الآية المذكورة: ورفع عبد الله بن مسعود هذا الحديث الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: لمّا نزلت هذه الآية خاف المسلمون وقالوا: يا رسول الله وأيّنا لا يظلم نفسه؟ فقد رُفع منّا الأمان. قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: انّه ليس الذي تعنون، انّما هو الكفر ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ـ يعني لقمان ـ **﴿يا بنيَّ لا تُشرك بالله إنّ الشركَ لَظلمٌ عظيم﴾**[٢٥].

ويستفاد من هذا الحديث وأمثاله انّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قد وضع ـ عملياً ـ أساس تفسير الآية بالآية وعلّم ذلك، وبعض الروايات أيضاً مختصة بهذا الاسلوب في تفسير القرآن.

وقد نقل عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم انّه فسّر (المغضوب عليهم) في سورة الفاتحة باليهود و(الضالّين) بالنصارى[٢٦]. ويذكر الرازي أيضاً في هذا الشأن انّ عبد الله بن شقيق روى عن بعض أصحابه انه قال انّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يقاتل اليهود في وادي القرى فقال رجلٌ من أهل اليقين: من هؤلاء الذين يقاتلونك؟ قال: المغضوب عليهم، قال: والآخرون من هم؟ [وأشار الى النصارى] فقال: هم الضالّون، وهو ما يوافق الآيتين التي نزلت في حقّ اليهود والنصارى[٢٧].

وهاتان الروايتان نموذج لعشرات الأحاديث المنسوبة الى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، فسّر صلّى الله عليه وآله وسلّم من خلالها الكثير من الآيات القرآنية.

تفسير الصحابة للقرآن

قبل الكلام حول الصحابة وتفسيرهم يلزم ان نناقش ـ باجمال ـ العوامل التي أدّت الى اختلاف نظرهم في التفسير:

فعلى الرغم من ان اسلوب التفسير النقلي والأثري كان هو المتّبع في زمن الصحابة والتابعين، إلّا انّهم لم يكونوا في مستوىً واحد بسبب اختلاف شرائطهم ولهجاتهم وتفاوت مستوياتهم العقلية وأفق تفكيرهم وكذلك بلحاظ تذوّق ودرك غرائب القرآن ومتشابهاته وفهم مقاصد آياته، وكان بعض الصحابة يفوق الآخرين في هذا المجال؛.

وكما ذكر الآلوسي ـ بياناً لهذه النكتة ـ انّ الصحابة مع امتلاكهم موقعاً متميّزاً ورفيعاً في الفصاحة والبيان ودرك مفاهيم القرآن ـ ببركة صحبتهم للنبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ إلّا انّهم كانوا يستمدّون العون من بيان الرسولصلّى الله عليه وآله وسلّم فيما يستعصي فهمه على مداركهم من آيات القرآن كما في آية ﴿حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾[٢٨]، حيث وقع ذلك مع عديّ بن حاتم وقد تعلّم تفسيرها من النبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم[٢٩].

روي عن أنس بن مالك انّ عمر قرأ على المنبر آية ﴿وفاكهة وأبّاً﴾[٣٠] وقال: هذا كلّه عرفناه فما الأبّ؟ ثم قال لنفسه:

هذا لعمر الله التكلّف[٣١]؛.

وقد ذكروا انه كان على المنبر فقرأ ﴿أو يأخذهم على تخوّف﴾[٣٢]، فسأل عن معنى (التخوّف) فسكتوا، فقال له رجل من هذيل:

التخوّف عندنا التنقّص، وأنشد شعر أبي كبير الهذلي:

تخوّف الرحل منها تامكاً قرداً

كما تخوّف عود النبعة السفن[٣٣].

وذكروا عن ابن عباس انّه كان يقول: كنتُ لا أدري ما ﴿فاطر السماوات﴾ حتى أتاني أعرابيان في بئر، فقال أحدهما (أنا فطرتها)، يقول أنا ابتدأتها[٣٤]. وفي النتيجة فقد فهم ابن عباس معنى ﴿فاطر السماوات﴾!.

حين يُظهر عمر الذي يعدّه أهل السنّة من مشاهير مفسّري عصر الصحابة عجزه عن فهم معنى ومقصود آية بهذا الشكل، وحين يظهر ابن عباس ـ الذي يعترف الفريقان بعمق اطّلاعه في التفسير ـ عدم اطّلاعه هكذا بحيث يستعين بأعرابي بدويّ في فهم معنى لغة القرآن، فاننا سندرك حقيقة ان المسلمين الاوائل كانوا محتاجين

للتفسير لفهم معاني القرآن، كذلك فان وجود الاختلافات بين الصحابة في فهم القرآن كان يجعل أياً منهم يفيد من الآيات بمستوى فهمه واطلاعه واستعداده، فالبعض كان يمتلك اطلاعاً واسعاً باللغة العربية في حين كان البعض يفتقر الى ذلك، والبعض كان ملازماً في صحبته للرسول أكثر من البعض الآخر، اضافة الى اختلاف نفس الصحابة في الاستعداد العقلي ومستوى الاطلاع.

لقد نال جماعة من الصحابة شهرة كبيرة في تفسير القرآن في زمن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وبعده، ويمكن أن نورد أسماءهم طبق آراء الفريقين:

١ ـ أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السّلام (م ٤٠هـ):

ذكر معظم محققي أهل السنة الخلفاء الراشدين ضمن المفسّرين المعروفين لعصر الصحابة، وذكروا انّ عليّ بن ابي طالب كان له من بينهم الحظّ الاوفر في الأحاديث والروايات التي نقلت عنه في التفسير، في حين ان الاحاديث المرتبطة بتفسير القرآن المنقولة عن باقي الخلفاء نزرة جداً، واستدلّوا لهذه المسألة بكون الخلفاء الباقين قد رحلوا عن الدنيا قبل عليّ عليه السّلام[٣٥].

يقول السيوطي: لا أحفظ عن أبي بكر في التفسير إلاّ آثاراً قليلة جداً لا تكاد تجاوز العشرة، لكنّه حين يتحدّث عن أمير المؤمنين عليه السّلام يقول: أمّا عليّ فرُويَ عنه الكثير، وكذلك حين يذكر الخلفاء يقول عنهم: (أمّا الخلفاء فأكثر من روي عنه عليّ بن أبي طالب)[٣٦].

وطبقاً للقرائن والشواهد التاريخية والوثائق الاسلامية القديمة ينبغي القول انّ المفسّر الأوّل للقرآن بعد النبيّ الاكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم والذي نقُلت عنه روايات كثيرة جداً في تفسير القرآن هو عليّ بن أبي طالب عليه السّلام؛ ونجد أحد محقّقي أهل السنة في القرن السادس يقول:

انّ جماعات كثيرة من الاوائل قد فسّروا القرآن، لكن صدر المفسّرين الذي كان تفسيره مورد تأييد جميع الصحابة كان عليّ بن أبي طالب عليه السّلام، وبعده ابن عباس الذي صرف عُمراً في تفسير القرآن وايصاله الى الكمال[٣٧].

انّ علم عليّ بن ابي طالب عليه السّلام العميق بتفسير القرآن، واطلاعه التام في هذا المجال كان مورد تأييد كبار رجال التفسير في عصر الصحابة، فقد اخرج الحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) عن ابن مسعود قال: انّ القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلاّ وله ظهر وبطن وانّ

عليّ بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن(٣٨).

وحتى اننا نجد في حديث آخر نقل من طرق أهل السنة وكذا من طريق الشيعة انّ علياً عليه السّلام قال:

والله ما نزلت آية إلاّ وقد علمتُ فيم أُنزلت وأين أنزلت، انّ ربّي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً(٣٩).

وقد كانت أعلمية علي عليه السّلام مورد تأييد واعتراف مفسري عصر التابعين الكبار، فحين يُسأل عطاء بن أبي رباح: أكان في أصحاب محمدصلّى الله عليه وآله وسلّم أعلم من عليّ عليه السّلام؟ يجيب: لا والله لا أعلمه(٤٠).

لذا فحين كان يتبيّن لهم رأيُ عليّ عليه السّلام في تفسير القرآن أو في مسائل الدين والدنيا كانوا لا يعدلون عنه أبداً ولا يستبدلون به غيره.

يقول سعيد بن جبير ـ وهو نفسه أحد مفسّري عصر التابعين المعروفين ـ: إذا ثبت لنا الشيء عن عليّ لم نعدل عنه الى غيره(٤١).

لقد كانت أعلمية عليّ عليه السّلام بأسباب النزول وتفسير القرآن وتأويله والمسائل والمواضيع الاخرى محرزة ومسلّمة عند الفريقين(٤٢) لذا لُقّب عليه السّلام بـ(كلام الله الناطق).

ويجب ان نضيف هنا أنّ أهم مصادر تفسير ابن عباس هو التفسير الذي أخذه عن عليّ عليه السّلام، وكما سنذكر فيما بعد ضمن كلام لابن عباس، فالآراء التفسيرية لعليّ عليه السّلام مبثوثة في أرجاء تفسير ابن عباس(٤٣).

٢ ـ عبد الله بن عباس (م ٦٨هـ):

ذكره المؤرخون والمحقّقون المسلمون كأحد صحابة واتباع رسول اللهصلّى الله عليه وآله وسلّم بالرغم من صغر سنّه عند وفاة النبيّ الاكرمصلّى الله عليه وآله وسلّم(٤٤)، وذكروا انّه كان، منذ طفولته، ملازماً لرسول اللهصلّى الله عليه وآله وسلّم يشهد عن قرب اسراراً من مسائل النبوّة والرسالة، أدركها ووقف عليها(٤٥) ويقيناً فان هذا العامل كان له الأثر الكبير في نبوغ ابن عباس في ميدان التفسير.

وعلاوه على ذلك فابن عباس كان من خواص تلامذة امير المؤمنين علي عليه السّلام المبرزين(٤٦)، حيث تلقّى معارف التفسير عنه، وقد نصّ ابن عباس مراراً على هذه الحقيقة وبتعابير مختلفة، وهو القائل:

ما أخـذتُ من تفسير القـرآن فعن عليّ بن ابي طالب[٤٧]، وكذا كان يقول: قد وعيت كل ما قـال [عليّ عليه السّلام] ثمّ تفكّرت فإذا علمي بالقرآن في علم عليّ عليه السّلام كالقرارة في المتفجر[٤٨]، أي كالغدير في البحر.

لقد كـان لابن عباس شهره كبيـرة في علـوم ومعارف زمـانه، خصـوصاً في أمـر التفسيـر، وكـان مـرجعاً أميناً ومـوثـوقـاً لمسلمي زمانه في المسائل العلمية وخاصة في تفسير القرآن[٤٩] لذا فقد امتدح تفسيره وأيّده جماعـة من الصحابة والتـابعين، وقد ذكـر علـيّ عليه السّـلام تفسيـر ابـن عبـاس باحترام خاص ورغّـب الناس لتعلّم التفسير عنه، وكان عليه السّلام يقول عنـه: (ابن عباس كأنمّا ينظر الى الغيب من ستر رقيق)[٥٠].

وقد أشار كلّ من ابن مسعود، طاووس اليمـاني، عبد الله بـن عمر، مجـاهد وسـائر المفسريـن الآخرين الى الشخصيـة العلمية لابن عباس وعظمة مقامه في التفسير[٥١].

عوامـل بناء الشخصية التفسيـرية لابن عباس

لقد تهيّأت الاسباب والعوامل الايجابية لابن عبـاس فـي تفسيـر القـرآن بشكل لـم تتوفر معه لايّ من صحـابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عدا عليّ عليه السّلام ـ، إذ كان ابن عباس ـ كما قلنـا ـ ملازماً للنبيّ صلّى الله عليه وآلـه وسلّم ومن خـواصّ تـلامذة صـدر المفسرين عليّ بن ابي طالب عليه السّلام، وقد صـرف أكثـر حيـاتـه في التعليـم والتعلّم، ويجب ان لا ننسى انّ لاحاطته باللغة والأدب العربـي الأثر البالغ فـي تكوين هـذا النبوغ وتطويره، وكانت ثروته التفسيرية مستلهمة من هذه الأوضاع، وكانت آراؤه في التفسير ـ لهـذا السبـب ـــ مقـدّمـة على آراء بـاقـي الصحابة[٥٢].

انّ أهمية تفسير ابـن عباس تتمثل في انّه كان المرتكز الـذي استندت عليه مدرسة التفسيـر في نشـوئها، وقـد ظهـرت هـذه المدرسـة باديء الأمر في مكّـة ثم انتشرت في أكثـر البلاد الاسـلاميـة، لذا يقـول ابن تيمية: وامّـا التفسير فـأعلم الناس بـه أهل مكّـة، لأنّهم أصحـاب ابن عبـاس كمجاهـد وعطـاء بن أبي ربـاح وعكرمـة (مولـى ابن عباس) وغيرهم[٥٣].

وقد اشتهر ابن عبـاس ـ لهذه الأمور ـ على مـرّ تاريـخ التفسير بـألقاب وعنـاوين علميـة خـاصة مثـل: ترجمـان القـرآن[٥٤]، فارس القـرآن[٥٥]، حبـر الأمّـة[٥٦]، بحـر الأمّة[٥٧]، رئيـس المفسّـريـن[٥٨]، شيـخ

المفسرين[٥٩] والأب الأول لتفسير القرآن[٦٠].

لقد كان اتّساع وتنوّع معارف ابن عباس بنفسه موضوعاً آثار نقاش المحقّقين، وقد ذكروا انّ أصحاب الشعر والفقه كانوا يحضرون درسه وكان ابن عباس يفيدهم ويفتح عليهم بمواضيع ومنابع شتّى[٦١]، وذكروا كذلك انّه كان يفيض دروسه وفق برنامج اسبوعيّ خاص حيث كان يدرّس الفقه، التأويل، التفسير، المغازي، الشعر وأيام العرب بالترتيب في أيّام معينة[٦٢].

انّ مصادر ابن عباس التفسيرية ـ بشكل كلّي ـ كانت من مشاهداته الحيّة ومعايشته للحوادث والوقائع الاسلامية المعاصرة للرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ونتيجة لهذا فقد كانت مواطن وأسباب نزول الآيات مشخّصة لديه ـ وكذا من معارف أمير المؤمنين عليه السّلام التفسيرية واطلاعه على الشعر العربي واعراب البادية. وقد عدّ بعض المستشرقين والمحققين المسلمين المتأخّرين أهل الكتاب كواحد من المصادر التفسيريه لابن عباس[٦٣].

ولقد جرى نقل الروايات التفسيرية لابن عباس بطرق مختلفة كان بعضها من وجهه نظر المحققين مخدوشاً لا يبعث على الاطمئنان، وكذلك هناك آثار تفسيرية متعدّدة منسوبة لابن عباس جرى مناقشتها جميعاً وتحقيق طرقها إضافة الى بحث المصادر التفسيرية عنده بشكل كامل ووافٍ في مقالة الكاتب تحت عنوان (تحقيق حول ابن عباس ومقامه في التفسير)[٦٤].

٣ ـ عبد الله بن مسعود (م ٣٢هـ):

وهو المفسّر التالي لابن عباس من جهة كثرة أحاديث التفسير المنقولة عنه، ويمتلك مقاماً شامخاً في تفسير القرآن حيث يعدّه المحققّون أحد الكبار الاثني عشر المعروفين بولاية أهل بيت النبيّ عليهم السّلام وحبّهم في عصر الصحابة[٦٥].

ولقد كان ابن مسعود مورد عناية رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لحفظه القرآن بدقّة وتلاوته الرائعة للقرآن، التي كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يحب سماعه[٦٦]، وكان علم ابن مسعود بالقراءآت وتفسير القرآن وعمق وسعة اطّلاعه في هذه المجالات مورد قبول المحققين والمفسّرين المسلمين، روي عن مسروق ان العلوم والمعارف الاسلامية بين الصحابة انتهت

الى ستة نفر: عمر، علي، عبد الله بن مسعود، أبيّ بن كعب، أبي الدرداء وزيد بن ثابت، وعلم هؤلاء ينتهي الى عليّ عليه السّلام وعبد الله بن مسعود[٦٧]. وقد نقل عن البختري انّه قال: سُئل عليّ عليه السّلام: أعلِمنا بابن مسعود، قال: عَلِمَ القرآن والسنّة ثمّ انتهى، وكفى بذلك علماً[٦٨]. وكان حذيفة يقول: لقد علم المستحفظون من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم انّ عبد الله (بن مسعود) كان من أقربهم وسيلة وأعلمهم بكتاب الله عزّوجلّ[٦٩]، ويتّضح لنا من خلال رواية نقُلت عن ابن مسعود مقدار عناية صحابة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وشغفهم بتعلّم القرآن والعمل بمضامينه، إذ روي عنه انّه قال:

كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ[٧٠].

انّ من جملة التهم التي وجّهها (النظام) المعتزلي لابن مسعود هي انّه كان منكراً للمعوّذتين، أي سورة الفلق وسورة الناس، في حين انّه لم يُرِ أي دليل يبرّر هذه التهمة[٧١]، وربمّا طبقاً لهذا الاتّهام أو لدليل آخر ذكر (جولد زيهر) انّ بين قراءة ابن مسعود وقراءه أبيّ بن كعب اختلافات فاحشة[٧٢]. ويضيف (جولد زيهر):

لقد عرض شيعة بغداد سنة (٣٩٨هـ) (١٠٠٧ أو ١٠٠٨م) قرآناً قالوا انّه مصحف منسوب لعبد الله بن مسعود، حيث جرى إحراقه بأمر أبي حامد الاسفراييني[٧٣]؛ لكن الالتفات الى حقيقة أنّ أهل السنّة من جهتهم يقولون انّ جميع المصاحف قد أحرقت على عهد عثمان ــ حيث ظهر مقارناً لذلك مصحف الامام عليه السّلام، ومن جهة اخرى فالشيعة يعتقدون أنّ مصحف الامام عليه السّلام هو الذي يمكن قبوله والتعويل عليه، فلا يبقى مجال للبحث في مصحف منسوب لعبد الله بن مسعود، ويمكن القول ـ علاوة على ما سبق ــ ان ما جرى كان وليد الخلافات العقائدية والمذهبية وناجماً من منازعاتها ومجادلاتها التي تمخّضت عن مصحف كهذا!.

ان عبد الله بن مسعود يُعدّ واضع أسس المدرسة الكوفية في التفسير لانّ مفسّري الكوفة في عصر التابعين كانوا يستندون على قوله وتفسيره[٧٤].

وقبل انهاء كلامنا عن ابن مسعود يجدر ان نذكر انّه كان يقول: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليتدبّر القرآن(٧٥) وقوله: ففي القرآن علم الأوّلين والآخرين لمن فتحت بصيرته[٧٦]، حيث طبقاً لهاتين الروايتين

يمكن ـ بنظر ابن مسعود ـ نيل علوم الأولين والآخرين عن طريق التدبّر والتفكّر في القرآن؛ وإذا ما صحّت هاتان الروايتان عن ابن مسعود فيجب القول انّ تحصيل ونيل علوم الاوّلين والآخرين لن يكون ميسوراً بالتدبّر في القرآن عن طريق تفسير ظاهر القرآن بل اننا سنجبر ــ للوصول الى هذا الهدف وفي ظلّ التدبّر في القرآن ــ الى تفسير الآيات بالرأي الذي يوافق ضمناً تقريرات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأقواله كي لا يكون في عداد التفسير بالرأي المذموم.

وبتعبير آخر فان نيل علوم الأوّلين والآخرين يستلزم ضمن التدبّر في القرآن الى ان نستلهم باطنه ونستنطقه، ونحن، استناداً الى هذه النكات، نستخلص كيف كان لابن مسعود ـ والآخرين من مؤسسي مدارس التفسير ــ اسلوب ورأي خاصّ في التفسير يميّزه عن الآخرين، على اننا لا ننسى أنّ هذه الاراء والأساليب على اختلافها وتنوّعها ـ حيث كانت في مستوى بسيط وساذج ـ تستمدّ وتستلهم سيرها من بيان وتقرير وتفسير الرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم، وكانت هذه الآراء تظهر احياناً بالالتفات الى باطن الآيات وبالاجتهاد والاستنباط.

وفي الحقيقة فقد كانت هذه التفاسير الأرض البكر والبذور الأولى التي أنبتت الاساليب التفسيرية المختلفة التي قامت وترعرعت اعتماداً على الضوابط والأساليب العلمية والاصولية في تفسير القرآن.

٤ ـ أُبيّ بن كعب (متوفى بين ١٩ـ ٣٢هـ؟)

كان أبيّ أول كاتب للوحي، ويقال انّه كان من جملة الاثني عشر الذين أنكروا على الاوّل خلافته[٧٧] وأرادوا انزاله عن المنبر[٧٨].

وقد ذكروا أنّ لأبيّ بن كعب نسخة كبيرة في التفسير رواها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن انس عن أبي العالية، حيث رواها الأخير عن أبيّ، وقد أورد ابن جرير الطبري والحاكم في المستدرك، وأحمد بن حنبل في المسند فصولاً كبيرة من هذا التفسير[٧٩].

ولأنّ أبيّ بن كعب كان من أحبار اليهود، وكان يمتلك اطّلاعاً بمحتوى وأسرار الكتب القديمة، وكان نفسه كاتباً للوحي حيث كان يسأل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن كلّ آية في القرآن تبدو بنظرة مبهمة وغامضة، لهذا كلّه عُدّ أبيّ من كبار مفسّري الصحابة[٨٠].

وقد أورد ابن عربي في آخر سورة قريش انّ ابيّ بن كعب اعتبر سورتيْ (الفيل) و(لإيلاف قريش) سورةً واحدة[٨١]، وحتى انّه لم يفصل بينهما في مصحفه[٨٢]، وهو ما يطابق رأي الشيعة في هاتين السورتين، فقد روى العياشي عن المفضل عن الصادق عليه السّلام انّه قال: لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلاّ (الضحى) و(ألم نشرح)، و(ألم تر كيف) و(لايلاف قريش). وعن أبي العباس عن أحدهم عليه السّلام قال: ﴿ألم تر كيفَ فعل رَبّك﴾ و(لإيلاف قريش) سورة واحدة. وقال عمرو بن ميمون الأزدي: صلّيت المغرب خلف عمر بن الخطاب، وقرأ في الأولى (والتين) وفي الثانية (ألم تر كيف) و(لإيلاف قريش)[٨٣].

وكان مفسرو عصر التابعين في المدينة يسيرون على نهج أبيّ بن كعب في تفسير القرآن؛ لأنّه حاز شهرة فاقت باقي مفسري الصحابة هناك، اضافة الى انّ روايات كثيرة نسبياً نُقلت عن تفسيره، وفي الواقع يمكن القول بأن ابن كعب مؤسّس وباني مدرسة التفسير في المدينة.

٥ ــ زيد بن ثابت بن الضحّاك الأنصاري (م ٤٥هـ)

كان زيد من كبار الصحابة، وكان كاتباً للوحي يكنّى بـ(أبي خارجة) وكان مقدّماً في المدينة في أمور القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، وهو الذي قام بعد حرب اليمامة بتشجيع من عمر وبأمر أبي بكر بجمع وتدوين القرآن؛ وقد وحّد عثمان الناس على قراءة زيد.

وقد ذكر البعض ان زيداً كان عثمانياً يحرّض الناس على سبّ عليّ بن أبي طالب والانتقاص منه[٨٤].

ينقل (جولد زيهر) عن (الرحلة، طباعة دخويه ص١٠٤): كان الناس على عهد ابن جبير يقدّسون في الحرم المقدّس قرآناً يقال إنّ زيد بن ثابت كتبه بيده[٨٥].

وكان ابن عباس؛ على جلالة قدره وسعة علمه؛ يذهب الى بيت زيد ويقول: يجب قصد العلم إذ العلم لا يقصد أحداً، وحدث مرّةً أن أمسك ابن عباس الركاب لزيد ليركب فمنعه زيد من ذلك، فقال ابن عباس: هكذا أُمرنا أن نعظّم علماءنا، فقبّل زيد يده وقال: هكذا أمرنا أن نعامل أهل بيت نبيّنا.

وحين توفي زيد بن ثابت قال ابو هريرة: لقد مات حبر هذه الأمّة وعالمها، عسى الله أن يقرّ ابن عباس مكانه[٨٦].

ولقد كانت شهرة زيد العلمية تستند الى كتابة الوحي والقراءة، ولم ينقل عنه في التفسير إلا النزر.

٦ ـ جابر بن عبد الله الأنصاري (م ٧٤هـ):

عدّه أبو الخير في طبقات المفسرين من مفسّري الطبقة الأولى[٨٧]، كما عدّه السيوطي من مفسّري عصر الصحابة[٨٨].

وقد شارك جابر الى جنب رسول اللهصلّى الله عليه وآله وسلّم في ثماني عشرة غزوة ثم شارك في حرب صفّين الى جانب انصار أمير المؤمنين عليه السّلام. وكان جابر أحد حفّاظ الحديث والسنن البارزين[٨٩] وقد ورد اسمه في كتب الرجال الشيعية على انّه من كبار الشيعة وثقات المحدّثين[٩٠].

وفي الواقع فقد اكتسب جابر مقامه العلمي المتميّز بين الصحابة بعمله وفق حديث كان ينقله عن النبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم، حيث قالصلّى الله عليه وآله وسلّم: «ساعة من عالم يتّكي على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العالم سبعين عاماً»[٩١].

ميزات تفسير الصحابة

قبل البدء بذكر ميزات تفسير عصر الصحابة ونماذج منه، من المناسب أنّ نذكر ان التفسير ـ كما قلنا سابقاً ـ بدأ بالنبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم نفسه واستمرّ بعده بنقل الصحابة عنهصلّى الله عليه وآله وسلّم حيث فسّروا القرآن اعتماداً على طريقته وجرياً على نهجه، وعلى هذا فقد ظهر التفسير القرآني بشكله الحديثي والروائي، وغالباً ما كان بشكل ساذج وبسيط، ويمكن القول ان تفسير الصحابة كان في الواقع رواية ونقلاً عن الرسولصلّى الله عليه وآله وسلّم أكثر منه تفسيراً.

لقد بقي التفسير طوال هذه المرحلة التي لم تتجاوز القرن الأول الهجري جزءاً وقسماً من علم الحديث، لذا فقد كان لرجل الحديث اطلاع واسع في تفسير القرآن كما اننا نشاهد هذه العلائق والروابط العميقة بين التفسير والحديث ممتدّة في العصور والمراحل التي أعقبت ذلك، في مسألة تدوين الحديث، حيث كان المحدّثون يخصّصون جزءاً مهمّاً من كتب حديثهم لأبواب تفسير القرآن.

انّ تفسير القرآن الذي ظهر تدريجياً فيما بعد عند تدوين العلوم الاسلامية بشكل علم مستقل ومنفرد لم يخرج عن حدود وقيود التفسير الأثري والنقلي ويصبح له أساليبه الخاصة المختلفة ـ حسب تخصّص المؤلّفين ـ إلاّ بجهود المحققين المتأخرين عن زمن الصحابة.

وعلى الرغم من انّ كثيراً من المحققّين المسلمين قد اظهروا انّ تفسير الصحابه في المسائل التي لم يكن فيها مجال للرأي والنظر ــ كأسباب النزول ــ كان في دائرة النقل والحديث، إلاّ اننا نشاهد في تفسير القرآن ابن عباس وابن مسعود وغيرهم قد أضافوا ركائز اضافية في التفسير علاوة على النقل والحديث، حيث عدّهم المؤرخون مؤسسي مدارس التّفسير. وما يلزم قوله هنا انّ اجتهاد الصحابة واظهار نظرهم كمفسّرين لم يكن ليتعارض ويتنافى مع بيان النبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم وتفسيره، بل ان تحقيقات المفسرين في عصر الصحابة كانت تتناغم وتتواءم مع تفسير النبيّ الاكرمصلّى الله عليه وآله وسلّم وتقريره.

بذكر هذه المقدّمة والالتفات الى النكات التي استعرضناها في تقرير أحوال مفسري الصحابة يمكن اجمال مميزات تفسير الصحابة بمايلي:

أ ــ كان اختلاف المفسرين في هذه المرحلة ضئيلاً، إذ لم تكن عوامل الاختلاف المتمثّلة بالنزاعات العقائدية والمذهبية قد تعمّقت وتوسّعت بعد، وكان ما يجري في مجال التفسير لا يستوجب ايجاد اختلاف مهم بينهم.

ب ــ كان يُكتفى بشرح وتفسير عام وتقرير مجمل في توضيح الآيات القرآنية، أي انّ القرآن لم يكن يُفسّر وفق نهج علميّ برعاية الضوابط الأدبية والكلامية والفلسفية والعرفانية وغيرها، إذ لم تكن الضوابط قد دوّنت في هذه المرحلة ولم تكتسب بعد الطابع العلمي، على الرغم من اننا نجد ابن عباس وسائر مفسري الصحابة يستشهدون ــ في تقرير مفردات القرآن أو تأييد انتمائها العربي ـ ويحتجّون بالاشعار الجاهلية أو بكيفية تعبير عرب البادية وطبيعة التقاطهم وفهمهم للاصطلاحات والمفردات العربية، على الرغم من ذلك فانّ هذه المباحث ووجهات النظر لم تتشكّل بعد بصورتها العلمية ولم تتماشَ مع الموازين والضوابط العلمية[٩٢].

ج ـ واستناداً الى الخصوصية الاولى «أ» يمكن القول ان استنباط الأحكام الفقهية من القرآن بالشكل الذي يمكن أن يوظّف ليخدم مذهباً معيّناً لم يكن معهوداً في تلك المرحلة، إذ انّ ايّاً من المذاهب والمدارس الخاصة في الفقه لم يكن قد ظهر بعد، واستناداً على ذلك فلم يظهر في هذه الفتره مذهب تفسيري خاص، ولا يمكن لأحد ان يدّعي ان مفسرّي الصحابة في اوائل هذه المرحلة كانوا ينتمون الى مذهب معيّن أو يؤيدّون اسلوباً ومذهباً ونظرة خاصة، سواء

من الوجهة العقائدية والكلامية، أو بلحاظ الأحكام والمسائل الفرعية والفقهيّة.

وبتعبير آخر فنحن لا نجد في هذه المرحلة امثال تفسير (الكشاف) للزمخشري و(مفاتيح الغيب) للرازي التي تؤيد اتّجاهاً خاصّاً في الكلام، كما لا نجد تفسيراً مثل (أحكام القرآن) للجصّاص أو (كنز العرفان) للفاضل المقداد يؤيّد مذهباً فقهيّاً خاصّاً، على الرغم من اننا نجد اشاراتٍ ورموز لهذين الاتجاهين في بعض الروايات التفسيرية لهذه المرحلة، لكنّها جاءت بشكل متناثر وعشوائي وبدون تخطيط علمي.

فمثلاً ينسبون الى أبيّ بن كعب أنّه سأل النبيصلّى الله عليه وآله وسلّم عن سورة العصر وكان الجواب الذي تلقّاه انّهصلّى الله عليه وآله وسلّم قال: ﴿**والعصر إنّ الانسان لفي خُسر**﴾ [هذا تعريض بأبي جهل عدوّ النبيّ] ﴿**وإلاّ الذين آمنوا**﴾ [أبو بكر]﴿**وعملوا الصالحات**﴾ [عمر] ﴿**وتواصوا بالحقّ**﴾ [عثمان] ﴿**وتواصوا بالصبر**﴾ [علي](٩٣).

حيث يكون أصل هذا الحديث مورد بحث وتأمّل، وهو محدود في إطار تعيين الخلافة وممثل لعقيدة أهل السنّة في موضوع الخلافة، وواضح ـ لعدّة جهات ـ انّه مختلق، إذ ان أبيّ بن كعب ـ كما ذكرنا في ترجمة أحواله ـ كان أحد الاثني عشر الذين أنكروا على الخليفه الأول تسنمّه الخلافة، كما أنّ موضوع الخلافة ـ طبقاً لعقيدة أهل السنة وتصريحهم ـ لم يجر حسب اشارة النبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم وتوجيهه بل تمّ بتعيين الجماعة وانتخاب الأمّة، وبالنظر الى ان أمثال هذه الأحاديث ضمن تفسير القرآن يعدّ قليلاً فإن البحث فيها يعدّ غير ذي أهميّة للدلائل التي أوردناها.

د ـ يبدو لنا انّ كتاباً لم يدوّن في هذه المرحلة غير القرآن، ويمكن القول ان ليس هناك دلائل وشواهد قطعيّة على تدوين تفسير جامع للقرآن في هذه المرحلة على الرغم من ان سلسلة من الروايات تؤيد مسألة تدوين التفسير في هذه المرحلة، فقد روي عن ابن مليكة انّه قال:

رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله التفسير كلّه(٩٤).

وهذه الرواية ـ ولو انّها غير صريحة ـ فهي تفيد ان تفسير القرآن قد دوّنه مجاهد في حياة ابن عباس، لكن هذه الرواية علاوة على انّها نُقلت من طريق واحد فانّها تفتقد

الصراحة والقطع في مسألة تدوين القرآن، ولا تورث الاطمئنان بذلك.

انّ التفاسير الموجودة والمنسوبة لابن عباس قد نُقلت عنه بوسائط أقربها واسطة لابن عباس لا يتعدى أواخر القرن الأول الهجري، وبهذا فهو خارج عن عصر الصحابة ومنضّم الى عصر التابعين.

انّ عصر تدوين تفسير القرآن يقترن بالقرن الثاني أو أواخر القرن الأوّل الذي يشكّل عصر التابعين، وعلى هذا فالتفسير المنسوب لابن عباس هو عبارة عن الروايات المنقولة عنه، والتي جُمعت ودوّنت في العصور والمراحل اللاّحقة، وللتوضيح نذكر ان التفسير المنسوب لابن عباس والذي نقل عنه في النسخ الخطيّة والمطبوعة بوسائط وطرق عديدة يشير الى انّ ابن عباس لم يدوّنه بنفسه، ونرى في هذا التفسير ان الرواة الى ابن عباس بهذا الترتيب: ابن المأمون الهروي، عن محمود بن محمد الرازي، عن عمار بن مجيد الهروي، عن علي بن اسحاق السمرقندي (م ٢٣٧)، عن محمد بن مروان السدّي الصغير (م ١٤٦)، عن محمّد بن السائب الكلبي (م ١٤٦)، عن أبي صالح ميزان البصري (المتوفى بعد المئة الأولى الهجرية)، عن ابن عباس[٩٥].

وقد ذكر ابن النديم كتاباً في تفسير القرآن عن ابن عباس، حيث يُرى في طريق النقل عنه هذه الوسائط: كتبَ: كتاب ابن عبّاس [في التفسير] الذي نقله مجاهد بن جبر المكّي (م ١٠٢ أو ١٠٣هـ)، عن ابن عباس، ونقله عن مجاهد حميد بن قيس (م في زمن الحجاج) وأبو النجيح، ورواه عنه الورقاء بن ميمون[٩٦].

هـ ــ وكما ذكرنا في مقدّمة (تفسير الصحابة) فإنّ مفسّري هذه المرحلة قد استمدّوا العون في تفسير الآيات من المنقول والمأثور، وكان التفسير شانه شأن الفقه وسائر المعارف الاسلامية جزءاً من علم الحديث، وكانوا إذا لم يجدوا لتفسير آيةٍ ما حديثاً لجأوا الى مرجع ومتخصّص يستعين بدوره بالحديث في تفسيرها، وقد دام الأمر على هذا المنوال قروناً، يقول الحافظ ابن كثير:

كنّا إذا لم نجد تفسير آية في القرآن والحديث رجعنا الى قول الصحابة لأنهم كانوا أعلمنا حيث شهدوا أوضاع وشرائط كانت خاصّة بهم[٩٧] إذ انّهم عاشوا هذه الشرائط والاوضاع حضورياً، ولمسوا عن كثب مواطن نزول الآيات.

ويمكن القول باجمال ان التفسير في عصر الصحابة لم يخرج عن حدود التفسير بالمأثور، وكان يندر أن يكون هناك اجتهاد

واظهار للرأي. وقد استمر هذا الأسلوب وجرى عليه مفسرون من القرون التي تلت هذه المرحلة، كالطبري وغيره.

الهوامش

(١) يراجع: محمد معين، فرهنگ فارسي ص١٠٦٤، (بالفارسية)؛ دزي، فرهنگ ١: ١٤٤، (بالفارسية)؛ ابن منظور، لسان العرب ١٤: ٣٣٢ (طبع بولاق)؛ مولوي عبد الرحيم، منتهى الأرب؛ نفيسي، فرهنگ، ٢: ٨٤٧(بالفارسية)؛

تهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون ١:٥٨٧؛

راميار، تاريخ قرآن: ٢٩٦.(بالفارسية)؛

دهخدا، لغت نامه (ندجيل ــ ترك): ٥٥٩ (بالفارسية).

(٢) يراجع: أطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والاسلام، ١: ٢١٤ ـ ٢٣٦؛ أديب الهيهاوي، ترجمة القرآن غرض للسياسة والدين؛ الشيخ أحمد فهمي محمد، آية النظيم تدافع عن القرآن الكريم؛ الاستاذ محمد مصطفى الشاطر، القول السديد في حكم ترجمة القرآن المجيد: الشيخ محمود سليمان، حدث الاحداث في الاسلام، الكتّاب المذكورون من القائلين بعدم جواز ترجمه القرآن الكريم.

جمع آخر من العلماء الذين كتبوا في جواز ترجمة القرآن الكريم هم: الشيخ مصطفى المراغي، بحث في ترجمة القرآن وأحكامها؛ محمد فريد وجدي، الأدلّة العلمية في جواز ترجمة معاني القرآن، كتبها تأييداً لنظر المراغي في جواز ترجمة القرآن، وللاطلاع الاكثر يراجع كتاب الذهبي، التفسير والمفسّرون ١: ٢٢ ـــ ٣٠ وراميار، تاريخ قرآن: ٢٩٥ ـ ٣٠٨ و٣٨٠، ٣٨١. (بالفارسية).

(٣) طبق مضمون كثير من الآيات والروايات فان أحكام الاسلام كانت عامّة وعالمية من قبيل آية: ﴿وما ارسلناك إلاّ كافّة للناس﴾ (سورة سبأ: ٢٧).

(٤) راجع كتاب الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ٢٩ ـ ٣٠. راميار، تاريخ قرآن: ٢٩٩ ـــ ٣٠٠ (بالفارسية). Blacbere, Le Coran Intro Duction,5

(٥) نقلاً عن صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ١٢.

(٦) أبو الفتوح الرازي، روض الجنان ١: ١٥.

(٧) الفرقان: ٣٣.

(٨) أسفر: المدثر: ٣٤.

سفر: البقرة: ١٨٤، ١٨٥. النساء: ٤٣. المائدة: ٦. سفراً: التوبة: ٤٢. سفرنا: سبأ: ١٩.اسفارنا:سبأ: ١٩.عبس:١٥. مسفرة: عبس: ٣٦، وموارد أخرى.

(٩) مقدّمتان: ١٧٢.

(١٠) المجلسي الثاني، بحار الانوار ٩: ٢٨.

(١١) نفس المصدر: ٢٩.

(١٢) دائرة المعارف الاسلامية ٥:٣٤٦ و٣٤٧.

(١٣) آل عمران: ٧. الآية الكاملة هكذا: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكماتٌ هنّ أمُّ الكتاب

وأُخَرُ متشـابهات فأمّـا الذين في قلـوبهم زَيْغ فيتّبعون مـا تشابه منـه ابتغاءَ الفتنـةِ وابتغاءَ تـأويلِهِ وما يعلم تـأويلَـه إلاّ الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا كلّ من عند ربنا وما يذّكّر إلاّ أولـو الالباب﴾ راجع كتـاب الطبرسـي، مجمع البيان ١: ٤١٠.

(١٤) الزركشي، البرهان ٢: ١٥٠؛ السيوطي، الاتقان ٢: ٢١٩؛ المسعودي، مروج الذهب ٣: ٤٣١؛ الصدر، تاسيس الشيعة: ٣٢٢ ومصادر أخرى.

(١٥) الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ١٨ نقلاً عن جمع الجوامع ٢: ٥٦.

(١٦) للاطلاع الأوسع انظر: السيوطي، الاتقان ٢: ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

(١٧) ذكر الزبيدي التأويل في(إيـاله) بمعنى التدبير والسياسة أيضاً، وقال: آل على القوم اولاً وايالاً وايـالـة بكسرهمـا: ولـي أمرهـم، وفي كـلام بعضهم آل المال اولاً: أصلحـه وساسه كاتـاله إئتيالاً. راجع تاج العروس ٧: ٢١٥.

(١٨) أبو الفتوح الرازي، روض الجنان ١: ١٥؛ وكذا أبو المحاسن جرجاني، جلاء العيون ١: ٨.

(١٩) ابن خلدون، مقدمة العبر: ٤٣٨.

(٢٠) نفس المرجع والصفحة.

(٢١) سورة النحل: ٤٤.

(٢٢) رك: السيوطي، الاتقان ٢: ٣٢٥ ـ ٣٥١.

(٢٣) سورة الانعام: ٨٢.

(٢٤) سورة لقمـان: ١٣ (رك السيـوطي، الاتقـان ٢: ٢٩٦).

(٢٥) أبو الفتوح الرازي، روض الجنان ٤: ٢٢٤.

(٢٦) السيوطـي، الاتقان ٢: ٣٢٥؛ الطبرسي، مجمع البيان ١: ٣٦.

(٢٧) أبو الفتوح الرازي، روض الجنان ١: ٥٣.

(٢٨) سورة البقرة: ١٧٨.

(٢٩) الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ٣٥؛ حيث قال النبيّصلّـى الله عليـه وآلـه وسلّـم انّ الخيـط الأبيض: بياض النهار، والأسود: سواد اللّيل.

(٣٠) سورة عبس: ٣١.

(٣١) السيوطي، الاتقان ٢: ١١٣ (طبعة ١٩٥٥).

(٣٢) سورة النحل: ٤٧.

(٣٣) الشاطبي، الموافقات ٢: ٨٧، ٨٨.

(٣٤) السيوطي الاتقان ٢:

(٣٥) السيوطـي، الاتقان ٢: ٣١٨؛ الزرقاني، مناهل العرفان ١: ٤٨٢، ٤٨٣؛ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ٢٨٩.

(٣٦) نفس المراجع والصفحات.

(٣٧) ابن عطية، مقدمة الجامع المحرر: ٢٦٣.

(٣٨) السيوطي، الاتقان ٢: ٣١٩.

مقدّمـة مجمع البيان: ٧. هنـاك روايـات في بحـار الانوار تنسـب علم ظاهـر القرآن وباطنـه الى الائمـة عليهما السّـلام. رك: المحـدث القمي، سفينة البحار ٢: ٤١٤.

(٣٩) السيوطـي، الاتقان ٢: ٣١٩. الزرقاني، مناهل العرفان ١: ٤٨٢؛ الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ٩٠.

(٤٠) المصدر السابق.

(٤١) المصدر السابق.

(٤٢) المصدر السابق.

(٤٣) انظر: ZDMG, LXIV, 592 (نقـلاً عن: جولد زيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ٣٦١).

(٤٤) العلاّمة الحلي، خلاصة الاقوال: ٥١؛ أبو علي، منتهى المقال: ١٦٨؛ السيوطي، الاتقان ٢: ٢١٨.

(٤٥) المحدّث القمي، سفينة البحار ٢: ١٥٠.

(٤٦) العلاّمة الحلي، خلاصة الاقوال: ٥١؛ أبو علي، منتهى المقال: ١٦٨.

(٤٧) ابن عطية، مقدمه الجامع المحرر: ٢٤٦؛ الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ٨٩، ٩٠.

(٤٨) المحدث القمّي، سفنية البحار ٢: ٤١٤.

(٤٩) مقالات وبررّسيها (ابن عباس ومقامه في التفسير، بالفارسيّة) ش ١٧ و١٨: ٦٢ ـ ٦٨.

(٥٠) ابن عطيّة، مقدمة الجامع المحرر: ٢٤٦؛ السيوطي، الاتقان ٢: ٢١٩.

(٥١) ابن الأثير، أُسد الغابة ٣: ١٩٣، ١٩٤؛ ابن قيم الجوزيه، أعلام الموقعين ١: ٢٠؛ السيوطي، الاتقان ٢: ٢١٩؛ مقدّمتان: ٥٧ و٢٦٤.

(٥٢) الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ٧٠.

(٥٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: ٥.

(٥٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٢: ٣٦٦؛ السيوطي، الاتقان ٢: ٢١٩؛ الصدر، تأسيس الشيعة: ٣٢٢؛ جولدزيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ٨٣؛ مقدمتان: ٥٧ و٢٦٤.

(٥٥) المحدث القمي، سفنية البحار ٢: ١٥٠.

(٥٦) مقدمتان: ٥٧؛ السيوطي، الاتقان ٢: ٢١٩؛ جولد زيهر. مذاهب التفسير الاسلامي: ٨٣؛ حسن بن زين الدين، تحرير الطاووس (نقلاً عن المحدث القمي، سفنية البحار ٢: ٥٥٤).

(٥٧) ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب ١: ٧٦؛ مقدمتان: ٥٧؛ المحدث القمي، هامش سفينة البحار ٢: ١٥٤.

(٥٨) الصدر، تأسيس الشيعة: ٣٢٢.

(٥٩) المراغي، مقدمة التفسير: ٦.

(٦٠) جو لدزيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ٨٩.

(٦١) ابن الاثير، أُسد الغابة ٣: ١٩٤؛ ابن عماد، شذرات الذهب ١: ٧٥، ٨٦.

(٦٢) ابن الاثير، أُسد الغابة ٣: ١٩٣.

(٦٣) للاطلاع الأوسع تراجع مقالة الكاتب (تحقيق حول ابن عباس ومقامه في التفسير، بالفارسية).

(٦٤) انظر المقالة السابقة: ٨٦ ـ ١٠٣.

(٦٥) المحدّث القميّ، سفينة البحار ٢: ١٣٧ و٤١٤؛ الطبرسي، مقدمة مجمع البيان: ٧؛ وقد ذكر أبو الصلاح في التقريب هذه النكتة ايضاً.

(٦٦) المحدث القمي، سفينة البحار ٢: ١٣٧.

(٦٧) ابن الاثير، أُسد الغابة ٣: ٢٥٦ ـ ٢٦٠.

(٦٨) السيوطي، الاتقان ٢: ٢١٩؛ الزرقاني، مناهل العرفان ١: ٤٨٣.

(٦٩) المحدث القمي، سفينه البحار ٢: ١٣٨.

(٧٠) الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ٨٥.

(٧١) ابن قتيبه، تأويل مختلف الحديث: ٢٦ (طبع مطبعة كردستان القاهرة ١٣٢٦م) (نقلاً عن: جولد زيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ١٦).

(٧٢) جولد زيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ١٦.

(٧٣) ابن السبكي، طبقات الشافعيّة ٢: ٢٦.

(٧٤) الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ٨٧، ٨٨.

(٧٥) إحياء ٣: ٣٢٥ و٤: ٢١٦ (نقلاً عن جولد زيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ٢٧٩).

(٧٦) جولدزيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ٢٢٠.

(٧٧) المحدث القمي، سفينة البحار ١: ٨؛ الصدر، تأسيس الشيعة: ٣٢٤.

(٧٨) المحدث القمي، سفنية البحار ١:٨.

(٧٩) السيوطي، الاتقان ٢: ٢٢٢، ٢٢٣.

(٨٠) الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ٩٢، وللاطلاع الاوسع على أحوال أبيّ بن كعب يرجع الى: ابن الاثير، أُسد الغابة ١: ٤٩ ـ ٥١.

(٨١) محي الدين بن عربي، تفسير الشيخ الاكبر ٢: ٦١٨.

(٨٢) الطبرسي، مجمع البيان ١٠: ٥٤٤.

(٨٣) الطبرسي، مجمع البيان ١٠: ٥٤٤.

(٨٤) المحدث القمي، سفينة البحار ١: ٥٧٥.

(٨٥) جولدزيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ١٨.

(٨٦) دهخدا، لغتنامه (زدن ـ زييه): ٦١١ بالفارسية.

(٨٧) الصدر، تأسيس الشيعة: ٣٢٣.

(٨٨) السيوطي، الاتقان ٢: ٢٢٣.

(٨٩) ابن الاثير، أُسد الغابة ١: ٢٩٥.

(٩٠) المحدث القمي، سفينة البحار ١: ١٤٠.

(٩١) الطبرسي، مجمع البيان ١: ٤٢١.

(٩٢) للتوسّع يرجع الى مقالة الكاتب (ابن عباس ومقامه في التفسير، بالفارسية) مقالات وبررسيها ش ١٧ و١٨: ٧٥ ـ ٨٢.

(٩٣) محب الدين الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة ١: ٢٤ (نقلاً عن جولدزيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ٣٢٢).

(٩٤) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: ٢٨؛ مقدمتان: ١٩٣.

(٩٥) الفيروزآبادي، تنوير المقباس (هامش الدرّ المنثور) ١: ٢، الطهراني، الذريعة ٤: ٢٤٤.

(٩٦) ابن النديم، الفهرست (الترجمة الفارسية): ٥٩.

(٩٧) ابن كثير، مقدمة التفسير ١: ٣.

❋ ❋ ❋

العلوية أمين نصرة .. الفقيهة المفسرة

السيّد علي أشرف

لقد تعرضت المرأة عبر التاريخ الى عملية استلاب واسعة هزت كيان المجتمع البشري، وكانت حواء تعيش دائما حالة من الهزيمة تتجلى في صورة الاقدام والهجوم مرة وفي صورة الاحجام والتفريغ الداخلي مرة أخرى، وعانت ما عانته من ضياع وتخبط في عمليات المطالبة باكثر مما ينبغي لها وارتداء لباس غيرها وعمليات الانكماش والانحسار داخل نفسها والانزواء والتعثر الداخلي، بيد أن تاريخها يزخر بومضات ربانية كانت تعيد اليها مكانتها وثقتها بنفسها، منذ أن جعلها الله إلف آدم ومعينه وشقه الذي لا يستغني عنه، الى ابراهيم حيث جعل الله امة التوحيد تستنّ بسنة هاجر المرأة الامة والى آسية امرأة فرعون التي ضمن الله لها جنة الخلد ومريم بنت عمران التي فضلها الله على نساء العالمين وأخيراً الى سيد الرسل محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي قدم الانموذج الاكمل في سيدة النساء من الاولين والآخرين فاطمة الزهراءعليها السّلام.

ولسنا الآن بصدد دراسة المرأة وموقعها في البنية الاجتماعية الاسلامية بيدأ ننا اردنا الاشارة من بعيد الى مكانة المرأة ودورها الفاعل الذي اراده الله لها في حركة التاريخ والحياة وما يتطلبه منها هذا الدور من اشتراك جاد في صراع الحق والباطل، حيث وجهت لها خطابات الشريعة المقدسة لها كما وجهت للرجل تماماً، وعليها أن تخوض غمار المعركة بكل ما آتاها الله من قوة ونفوذ، ولا ندري هل أن ظروفها الموضوعية التي عاشتها منذ فجر التاريخ غمطتها حقها ولم تتناول حياة المبرزات منهن أو انهن كن قلائل معدودات لم

يحالفهن الحظ ولم يفسح لهن المجال، فبقين في الظل بعيداً عن اضواء المؤرخين؛ ولهذا فقد اقدمنا على تعريف نموذج معاصر، على أمل أن تكثر النماذج بمستوى الطموح الاسلامي ان شاء الله.

السيدة أمين: من الولادة حتى الوفاة(*):

السيدة أمين بنت السيد محمد علي بن السيد حسن بن السيد محمد ابن العلامة مير معصوم حسين خاتون أبادي ابن مير عبد الحسين، مؤلف كتاب «وقائع السنين والاعوام» وهو من مشاهير علماء اصفهان، عاصر الشاه سليمان والشاه حسين الصفوي عام١١٠٥هـ.

ولدت السيدة أمين عام ١٣٠٨هـ وعرفت منذ الصبا بالنبوغ واشرق محياها الجلال، بادرت الى طلب العلم وتعلم القرآن منذ السنة الرابعة من عمرها، فاتخذ لها أبوها معلماً خاصاً من أجل التسريع في طلب العلم والاستمرار بالدراسة.

تزوجت من ابن عمها في سن الخامسة عشرة، وفي سن العشرين تفرغت لدراسة الادب العربي وعلوم الشريعة.

وهكذا ثابرت ودأبت على مواصلة الدرس والتغلب على مشاكل الحياة حتى نالت شهادة الاجتهاد، بعد أن خضعت لامتحان طويل دام اربعين سنة من قبل الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي - مؤسس الحوزة العلمية المعاصرة في قم - والشيخ محمد كاظم الشيرازي (ت ١٣٦٦) كما نالت اجازة الرواية والاجتهاد من الميرزا الاصطهباناتي (١٢٧٩) والشيخ محمد رضا أبو المجد النجفي الاصفهاني.

ولا يفوتنا التنويه الى مجالسها العلمية التي كان يحضرها كبار العلماء والمفكرين من أمثال المفسر الكبير العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي والفيلسوف المعروف الشيخ محمد تقي الجعفري والعلامة المجاهد الشيخ عبد الحسين الأميني (صاحب الغدير) وكثيرون آخرون ممن قدموا عليها لمناقشة القضايا العلمية أو كاتبوها من خلال الرسائل.

توفيت السيدة أمين عام ١٣٦٢هـ .ش ودفنت في اصفهان فرحمها الله وحشرها مع اجدادها الطاهرين.

اساتذتها:

اهتم العلماء بطاقات السيدة الفقيهة المفسرة منذ انطلاقتها في الحياة العلمية، لما لمسوه فيها من نبوغ واصرار على طلب العلم وخوض الاهوال في هذا السبيل

وخلوص النية وخدمة العلم وأهله وكان من أشهرهم:

الشيخ ابو القاسم زفرة أي المعروف بالحاج أخوند.

الحاج أقا حسين نظام الدين كجوئي.

الاقا ميرزا علي أصغر شريف.

الاقا السيد أبو القاسم دهكردي.

الميرزا الشهير علي أقا الشيرازي.

وكان على رأس هؤلاء آية الله الحاج مير سيد علي النجف آبادي (ت ١٣٦٢) وكان من اعاظم المجتهدين وابرز الاساتذة والمدرسين في حوزة اصفهان، وكان له ابلغ الاثر في تكوين شخصيتها العلمية وبناء مراحلها الفكرية.

ومن جملة الاساتذة الذين تلمذت عليهم وانتهلت من علومهم، الآيات العظام:

الآخوند الخراساني، السيد محمد كاظم اليزدي، السيد محمد الفشاركي، الميرزا محمد تقي الشيرازي وهؤلاء جميعاً اساطين العلم وعظماء العصر الذين طارت شهرتهم في الافاق.

ابرز تلامذتها:

لقد كانت المترجم لها مرجعاً صالحاً للنساء في صنوف العلوم الاسلامية المختلفة، وقد فتحت صدرها لهن وجعلت بيتها مدرسة، وآوتهن ايوءاً علمياً، مما جعلهن يحظين بحظ وافر من العلوم والمعارف القرآنية، ويتسابقن للانتهال من نمير علوم الشريعة المتدفق من معينها العذب وسوف نقتصر على ذكر جملة من نتاجها وابرز تلامذتها اللواتي تخرجن من مدرستها، فنفع الله بهن المجتمع الاسلامي في ايران:

١ ـ السيدة زينب السادات همايوني: تتلمذت عليها ما يقارب النصف قرن، وهي الآن مديرة لمؤسسة «مكتب فاطمة» النسوية ولها تآليف عديدة.

٢ ـ السيدة عفت الحاجية افتخار أمين توفيت عن عمر يناهز ٦٥ عاماً (ت ١٣٩٧هـ) لها كتاب طبع مرتين.

٣ ـ فخر السادات ابطحي بكلوريوس في الادب العربي ـ جامعة اصفهان ومسؤولة مركز الاعلام والارشاد الديني للسيدات ـ اصفهان.

وثمة سيدات أخريات كثيرات تخرجن من مؤسسة «مكتب فاطمة» واعدادية «أمين» للفتيات وهن الآن يؤدين رسالتهن الدينية في مدارس اصفهان ومؤسساتها الثقافية.

اجازاتها:

كانت المرحومة من اجلة الرواة والمحدثين، وقد اجازت الكثير من الاعلام بالرواية عنها فيما اجيزت به من كتب واصول ومصنفات، ومن ابرز من نالوا الاجازة منها:

١ـ آية الله العظمى السيد شهاب الدين المرعشي النجفي.

٢ـ العلامة السيد عباس الحسيني: الكاشاني صاحب كتاب «معجم اعلام الشيعة».

٣ـ العلامة الشهيد سيد محمد علي قاضي الطباطبائي.

٤ـ العلامة السيد محمد علي الروحاني.

٥ـ العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني (صاحب الغدير).

٦ـ العلامة الشيخ عبد الله السبيتي صاحب كتاب «تحت راية الحق».

٧ـ العالمة الفاضلة زينت السادات همايوني «مترجمة كتاب اربعين الهاشمية».

مؤلفاتها:

لقد تركت العالمة الفاضلة تراثاً ثرا في مختلف مجالات الثقافة الاسلامية اشتهر بعضها في الاوساط العلمية والثقافية من قبيل:

١ـ اربعين الهاشمية: ذكره العلامة الشيخ اغا بزرگك الطهراني في الذريعة ١١ / ٥٤ والسيد حسن الأمين في دائره المعارف الشيعية ١ / ٤٣٣ والسيد ميرخان في كتاب «سير حديث دراسلام». وهو أول مؤلفاتها وقد ترجمته الى الفارسية السيده علوية همايوني ونال اهتمام العلماء والمثقفين.

٢ ـ تفسير مخزن العرفان: في ١٥ مجلداً.

٣ـ اقتباس وترجمة تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق لابن مسكويه (انتهت الترجمة في ١٩ رجب ١٣٦٨ في ٣٦٢ صفحة).

٤ـ جامع الشتات: كتاب بالعربية يحتوي على دقائق العلوم والحكميات على صورة سؤال وجواب.

٥ـ روش خوشبختي وتوصية به خواهران ايماني (سبيل السعادة ووصايا لأختي في الدين).

قامت مؤسسة الزهراء للطباعة والنشر بطبعه الطبعة السابعة في ١٩٢ صفحة حجم جيبي.

٦ـ سير وسلوك در روش اولياء وطريق سير سعداء.

٧ـ مخزن اللآلي في فضائل مولى

الموالي حضرت علي عليه السّلام.

٨ ـ معاد يا آخـرين سير بشر طبع في اصفهان ١٣٦٩ هــش مؤسسة بهار للطباعة والنشر في ١٤٧صفحة.

٩ ـ نفحات الرحمانية در واردات قلبية ـ باللغة العربية ـ.

ولا يفـوتنـا التنـويـه بمشـاريعهـا الاجتماعية التي افاضت بالخير والعطاء على المجتمع مـن قبيل اعـداديـة أميـن للبنـات ومكتب فاطمة عليها السّلام حيث كانت رحمها الله تباشر التدريس فيها شخصياً.

لمحة سريعة حول شخصيتها:

امتـازت السيـدة أميـن منـذ نعـومـة اظفـارها بـالتقـوى واليقين والانشـداد الى القرآن ونهج البـلاغة والصحيفة السجـادية وعـرفت بـالزهـد والـورع والتهجد وجهـاد النفـس والكـرم والاهتمـام بتـربيـة الجيـل الصاعد من بنات جنسهـا، وقد اعرضت عن الثروة التي انعم الله بها عليهـا وصرفتها في طريق الخير و بناء ورفد المؤسسات الثقافية والتربويـة، وعرفت برعايـة الايتام والابتعاد عن السمعـة والريـاء، فكـانت تكتب بـاسم «سيـدة ايـرانيـة» وتحثـو وجـه المـادحين والمتملقين التـراب.. وتهتم غـاية الاهتمـام بالمستحبات الشرعيـة وتستيقظ في جوف الليل لتقف بين يدي ربها.

وقد امتازت بشكل يثير الدهشة باتزان الشخصية واعتدال الحركـة، وكان مجلسها يشـع بـانوار التقى والعلم، ويفيـض بصور الاخلاق الكريمة والسجـايا الحميدة، وكانت تعيش حالة مـن التوكل والتسليم المطلق لله سبحـانـه وتعـالى، وبكلمـة واحـدة كـانت مدرسة تربوية حـافلة بذكرى سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السّلام.

وقد جمعت السيده أمين بين واجباتها الفطـريـة كـامرأة وواجبـاتهـا الشـرعيـة والاجتماعيـة، حيث كانت تؤمـن بأن المرأة مكلفة باقتحـام الساحه بما يناسـب كيانها ودورهـا، لان المجتمع يحتـاج الـى نشـاط المراة كما يحتاج الى نشاط الرجل، وما يقال من وجود تفاضل بينهما فهو بين كلّي المرأة وكلّي الـرجـل لا بين المصـاديق، فكـم من مصداق فـي عالم بنـات حواء هو خيـر من آلاف الـرجال، وضـربت لـذلك مثـلاً في أم الأئمة خـديجة بنت خـويلد ومريـم وسيدة النساء فـاطمة. وقـد كانت المـرحومـه منذ نعـومة اظفـارها جـادة في تهذيـب النفس وطلب العلم، تقول:

(كنت منـذ الصبا مـولعة بـالمطالعـة واستماع الموعظة وكم كن اترابي يستهزءن بي ويضحكـن مني، بيـد انـي كنت اتحمـل

الاستهزاء واصبر على الاذى لأني كنت اشعر في داخلي كأني معرضة عن اللهو واللعب وزخارف الدنيا.. كنت اشعر أن قلبي مشدود الى شيء آخر لم اكن استطع تمييزه في المراحل الاولى، ولكني كنت اشعر بميل عجيب نحو كلام الواعظ حينما يذكر الله وصفاته.. كان قلبي يخفق واتحول الى اذن صاغية من قرني حتى قدمي...».

تفسير مخزن العرفان:

منذ الايام الاولى من ربيع العمر انشدّت السيدة أمين الى القرآن انشداداً خاصاً، وارتبطت به ارتباطاً وثيقاً، مما دفعها إلى تجشم الصعاب والمثابرة على تذليل العقبات الكؤود التي تعترضها في سبيل القرآن باعتبارها غير عربية، فأقدمت على دراسة الادب العربي والصرف والنحو وغيرها من المقدمات التي تعدها لدخول رحاب القرآن والانتهال من نميره العذب الصافي وتقول رحمها الله في هذا الصدد:

«ويعلم الله كم عانيت من المصاعب والمضايقات وقاسيت من المعاناة والمشقات وتحملت لسع الالسن واستهزاء الاقرباء والاصدقاء ولكني ثابرت على مواصلة الطريق».

حتى إذا بلغت مراتب العلم وتسلقت قمم المعرفة وفتح الله عليها من كنوز القرآن رسّخت العزم على كتابة التفسير وادلاء الدلو في علوم القرآن لتنفع الناس بما نفعها الله وتطلعهم على ما فتح الله عليها من كنوز كتابه العزيز، ما فتئت تحمل القلم حتى احجمت خوفاً من الاقتحام في لجج القرآن، وظلت مدة بين دوافع الرغبة الملحة والخوف من ركوب الصعب، وأمتدت بها حالة الخوف والرجاء حتى رست على فكرة تحقق الطموح ولا تزل بها القدم قدر المستطاع، فقررت تاليف تفسير ينطلق في المحكمات ويقف عند المتشابهات ويترجم القرآن ترجمة مرضية ويجمع بين الاختصار والافادة ويعتمد أولاً وقبل كل شيء على أقوال المعصومين عليهم أفضل الصلاة والسلام.

تقول السيدة أمين: منذ زمن تراودني فكرة تاليف تفسير مختصر اقتبس فيه من مشكاة انوار كلمات آل البيت المعصومين واقتطف فيه من ثمار أو أقوال المفسرين حتى احسب في عداد المتدبرين في القرآن الكريم، ولكن وللاسف كانت العقبات تعترض طريقي وتمنعني عن الاقدام على هذا المشروع الخطير، حتى ظننت انه عمل في غاية الصعوبة والعسر، لا سيما حينما كنت أرى نهي الشريعة عن التفسير بالرأي، وفي خضم الصراع بين الاقدام والاحجام

والخوف والرجاء والرغبة والتحسب اصابني اليأس من كتابة تفسير متكامل، بيد اني فكرت وبصرت فرأيت أن «الميسور لا يترك بالمعسور» فعزمت على اقتباس انوار الولاية وترجمة القرآن ترجمة حرفية وتفسير الآيات المحكمة واجتناب الحوم حول الآيات المتشابهة (مقدمة التفسير) وبالرغم مما احتواه التفسير من مادة غنية وعطاء ثر، الا انها تؤكد على أنه لم يكن تفسيراً مكتوباً للاخرين بقدر ما هو محاولة لاستكشاف الآيات والانتفاع بها حيث تقول: «لا يمكنني ابداً ان ادعي مع ما املكه من تفكير محدود وبيان قاصر أن ما كتبته كان تفسيراً كاملاً، بيد أنني اردت أن تذوق روحي قطرة من يمّ هذا الفيض الالهي واجني عنقوداً من بيادر الاحسان واقتطف زهرة من رياض القرآن لعلها تعطر روحي وتطهر الادران عني. (مقدمة التفسير).

وتؤكد السيدة أمين على أن القرآن صفحة الهية عظيمة لا يمكن أن يدرك معانيها سوى من خوطب به وهو النبي وخلفاؤه المعصومون من بعده، وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها «ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين» والكتاب المبين المراد به هنا القرآن الكريم[1] وتقول السيدة، لا يمكن للذهن البشري المحدود أن يدرك معاني القرآن، لانه ليس من قبيل مخاطبات البشر العادية المتعارفة بينهم، وانما هو دستور شامل كامل نزل بالايحاء والايماء والرموز، بحيث جمع المعاني الكثيرة الكبيرة في ألفاظ محدودة، ولو اردت التفصيل وتناول الجزئيات وجميع المفردات لخرج عن حد البلاغة والفصاحة واستغرق حجماً كبيراً في مجلدات عديدة»[2].

ولكنها تؤكد في نفس الوقت على أن هذا لا يعني الاعراض عن التدبر والتفكر في آيات الله الذي حث القرآن عليه ﴿افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها﴾(محمد:٢٤) باعتبار أن القرآن دستور حياة يجب على المسلم أن يفهمه ليطبقه في حياته الفردية والاجتماعية حتى لا تصدر عنه حركة أو سكون الا من خلال منطلقات القرآن.

وتقول ان اختصاص الخطاب القرآني بالرسول وأهل البيت يعني أنهم — ولا أحد غيرهم — يفهمون الرموز القرآنية التي تحل جميع معضلات الانسان، ويبقى على الفرد المسلم أن يتدبر ويتفكر ليكتشف شيئا من اسرار القرآن ويتعرف على أوامره ونواهيه وهذا شيء غير التفسير بالرأي المنهي عنه.

ولهذا فتح المجال للدخول الى رحاب الايات المحكمة وارجاع الآيات المتشابهة

الى الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وجعلهم ادلاء عليه، وجعلهم الراسخين في العلم.

منهجها في التفسير:

امتازت السيدة أمين باسلوب خاص في تناول الايات المباركة شرحاً وبياناً وتفسيراً، حيث تذكر الآية وتتبعها بالترجمة الفارسية ثم تذكر ما ورد في شأن نزولها ثم تنطلق مع الآية في نقل احاديث المعصومين وأقوال العلماء والمفسرين وما في الآية من معاني ومفاهيم ومضامين، فقد تنطلق من آية للدخول في بحث الايمان أو النفاق أو السيرة أو الرسالة أو التبليغ وما شاكل من افكار وتعاليم ومفاهيم قرانية.

وعلى هذا فهي في الواقع لم تنتهج منهجاً محدداً من المناهج المتداولة المشهورة بين المفسرين من قبيل المنهج الروائي أو اللغوي أو تفسير القرآن بالقرآن، وانما هو تفسير مزج المناهج كلها ووظفها جميعاً لا ستجلاء الحقيقة واستكشاف الايات وبيان المعاني القرآنية، بل حتى انك تلاحظ أحيانا أن اسلوب البحث يتجه اتجاهاً ينفلت عن قيود التفسير التجزيئي الى التفسير الموضوعي حسب حاجة البيان وما يتطلبه توضيح آيات القرآن، كما قد استخدمت المفسرة المجتهدة اسلوب السؤال والجواب كثيراً في ثنايا التفسير.

ومن الجدير بالذكر أن السيدة أمين اكثرت من نقل اقوال المفسرين، ولا سيما صدر المتألهين فانها تكاد تعتمد عليه اعتماداً اساسياً باعتبار المسحة العرفانية الطافحة بجلاء على كلّ صفحات التفسير، مما قد يوهم غير المتتبع أن منهجها في التفسير منهج عرفاني ولا غير.

صفحة مترجمة من التفسير

معنى الاستعاذة

﴿اعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾

اقتضت العادة لمن يريد زيارة العظماء أن يستعد استعداداً مسبقاً فيتنظف ويلبس أفخر الملابس ويطلب الاذن للدخول.. وهكذا الأمر تماماً لمن اراد الاستعداد والتهيؤ لوفادة قاضي الحاجات ولقاء رب الارباب لاظهار العبودية والتذلل في ساحة قدسه، حيث يجب عليه أن يتطهر ظاهراً وباطناً من الادران والارجاس والاقذار، مادية كانت أو معنوية، روحية أو جسدية، وإلاّ فهو لا يستحق شرف المثول بين يدي الله والوقوف على اعتاب حظيرة القدس الازلي.

وكيف يليق بقلب ملوث مشغول أن يرقى الى مقام القرب، وانّى له القدرة على مناجاة الحبيب بخلوص...

ولهذا كان لزاماً على من يريد حمد الله والثناء عليه أن يخطو خطوات ثلاث قبل أن يبدأ المناجاة:

١ ـ يستعيذ من الشيطان الغوي الرجيم.

٢ ـ يستعين بالله ويستجير به.

٣ ـ يطهر قلبه من رواسب الهواجس الشيطانية التي تسربت اليه نتيجة الوساوس والهمزات.

ومن ثمَّ يتقدم نحو الفرد الصمد ليدعوه ويثني عليه.

قال الله عزوجل: ﴿فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾(النحل: ١٠٠).

ومتى ما ادرك القلب معاني هذه الكلمات ولمسها على حقيقتها، بحيث تنطلق من اعماقه وتجري على لسانه بصدق ـ ليست لقلقة فارغة لا روح فيها ولا حياة ـ فحينئذٍ يطمئن الى الله ويتنزه من براثن الوسواس.

فالاستعاذة: التجاء الى الله، ونجاة من شرور الشيطان والنفس، ودخول في دائرة الامن الالهي.

أما اذا كان اللسان متعبداً ذاكراً والقلب مشغولاً غافلاً فهو في دائرة الشيطان وحيازته وداخلاً في هيمنته وسلطانه.

قال بعض العلماء:

لا تتم الاستعاذه إلّا بثلاث:

«العلم والانفعال ـ الخضوع والخشوع ـ والعمل».

فبالعلم يعرف الانسان نفسه ويدرك عجزه عن جلب المنافع ودفع الضرر ويعرف قوة الله وقدرته على كلّ شيء.

فاذا ما عرف الانسان نفسه وعرف ربّه انكسر قلبه خضوعاً وخشوعاً في حالة من الانفعال. وهذا بدوره يترك في الانسان أثرين اثنين: أولهما يظهر على القلب والثاني على اللسان، فالقلب يلتجىء الى الخالق الذي برأه لجوءً حقيقياً لانه أدرك عزّ الربوبية وذلّ العبودية، واللسان «وهو ترجمان القلب» ينطلق بذكر الله والاستعاذة من الشيطان الرجيم ﴿أعوذ بالله..﴾.

وهذه هي الاستعاذة التي تطرد الشيطان.

واللجوء الى الله الرؤوف الرحيم ضرورة دائمة للانسان في كلّ حركاته وسكناته، ولا سيما للباحثين عن الحق والحقيقة والراغبين في العمل الصالح، وذلك لأن الكمال لا يُنال الا بالاستعانة بالقوي العزيز، القادر على انقاذ الانسان من

المخـاطر التي تعتـرض طـريقه من قطـاع الطريق والاعداء الألداء، ينصبون له الشراك ويقيمون السدود ويزرعـون العقبات.. وما اكثرهـم!!

فـالنفس الامـارة بالسـوء من جـانب، والشهـوات والعقبات الطبيعيـة من جـانب، وشـياطيـن الانس والجن يحـوطونـه من كلّ حـدب وصـوب، فكيف لـه وهـو الضـعيـف العاجـز أن يفلت من كـلّ هؤلاء الاعـداء لولا كلاءة الله وحراسته.

ويكفيك مـن أهميـة الاستعـاذة أن الله سبحـانه أمـر نبيه الكـريم ــ وهو أشـرف الخلق وأكملهم ـ بها، فقال عز من قائل:

﴿وقـل ربّ أعـوذ بك مـن همـزات الشياطين﴾ (المؤمنون: ٩٧).

الهوامش

(*) اعتمدنـا في المعلومـات الخاصـة عن حيـاتهـا على كتـاب «بـانـوى مجتهـد ايراني» للسيّد ناصر البيد هندي.

(١) مخزن العرفان ١ : ٤.

(٢) انظر مخزن العرفان ١ : ٤.



الاشاعة: رؤية قرآنية (٣)
كيف تعامل القرآن مع أساليب الحرب الدعائية ؟

الأستاذ حسن الصعيد

استعرضنا، في القسمين الأولين من هذا البحث، نماذج منتقاة من صور التثبيط والارجاف والتخذيل، ورأينا كيف استطاع المشركون واليهود والمنافقون، وكل منْ له مصلحة في مقاومة تيار الاسلام، أن ينظموا حرباً للشائعات، تنشر موجاتها، متلاحقة تستهدف تحطيم وحدة الصف المسلم، وزعزعة ثقة المسلمين بعقيدتهم من جانب، وبقيادتهم ممثلة في شخص رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلّم، من جانب آخر، وذلك عن طريق التشكيك في كل شيء، واختلاق الأكاذيب والافتراءات، وترويجها بين الصف المسلم[1].

وواضح ان اليهود قد لعبوا دوراً خطيراً في هذه الحرب النفسية، التي لم تضع أوزارها قط حتى اليوم.. وكان لكل طائفة منهم شأن مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ونظرة سريعة، على الخط البياني لمحاولات اليهود، على هذا الصعيد، تقودنا الى هذه النتيجة وهي، أنها (أي الحرب) قد بدأت في أول الأمر حرباً باردة، بتعبير أيامنا هذه. بدأت حرب دعاية ضد الرسول عليه الصلاه والسلام، وضد الاسلام. واتخذوا في الحرب أساليب شتى ممّا عُرف به اليهود في تاريخهم كله. اتخذوا خطة التشكيك في رسالة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم والقاء الشبهات حول العقيدة الجديدة، واتخذوا طريقة الدس بين بعض المسلمين وبعض. وبين الأوس والخزرج مرّة، وبين الأنصار والمهاجرين مرّة، واتخذوا طريقة التجسس على المسلمين لحساب أعدائهم من المشركين. واتخذوا طريقة اتخاذ بطانة من المنافقين الذين يظهرون الاسلام يوقعون بواسطتهم الفتنة في صفوف المسلمين..

وأخيراً أسفروا عن وجوههم واتخذوا طريق التأليب على المسلمين، كالذي حدث في غزوة الأحزاب[٢]..

حقائق أساسية:

وإذا ما تأملنا الآيات الكريمة التي تحدثت عن الخبر والاشاعة والأراجيف والتضليل والحرب الدعائية المضادة التي تستهدف ارباك الرأي العام، وتضليل الانسان، وهدم التماسك السياسي والفكري والاجتماعي والنفسي للمجتمع، نستطيع ان نستنتج عدّة حقائق أساسية في هذا الشأن. واذن فلنعد قراءة الآيات والوقوف أمامها مرة أخرى[٣]:

﴿ويقولون إنه لمجنون﴾[٤].

﴿قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾[٥].

﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلتْ من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي اللهُ الشاكرين﴾[٦].

﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه الى الرسول والى أُولي الأمر منهم لعَلِمه الذين يستنبطونه منهم ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلاّ قليلا﴾[٧].

﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك أُبتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً * واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً * واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا ويستاذن فريق منهم النبيَّ يقولون إنَّ بُيُوتَنا عورةٌ وما هي بعورة إنْ يريدون إلاّ فراراً..﴾[٨].

﴿قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لاخوانهم هلُمّ الينا ولا يأتون الباس إلاّ قليلاً * أشحّةً عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ أشِحّةً على الخير اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإنِ يأتِ الأحزابُ يودّوا لو أنهم بادون في الاعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلاً﴾[٩].

﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً واثماً مبيناً﴾[١٠].

﴿لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في

قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم ثم لا يجاورنك فيها إلاّ قليلاً * ملعونين اين ما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلا سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾(١١).

﴿ان الذين جاءوا بالافك عُصبةٌ منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىءٍ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم..﴾(١٢).

﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خَبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبلُ وقلّبوا لك الامور حتى جاء الحقُّ وظهر أمر الله وهم كارهون﴾(١٣).

﴿يا أيّها الذين آمنوا انْ جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا أنْ تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتُصبحوا على ما فعلتُمْ نادمين﴾(١٤).

إن قراءة هذه الآيات والتفحّص فيها يوصلنا الى عدّة قضايا أساسية هي:

أولاً: انّ هذه الشائعات، ورغم نجاحها الوقتي في بلبلة الأفكار، أثبتت اخفاقها الذريع في مواجهة رسالة السماء، فضلاً عن أنها كانت تمنيات تراود أعداء الاسلام، والتمنيات رأس مال المفلسين: **﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين﴾**(١٥).

ثانياً: كان أعداء الاسلام يتخيرون أحرج المواقف، لنشر شائعات مسمومة، يهدفون منها الى تحطيم قوة المسلمين المعنوية وتثبيط هممهم، وذلك أثناء القتال أو الاستعداد له.. ومن ذلك تلك الشائعة الخطيرة التي نُشرت بين المسلمين، من جانب أعدائهم، أثناء القتال في غزوة أحد، بأن محمداً صلّى الله عليه (وآله) وسلّم قد قُتل.. وكان لهذه الشائعة أثر كبير في الهزيمة، التي لحقت بالمسلمين في تلك الغزوة.. وكذلك ما أشاعه المنافقون لتوهين المسلمين وتخذيلهم، في غزوة الأحزاب، عندما عظم البلاء، وجاءهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر.. ومن ذلك أيضاً ما أشاعه المنافقون بين المسلمين، وهم يتهيأون لقتال الروم في تبوك، من تثبيط معنوي، ادّى الى تخلّف عدد من المسلمين عن السفر، مع رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلّم في تلك الغزوة(١٦).

ثالثاً: ان الاشاعات والأكاذيب التي تستهدف سمعة المؤمنين والنيل من كرامتهم واسقاط شخصياتهم هي بهتان

واثم، وهي من كبائر الذنوب وأسوأ الأخلاق، وأحط الأساليب.

وقد كشفت لنا الآية (٥٨) من سورة الأحزاب، دور اولئك الذين يعملون في الظلام، لصناعه الافتراء والتهم والأباطيل، والصاقها بالمؤمنين، ليضعف موقعهم الاجتماعي والسياسي ودورهم الرسالي، واخراجهم من ساحة التأثير والفاعلية الاجتماعية.

وقد برعت، في العصر الحديث، أجهزة التجسس والاستخبارات والحرب الدعائية، في تصميم الاشاعات، وافتعال ما يسيء للسمعة والاسقاط، وجنّدت لذلك جهوداً دعائية وخبرات وعناصر كثيرة، صوّرت فيها المخلصين عملاء ومشبوهين ومخرّبين، والعملاء والمخربين والجواسيس أبطالاً وشخصيات طلائعية، بل وتلاعبت بالألفاظ والمصطلحات، فسمّت الخمور مشروبات روحيّة، والباغيات الراقصات نجوم الفن، ودعاة الخير رجعيين و... الخ.

رابعاً: سمّى القرآن اولئك الذين يصممون الاشاعات والدعايات، التي تحاول اضعاف موقف الأمة السياسي، أو العسكري، او الاقتصادي، أو الحضاري، ويقومون بنشر الاشاعات والأباطيل والأراجيف الكاذبة، مرضىٰ القلوب، نظراً لما في قلوبهم من غش وخديعة، ورغبة في الهدم والتخريب، وتغيير للحقائق وقلب لها.

خامساً: ان الغرض من هذا العمل الدعائي المخرّب هو اختراق الصفوف، ونشر الفتنة، عن طريق زرع العملاء والجواسيس، وبث الاشاعات والأراجيف، والتأثير على ضعاف النفوس، وارباك الموقف الاسلامي، واضعاف مقاومة الأمة والجماعة المؤمنة.

سادساً: وفي آية النبأ، يثبّت لنا القرآن القاعدة الأساسية، في قبول الخبر والرواية والاشاعة، فينهانا عن تصديق الاشاعات والأخبار، وتحريم نشرها، إلّا بعد التأكّد من صحّة مصدرها وصدق حدوثها، بل يلزمنا بالبحث والتحرّي، والتأكد من التهم والاشاعات.

سابعاً: ان عاقبة الانسياق وراء الأخبار الكاذبة والأراجيف والاشاعات المغرضة هو الندم، وان الانسياق وراءها يعبّر عن حالة من السفه، وخفّة العقل، والهلع الذميم، وهي ليست من صفات الانسان المسلم الملتزم، والعاقل الواعي الذي يملك الوضوح والتمييز(١٧).

موقف القرآن من الشائعات:

لو تسنّى لنا ان نواكب موقف القرآن، من مثيري الأراجيف والاشاعات، ومن منطلق تاريخي لوجدنا أن القرآن الكريم اهتم اهتماماً بالغاً بالمواجهة الاعلامية، للتعريف بالمواقف، وايصال المعلومات الصادقة، وتحصين الرأي العام، وحمايته من التخريب والحرب النفسية، وتوجيهه الوجهة السليمة[١٨].

وبهذا الخصوص لم ينزل القرآن الكريم بالتوجيهات للمسلمين جملة واحدة. وانّما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات والامتحانات، فقد علم الله ان هذه الخليقة البشرية لا تُصاغ إلاّ بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية، التي تحفر في القلوب، وتنقش في الأعصاب، وتأخذ من النفوس، وتعطي في معترك الحياة ومصطرع الأحداث. فالقرآن ينزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقه ما يقع ودلالته، ويوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة، ساخنة بحرارة الابتلاء، قابلة للطرق، مطاوعة للصياغة[١٩].

كل ذلك تم وفق المنهج الرباني، في عملية التغيير الاجتماعي، التي تتبع سنّة التدرّج التكاملي. وعندما نستقرىء آيات القرآن التي تحدثت عن المواجهة الاعلامية، واسلوب التعامل مع الدعاية المضادة، تجد القرآن قد ركّز على أساليب أساسية عديدة، منطلقاً من أسس نفسيّة وموضوعية بالغة الأهمية، لتكوين الدوافع وكسب الاستجابة والموقف، وأهم هذه الأسس هي[٢٠]:

أولاً: الفضح

لعب المنافقون دوراً بارزاً في بث الاشاعات داخل الصف المسلم. وقد عايش الاسلام هذا النموذج، في عصره الأول، وعانى منه الكثير في الدس والتضليل واللف والدوران.. مما كان يشارك في عملية ارباك الحياه الاسلامية، في حركة المجتمع الاسلامي، في الداخل والخارج.

ان قضية الكفر كقضيه الايمان تمثّل موقفاً حاسماً في حياة الانسان باعتبارها تحديداً واضحاً للموقف ازاء ما يطرح من قضايا العقيدة والحياة.. اما المنافقون.. فهم الذين يعيشون ازدواجية الموقف بين ما يضمرونه، في داخل انفسهم، وبين ما يظهرونه أمام الناس.. مما يجعل من اكتشافهم ومعرفتهم عملية معقدة.. لأنها تحتاج الى رصد دقيق لأقوالهم وأفعالهم، لمواجهة العوامل القلقة، التي تتحرك في سلوكهم، لتحرّك حياتهم العامه والخاصة.

وقد يكون هذا هو اليبسب الذي جعل القرآن الكريم يواجه هذا النموذج القلق..

بعدّة آيات تتوفر على ملاحقة مظاهر النفاق، في كلماتهم التي يواجهون بها الناس، وشعاراتهم التي يطرحونها، ومواقفهم العملية التي يقفونها في حياه المجتمع.. ليسهل على الناس كشف واقعهم، من اجل التخلص من ضررهم في الحاضر والمستقبل[٢١].

وهكذا صدح القرآن الكريم، منذ وقت مبكر، منبرياً لكشف زيف هؤلاء: **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون * ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزؤون * الله يستهزيء بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون..﴾**[٢٢].

ففي هذه الآيات الكريمة فضح لصورة هذه الفئة المتسترة، صورة النفس الملتوية المريضة المعقدة القلقة، على ان هذه الاطالة توحي، كذلك، بضخامة الدور الذي كانوا يحدثونه، كما توحي بضخامة الدور، الذي يمكن ان يقوم به المنافقون، في كل وقت، داخل الصف المسلم، ومدى الحاجه للكشف عن ألاعيبهم ودسهم اللئيم[٢٣].

ثانياً: التفنيد والتحصين:

لم يكتفِ الخطاب القرآني باسلوب فضح الآخر، وتحديد سماته، وانما ينتقل الى خطوة مهمة اخرى، وهي تفنيد الاساليب الدعائية وتعريتها، وفق ما يسمى اليوم بلغه العصر «الاعلام والاعلام المضاد».

ومن هنا ركّز القرآن، على كشف الزيف، وتعرية الاشاعة والدعاية المضادة، وبيان الكذب والتناقض فيها، لاسقاط فاعليتها، وتوجيه رد الفعل ضد مروّجيه[٢٤] وهذا مما يساعد على مقاومة الاشاعة، ووأدها في مهدها، ولا ننسى ان التوعية أمر اساس، في مقاومة الاشاعة وتفنيدها بالاستناد الى الحجج والبراهين المنطقية، والحقائق الواقعة التي تحصّن الناس، ضد سموم الشائعات، التي يروّجها الاعداء والمرجفون.. واشاعة الثقة في الناس، وتنمية الوعي العام.

ودليلنا في ذلك: ان رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلّم، قد لجأ الى هذا الاسلوب مراراً عديدة، عندما كان أعداء الاسلام يثيرون الفتن، وينشرون الشائعات.. ومنها على سبيل المثال:

عندما مر شاش بن قيس اليهودي على قوم من الأوس والخزرج، وغاظه ما رأى من صلاح ذات بينهم على الاسلام، فأمر فتى يهودياً مثله أن يجلس معهم ويذكّرهم بيوم بعاث[٢٥] الذي اقتتل فيه الأوس والخزرج ،قبل الاسلام، وما زال الفتى بهم حتى تناوروا للحرب، وكاد يقع بينهم الصدام.. فلما بلغ ذلك الى رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلّم جاءهم وخطب فيهم قائلاً: «يا معشر المسلمين! الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد ان هداكم الله للاسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف بين قلوبكم».. ومن هذه الكلمة البليغة عرف القوم انها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، وانصرفوا مع رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلّم، سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم[٢٦].

وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى: **﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله مْن آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون * يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تُتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم﴾**[٢٧].

والخطاب القرآني صريح في تنديده بأهل الكتاب، كصراحته في تحذير المؤمنين من مغبّة الاستسلام الساذج لأساليب الأعداء.. وتلك هي الخسارة الكبرى التي ينبغي ان يتفاداها المسلمون بالمزيد من الوعي والتفكير، فيما يحيط بهم من اجواء الكفر والكافرين، وفيما يسمعونه من آيات الله التي تفتح قلوبهم على الحق، وعيونهم على الواقع، ومسيرتهم على الصراط المستقيم، فاذا اشتبه عليهم شيء، من شؤون الفكر والعمل، فان رسول الله يعيش بينهم.[٢٨].

والمتتبع لآيات القرآن يجد، في أكثر من موقع، هذه العملية المزدوجة: تفنيد وتعرية اشاعات أعداء الاسلام، وتحصين المسلمين من سمومهم، بتعزيز الثقة في نفوسهم، وتنمية الوعي بين صفوفهم:

﴿يا ايها الذين آمنوا إنْ تطيعوا الذين كفروا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير

الناصرين﴾[٢٩].

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم قد بدتِ البغضاءُ من أفواهِهم وما تخفي صدورُهم أكبرُ قد بيّنا لكم الآيات ان كنتم تعقلون﴾[٣٠].

﴿يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم وما أُنزلتِ التوراة والانجيل إلاّ من بعده أفلا تعقلون * ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون﴾[٣١].

﴿أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مُفتَرياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين * فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أُنزل بعلم الله وأنْ لا اله إلاّ هو فهل أنتم مسلمون﴾[٣٢].

﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أنْ لن يُخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأَريناكهم فَلَعَرَفْتَهم بسيماهم ولَتَعرفَنَّهم في لَحْنِ القول والله يعلم أعمالكم﴾[٣٣].

﴿يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحقَّ بالباطل وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون﴾[٣٤].

وهكذا يدعو القرآن الى استخدام الاعلام القائم، على أساس محاكمه الخصم، وتحديه، وكشف تناقضه، وتآمره، وكذبه، وتضليله، ممّا يعرّيه أمام الرأي العام، ويشكّل الحواجز بينه وبين المساحة البشرية التي يسعى للتأثير عليها، فيفقد ثقتها وتجاوبها معه[٣٥] ومن ثم تأتي عملية البناء الايجابي بعد الانتهاء من عملية الهدم، وبذا تتم المزاوجة الرائعة بين العمليتين، في وقت واحد، وهذا من الاساليب القرآنية الفذّة، في العملية التربوية: الهدم والبناء، وبعبارة أخرى: تفنيد حجه الخصم وتسفيهها.. ومن ثم تعزيز الثقة بالمنهج الرباني، والحث على الالتصاق به.

ثالثاً: التسقيط:

وحينما لا تجدي أساليب المحاججة المنطقيّة مع مرضىٰ القلوب، ينتقل الخطاب القرآني الى خطوة أخرى، فيستخدم اسلوباً اعلامياً آخر ذا فاعلية نفسيّة، لهز الخصم من داخله، واشعاره بتفاهة شخصيته ومواقفه، ليكوّن الهزيمة في اعماقه النفسية، ويسلب منه الروح المعنوية والقدرة على المواجهة، بتوجيه الخطاب اليه، كطرف هزيل، يوضع موضع الاستهزاء والسخرية، نلاحظ ذلك واضحاً في خطابه للمكذبين، ولاعداء الدعوة عندما يقول لهم[٣٦].

﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم

فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً﴾[٣٧].

﴿مثلُهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾[٣٨].

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم أضلّ اولئك هم الغافلون﴾[٣٩].

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدّة ولكن كره اللهُ انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خَبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني الا في الفتنة سقطوا وان جهنم لَمُحيطة بالكافرين * انْ تصبْك حسنةٌ تسؤْهم وإنْ تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا إلاّ احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بايدينا فتربصوا إنّا معكم متربصون * قل انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين * وما منعهم أن تُقْبلَ منهم نفقاتهم إلاّ أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاةَ إلاّ وهم كسالى ولا ينفقون إلاّ وهم كارهون * فلا تعجبك أموالُهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذّبَهم بها في الحياه الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرُقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخلاً لولوا اليه وهم يجمحون﴾[٤٠].

والسياق يتحدث عن جماعة المنافقين الذين اندسوا في صفوف المسلمين باسم الاسلام.. فرأى هؤلاء ان حب السلامة وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للاسلام، وأن يكيدوا له داخل الصفوف، بعد أن عزّ عليهم ان يكيدوا له خارج الصفوف..

ولقد كان اولئك المنافقون يدسّون أنفسهم في الصف لا عن ايمان واعتقاد، ولكن عن خوف وتقيّة، وعن طمع ورهب، ثم يحلفون أنهم من المسلمين، أسلموا اقتناعاً، وآمنوا اعتقاداً..

فهذه السورة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم، فهي الفاضحة التي تكشف رداء

المداورة، وتمزقّ ثوب النفاق.. وانها لصورة زرية للجبن والخوف والملق والرياء لا يرسمها إلاّ هذا الاسلوب القرآني العجيب الذي يبرز حركات النفس شاخصة للحس، على طريقة التصوير الفني الموحي العميق[٤١].

وبهذه الصورة المعبرة الساخرة يمضي السياق القرآني لاسقاط ظاهرة النفاق، في عيون الأمة، عبر توظيف رائع لمظاهر الخلل، في النفسيّة المهزوزة والقلقة، لأقطاب النفاق.

رابعاً: الاهمال والتجاهل

ومن وسائل الحرب النفسية والمواجهة الاعلامية التي استخدمها القرآن، هو اسلوب الاهمال وعدم الاعتناء بالخصم، وليشعر بعدم قدرته على اثارة الطرف الاسلامي، وضعف موقعه وضآلة قدره، كجزء من الحرب النفسية، والاسقاط الاجتماعي التي يشنها الاعلام الاسلامي ضده، وعندما يكون الاهمال، وعدم الدخول في حرب كلامية هو الاسلوب الأفضل للموقف والقضية. ويتجسد هذا المبدأ، في العديد من الآيات، كقوله تعالى:[٤٢].

﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾[٤٣].

﴿واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[٤٤].

﴿واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالُنا ولكم اعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[٤٥].

﴿وقيله يا ربّ إنّ هؤلاء قومٌ لا يؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلامٌ فسوف يعلمون﴾[٤٦].

﴿ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عَدْواً بغير علم كذلك زيّنا لكل أمةٍ عملهم ثم الى ربِّهم مرجعهم فيُنَبِّئُهُمْ بما كانوا يعملون﴾[٤٧].

ومن المبررات المنطقيّة لتجاهل الاشاعة التي يبثها الخصم، هو أن محارب الاشاعة قد يواجه موقفاً حرجاً ويقع في ورطة، فلو سكت عنها تزداد انتشاراً، ولو حاول تكذيبها ـ وهذه أكثر الطرق استخداماً ـ إلاّ أنها ليست الطريقه المثلى ،لأن تكذيبها يتضمن الاعلان عنها، وسيجعل من لم يسمع هذه الشائعة يسمعها عن طريقه هو، فوق أنه بذلك يكررها ويرددها ،وهناك أناس يصدقون الشائعات ولا يصدقون تكذيبها.. ولذلك فان الوسيلة المثلى لتكذيب الشائعة، أن يكون التكذيب بطريق غير مباشر، دون أن يعيد ذكر الشائعة، أو يكشف مصدرها، وقصد مروّجها منها،

وهـذا يتطلـب مهـارة ممّـن يتصـدى لهـذه المهمة[٤٨].

خامساً: الاستمالة

ويستخـدم القـرآن اسلـوبـاً نفسيـاً وجدانياً مؤثراً، فـي الطرف المتلقي، بتوجيه الخطاب الليّـن والكلمة الجذّابـة، والاستهواء المـؤثـر اليه. ومـن الآيـات التي حثت على استخـدام هـذا الاسلـوب، فـي المـواجهـة الاعلامية، قوله تعالى:

﴿ادعُ الـى سبيـل ربّـك بـالحكمـة والموعظـةِ الحسنةِ وجـادلهُمْ بـالتي هي أحسنُ﴾[٥٠].

ليشعر المتلقي باحترام الاعلام الموجه الـى شخصيتـه، وحسن نيّـة الجهـة التـي تخـاطبه، وحـرصهـا على حفـظ مصالحـه وكرامتـه، لتكوين عـلاقة حسنة بينـه وبين الطرف الـذي يوجه اليه الخطـاب الاعلامي، فيكسـب وده وثقتـه، ويتقبـل أفكـاره وخطابه[٥١].

وفي هذا الاتجاه، تأتي دعوه القرآن لهم الى أن يتـركـوا باطلهم، ويعملـوا عقـولهم، ويفكـروا فيمـا يـدعـون اليـه، من الحـق والهدى[٥٢] قال الله تعالى:

﴿أفلا يتـدبرون القرآن ولـو كان من عنـد غيـر الله لـوجـدوا فيـه اختـلافـاً كثيراً﴾[٥٣].

﴿قل إنما أعظكم بواحـدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكّروا ما بصاحبكم من جِنّـة إنْ هـو الا نذيـر لكم بين يَـدَيْ عذابٍ شديد﴾[٥٤].

سادساً: الترهيب والترغيب

ومن أساليب مواجهة الحرب النفسية، والوقاية من كيد العدو، والتأثير النفسي هو اللجوء الى اسلوب الترهيب والترغيب، في آن واحد، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿نبّـيء عبـادي أنّـي أنـا الغفـورُ الرحيم وأنّ عذابي هو العذابُ الأليم﴾[٥٥].

﴿حم تنـزيلُ الكتابِ من الله العـزيز العليم.غـافر الذنب وقـابل التوب شـديد العقـاب ذي الطـوْل لا الـه إلاّ هـو اليـه المصير﴾[٥٦].

﴿ان الذين كذّبوا بآياتِنا واستكبروا عنهـا لا تفتـحُ لهـم أبـوابُ السمـاءِ ولا يدخلون الجنّـه حتى يَلِجَ الجملُ في سَمّ الخياط وكـذلك نجزي المجـرمين * لهم من جهنم مهاد ومن فـوقهم غواشٍ وكذلك نجزي الظـالمين * والذين آمنـوا وعملوا الصالحات لا نكلّفُ نفساً إلاّ وسعَها اولئك أصحاب الجنة هم فيها خـالدون ونزعنا ما في صدورهم من غلّ تجري من تحتهم

الانهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونُودوا ان تلكم الجنة أورِثتُموها بما كنتم تعملون﴾[٥٧].

﴿اعلموا أنّ الله شديدُ العقابِ وأنَّ الله غفورٌ رحيم﴾[٥٨].

﴿ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم﴾[٥٩].

وفي هذه الآيات الكريمة وغيرها كثير، نجد ان الخطاب القرآني اعتمد هذا الاسلوب النفسي الفريد، وبخصوص النصيّن الاخيرين يتجلى الموقف بشكل حاسم وموجز: فمع التحذير ايحاء والقاء للتبعة على المخالف الذي لا يثوب[٦٠] وغالباً ما يرد هذا النوع، من أنواع التأثير النفسي، بعدما يذكر الله تعالى انواع رحمته بعباده، ليذكر - أيضاً - أنه شديد العقاب، لأن الايمان لا يتم إلاّ بالرجاء والخوف ،كما قال عليه الصلاه والسلام: «لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لا عتدلا» ثم ذكر عقيبه ما يدل على الرحمة، وهو كونه غفوراً رحيماً، وذلك يدل على أن جانب الرحمة أغلب، لأنه تعالى ذكر فيما قبل أنواع رحمته وكرمه، ثم ذكر أنه شديد العقاب، ثم ذكر عقيبه وصفين من أوصاف الرحمة، وهو كونه غفوراً رحيماً، وهذا تنبيه على دقيقة، وهي ان ابتداء الخلق والايجاد كان لأجل الرحمة، والظاهر أن الختم لا يكون إلاّ على الرحمة[٦١].

وفي معرض تفسيره للآية ما قبل الأخيرة، يشير الشيخ الطوسي الى لفتة اعلامية مهمة، ولعلها تعتبر من صلب الأهداف، التي تتوخاها أساليب الحرب النفسيه في عصرنا هذا، ونقصد بها الاهانه المقترنة بالاستخفاف للطرف الآخر، في حال اصراره على عناده وغيّه. يقول الطوسي:

«والعقاب هو الضرر المستحق على جهة الاهانة والمقارن بالاستخفاف، ولو اقتصرت على أن تقول هو الضرر المستحق أو الضرر الذي يقارنه استخفاف واهانة لكان كافياً، لأنه يستحق عقيب الذنب الواقع من صاحبه».

وأما عن الوجه الاخر للمعادلة فيقول عنه صاحب التبيان:

«وقوله: ﴿وان الله غفور رحيم﴾.. المغفرة: هي ستر الخطيئة برفع عقابها، وأصلها الستر، ومنه المغفرة، وضم ذكر الرحمة الى المغفرة، لبيان سبوغ نعم الله تعالى»[٦٢].

وهكذا يوجه القرآن خطابه الى الطرف الآخر، ليشعره بهذا المبدا المتوازن: الترهيب والترغيب، لكي يهز قناعاته ويربكه

نفسياً، دون أن يتركه نهباً لليأس والقنوط، أو الخوف فقط، وانما يفتح له نافذة من الامل والرجاء، عبر التعريج مباشرة على الترغيب.

سابعاً: اليقظة والحذر والتبيّن:

إن هذه المفردات الثلاثة (اليقظة والتبيّن والحذر) بكّل ما تعنيه من توثّب، وأخذ حيطة، وترقب، وتصرّف بحكمة، والعمل بمقتضى ما يتلاءم مع كل حالة هي من أهم أساليب مواجهة الحرب النفسية، ومتى ما توفرت، في الوسط الاجتماعي، تكون نتيجة ما يبثه الاخرون، من اشاعات وأراجيف هي الفشل المحتم، وفي حالة افتقار الوسط الاجتماعي لهذه المفردات فسيكون ساحه مفتوحة للعدو، يعبث بها ما يشاء، عبر أساليبه النفسية المتنوعة.

وباختصار شديد: ان المطلوب من الأمة المسلمة أن تتسم باليقظة، والتبيّن، والحذر، وهذا هو ما يعبر عنه بمصطلح اليوم بـ (الوعي)، وعليه يمكن وصف هذه الامّة أو تلك الجماعة بالأمة أو الجماعة الواعية، وبعكسه نصفها بالأمة غير الواعية.

وقد حاول الخطاب القرآني، ومنذ وقت مبكر، بث الوعي الرسالي، في صفوف الجماعة المؤمنة، والتي بدورها ما رسته في جموع الأمة، وبذا ارتقت هذه الامه الشاهدة مكانها المرموق: **﴿وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطاً لتكونوا شُهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكمْ شهيداً﴾**[٦٣].

وتمثل بث الوعي بمايلي:

أ- التبيّن:

في اطار التوعية والتوجيه، وتثبيت اسس التعامل مع الخبر والاشاعة، أرسى القرآن الحكيم قاعده أساسية في هذا الشأن بقوله:

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنبإٍ فَتَبيّنوا ان تُصِيبوا قوماً بجَهالةٍ فتُصبِحوا على ما فعلتُمْ نادمين﴾[٦٤].

فبعد حادثة تاريخية استهدفت تزوير الحقيقة وتزييفها، نزلت هذه الآية المباركة؛ لتوضّح للمسلمين ضرورة التثبّت، وعدم التسرّع في استقبال الخبر والرواية وتصديقهما، والاعتماد عليهما، وتقرير الموقف بناء على ما جاء بهما، اذا كان ناقل الخبر مجهولاً، أو فاسقاً، ومروّج الاشاعة غير مأمون، على نقل الخبر، وحمل الرواية.

ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن ابي معيط، بعثه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الى بني المصطلق،

فخرجوا يتلقونه فرحاً به، وكانت بينهم عداوة في الجاهلية، فظنّ أنهم همّوا بقتله، فرجع الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقال انهم منعوا صدقاتهم، وكان الأمر بخلافه فغضب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وهمّ أن يغزوهم فنزلت الآية عن ابن عباس ومجاهد وقتاده[٦٥].

لقد كانت هذه الآية وما زالت موضع اهتمام المفسرين، وعلماء الرواية، واصول الفقه، لتطرقها لموضوع هام، في حياة المسلمين وهو كيفية قبول الرواية وتصديقها.

وفي هذه الآية يثبّت لنا القرآن القاعدة الأساسية، في قبول الخبر، والرواية ،والاشاعة فينهانا عن تصديق الاشاعات والأخبار، وتحريم نشرها إلاّ بعد التأكد من صحة مصدرها، وصدق حدوثها، بل يلزمنا بالبحث، والتحرّي والتأكّد، من التهم والاشاعات[٦٦].

وفي ضوء ذلك تضع هذه الآية الكريمة معالم كاملة لعالم رفيع نظيف، عالم له منهجه في التثبّت من الأقوال والأفعال والاستيثاق من مصدرها، قبل الحكم عليها، أو نشرها أو اذاعتها. فهذا نداء للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء؟ وكيف يتصرفون بها؟ ويقرر ضرورة التثبّت من مصدره[٦٧].

وأيّاً كان سبب النزول، فان الآية عامه مطلقة، وتحذّر المسلمين من الانباء الكاذبة التي يُرجف بها المرجفون، ليشيعوا في المسلمين قالة السوء، وليوغروا بها صدورهم، على أهل الايمان والسلامة فيهم، وان هذا من شأنه، لو وقع موقع القبول والتسليم من المؤمنين، من غير تبصرّ أو تمحيص، لافسد عليهم أمرهم، ولنزع الثقة والطمأنينة من بينهم[٦٨] ولهذا شدّد الخطاب القرآني على أن عاقبة الانسياق، وراء الأخبار الكاذبة والأراجيف والاشاعات المغرضة ،هو الندم، وأن الانسياق، وراءها، يعبرّ عن حالة من السفه، وخفّة العقل والهلع الذميم، وهي ليست من صفات الانسان المسلم الملتزم، والعاقل الواعي الذي يملك الوضوح والتمييز.. كما ذكرنا آنفاً..[٦٩].

ومن المعالم التي لفت اليها القرآن الكريم في باب «التبيّن» هو تجنّب ترديد الاشاعات ونشرها بين الناس، وضرورة ابلاغ المسؤولين بها، فور سماعها، وبذلك يقضي على الشائعات في مهدها، وتقف مباشرة عند الشخص الذي يبلغ المسؤولين عنها لا تتعداه، حيث يأتيه التوضيح السليم من المسؤولين الذين أبلغهم بالشائعات[٧٠] ومن ذلك قوله تعالى: **﴿واذا جاءهم أمر منِ الأمن أو الخوف أذاعوا بـه ولو ردّوه الى**

الـرسـول والى أولـي الأمـر منهم لَعَلِمَـه الذين يستنبطونه منهم﴾[٧١].

ب ـ عدم افشاء أسرار المؤمنين:

اهتم القـرآن الكريم بـالمحافظـة على اسـرار المـؤمنين وعـدم افشـائهـا للعـدو، منطلقاً من أسـس نفسية وموضـوعية، ومن هنا تـأتي ضرورة بـث الوعي، الهـادف في الصف المسلم، لما في هذا من ارباك لنفسية العـدو، وإحباط لكيـده، حيـث يتعذر عليـه معرفـة ما لا يجـوز له أن يعرفـه، فتخطيء تقديـراته. وتفشل تصـرفاته، وقـد حذّر الله المؤمنين، من افشاء الأسرار للعدو، فقال الله عزوجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والـرسـول وتخـونـوا أمـانـاتكم وأنتـم تعلمون﴾[٧٢].

ممـا روي في سبب نـزول هذه الآيـة الكريمـة: انها نـزلت في أبي لُبـابة بـن عبد المنذر، وذلك ان النبي صلّى الله عليه (وآله) لما حاصر قـريظة سألوه أن يصـالحهم على ما صالح عليه بني النضير، على أن يسيروا الى أرض الشـام، فأبـى ان يعطيهم ذلـك إلاّ أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا، ثم انهم بعثوا الـى رسـول الله صلّى الله عليـه (وآله): أن ابعث الينا أبا لُبابة (وكان أهله وولده فيهم)، لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله صلّى الله عليه (وآله) اليهم، فلما رأوه قام اليه الرجال، وجهش اليـه النساء والصبيـان يبكـون في وجهه فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لُبابة!

أترى أن ننـزل على حكم محمـد؟ قال: نعم، وأشار بيده الى حلقه[٧٣]، أي إنه الذبح فلا تفعلوا، فكان ذلك منه خيانه لله ورسوله.

وقيـل: ان البعض كـانـوا يسمعـون الشـيء من النبي صلّى الله عليه (وآله) فيشقونه ويلقـونه الـى المشركيـن، فنهاهـم الله عن ذلك[٧٤].

ويمضي الخطاب الى ملاحقة الموقف، مشخصاً بعـض حالات الضعف البشـري، ازاء الأمـوال والأولاد مـؤكـداً بـأنهـا فتنـة: ﴿واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾[٧٥] وقد قال ابـن عباس: هذا خطاب لأبي لبـابة، لأنه كانت له أموال وأولاد عند بني قريظة.

فـأمّـا الفتنـة فـالمـراد بهـا الابتـلاء والامتحـان الذي يُظهـر مـا في النفـس، من اتباع الهوى أو تجنبّه ﴿وإنّ الله عنده أجرٌ عظيم﴾ خير من الأموال والأولاد[٧٦].

ومـرّة أخرى يعـاود الخطاب القـرآني للتحذير من مغبّة افشاء الاسرار الى العدو، وذلك تحـت ضغوط نفسيّـة تتعلق بـالأولاد والأرحام، وينبري هنا حـاطب بن ابي بلتعة نموذجاً لمن يشي بأسرار الجماعة المسلمة الى مشـركي قريـش، في حادثـة تاريخيـة

معروفة فنزلت الآيات المباركات: **﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تَتّخذُوا عَدوّي وَعدوُكمْ أولياءَ تُلْقُونَ اليهمْ بِالمَوَدّةِ وقَدْ كفروا بما جاءَكُمْ من الحقِّ يُخرِجُونَ الرسولَ وايّاكم أن تؤمنوا باللهِ ربِّكُمْ إنّ كنتمْ خَرَجْتُمْ جهاداً في سَبيلي وابتغاء مرضاتي تُسرونَ اليهم بالمودّةِ وأنا اعلمُ بما أخْفَيتُمْ وَمَا أعْلَنتُمْ ومَنْ يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فقدْ ضلَّ سواءَ السَّبيلِ * إن يَثْقَفُوكُمْ يكونوا لكُمْ أعداء ويبسطوا اليكم ايْدِيَهُمْ وألْسِنَتَهُمْ بالسُّوء وودّوا لو تكفرونَ * لنْ تنفعَكُمْ أرحامُكُمْ ولا أولادكُمْ يومَ القيامةِ يَفْصِلُ بَيْنكُمْ واللهُ بما تعملون بصير﴾**[٧٧].

والقصة باختصار ان الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم حين عزم على أن يدخل مكة بغتة، فسأل الله أن يعمي أخبارهم على قريش ومنع أحداً أن يخرج من المدينة الى مكة، فكتب حاطب بن ابي بلتعة الى أهل مكة يعلمهمْ بذلك، فاوحى الله تعالى الى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بذلك.. وأنزل هذه الآيات يخاطب فيها المؤمنين، وينهاهم ان يتخذوا عدو الله من الكفار وعدو المؤمنين أولياء، يوالونهم ويلقون اليهم بالمودّة..[٧٨].

حـ - اليقظة.. والحذر:

في كتاب الله العديد من مواطن التحذير للمسلمين ممّا يحيط بهم من مكائد ومخططات. وقد لفت الخطاب القرآني الانتباه الى تلك المخاطر في الوقت المناسب، وكلمّا استدعت الضرورة.

اوّل التحذيرات التي أطلقها القرآن الكريم كانت خاصة باليهود والنصارى، باعتبارهما عدوين ظاهرين: **﴿لَتَجِدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا﴾**[٧٩]، **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتَهم﴾**[٨٠].

وعقب حادثة تاريخية مع اليهود الذين حكمّوا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، في مسالة تخصهم، نزلت الآيات الكريمة: **﴿وأنزلنا اليك الكتابَ بالحقِّ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكمْ بينهم بما انزل اللهُ ولا تَتَّبعْ أهواءَهم عمّا جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكمْ شِرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكنْ ليبلوَكُمْ في ما آتاكمْ فاستبقوا الخيرات الى اللهِ جميعاً فيُنَبّئكم بما كنتم فيه تختلفون * وأن احكُمْ بينهم بما أنزل اللهُ ولا تَتّبِعْ أهواءهم واحذرهم أنْ يفتنوك عن بعض ما أنزل اللهُ اليكَ فان تولّوْا فاعلمْ أنّما يُريدُ الله ان يُصيبهم ببعض ذنوبِهم وأنَّ كثيراً من الناسِ**

لفاسقون﴾[٨١].

والخطاب موجه الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب الذين يجيئون اليه متحاكمين.. ولكنه ليس خاصاً بهذا السبب، بل هو عام.. والى آخر الزمان.. فالتحذير هنا أشد وادق، وهو تصوير للأمر على حقيقته.. فهي فتنة يجب ان تحذر.[٨٢].

وفي موضع آخر يخاطب القرآن المسلمين محذراً ايّاهم من مغبّة عدم الطاعة لله ولرسوله: ﴿وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحذروا فان توليتمْ فاعلموا أنّما على رسولنا البلاغ﴾[٨٣].

والطاعة هي امتثال الأمر، والانتهاء عن المنهي عنه..

وقوله: ﴿واحذروا﴾ أمر منه تعالى بالحذر وهو امتناع القادر من الشيء لما فيه الضرر.

والخوف هو توقع الضرر الذي لا يؤمن كونه.. وقوله: ﴿فان توليتم.. الخ﴾معناه الوعيد والتهديد[٨٤].

وينتقل الخطاب القرآني الى موضع آخر، لكي يحذّر المؤمنين من عدو يقبع داخل بيوتهم، ولربما لم يلتفتوا الى خطورته: ﴿يا أيها الذين آمنوا انّ من أزواجكم وأولادكم عُدوّاً لكمْ فاحْذَرُوهُمْ﴾[٨٥].

قال ابن عباس: نزلت الآية في قوم أسلموا بمكة، وأرادوا الهجرة فمنعوهم من ذلك، وقال عطاء بن بشار: نزلت في قوم أرادوا البر فمنعهم هؤلاء، وقال مجاهد: هي في قوم اذا ارادوا طاعة الله منعهم ازواجهم وأولادهم، فبيّن الله تعالى أنّ في هؤلاء من هو عدو لكم في الدين فاحذروهم فيه[٨٦].

ويذهب الخطاب القرآني الى ابعد مدياته في التحذير من العدو المستتر الذي يتغلغل في صفوف الجماعة المسلمة، وتتكفل سورة (المنافقون) فضح هؤلاء وتعريتهم والتحذير منهم: ﴿اذا جاءك المنافقون قالوا نَشْهدُ إنك لرسولُ الله واللهُ يعلم إنّك لَرسولُه والله يشهدُ إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانَهم جُنّةً فصدّوا عن سبيل الله إنّهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنّهم آمنوا ثم كفروا فَطبع على قُلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تُعجبُك أجسامُهم وإنْ يقولوا تسمعْ لقولهم كأنّهم خُشبٌ مُسنّدةٌ يحسبُون كلّ صيحةٍ عليهم هم العدو فاحذَرْهُمْ قاتلَهُمُ اللهُ أنّىٰ يُؤفكون﴾[٨٧].

وهذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص (المنافقون) الدال على موضوعها.. ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر

المنافق والمنافقين، ووصف أحوالهم ومكائدهم، فلا تكاد تخلو سورة مدنية، من ذكر المنافقين تلميحاً أو تصريحاً، ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين، وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين، وأكاذيبهم، ودسائسهم، ومناوراتهم، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين، ومن اللؤم والجبن، وانطماس البصائر والقلوب..

وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الاول للرسول صلى الله عليه (وآله) وللمسلمين: ﴿**هم العدو فاحذرهم**﴾.. هم العدو الحقيقي: العدو الحقيقي الكامن داخل المعسكر المختبيء في الصف، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح. (فاحذرهم).. ولكن الرسول صلى الله عليه(وآله) لم يؤمر هنا بقتلهم، فاخذهم بخطة أخرى، فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم[٨٨].

وكما هو الحذر مطلوب في وقت السلم، فانه مطلوب أيضاً في وقت الحرب. ولعل أهميته تصبح أكثر في الحالة الثانية. وها هو ذا كتاب الله يرسم للمسلمين جانباً من الخطة التنفيذية للمعركة، المناسبة لموقفهم حينذاك، ولوجودهم بين العداوات الكثيره في الخارج، والمنافقين وحلفائهم اليهود في الداخل، وهو يحذرهم ابتداءً[٨٩] ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذْرَكم فانفروا ثباتٍ أو انفروا جميعاً**﴾[٩٠].

وهذا خطاب للمؤمنين الذين صدقوا بالله، وبرسوله. ومعناه ايقنوا بالله، ورسوله، أمرهم الله ان يأخذوا حذرهم، وقيل في معناه قولان:

أحدهما: قال أبو جعفر عليه السلام وغيره: خذوا سلاحكم، فسمي السلاح حذراً لأن به يقي الحذر.

الثاني: احذروا عدوكم بأخذ السلاح. كما يقال للانسان خذ حذرك بمعنى احذر[٩١].

والمقصود لا تخرجوا للجهاد فرادى. ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة، أو الجيش كله.. حسب طبيعه المعركة.. ذلك ان الاحاد قد يتصيدهم الأعداء المبثوثون في كل مكان. وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداءمنبثين في قلب المعسكر الاسلامي.. وهم كانوا كذلك، ممثلين في المنافقين، وفي اليهود، في قلب المدينة[٩٢].

وفي موضع لاحق، يواصل القرآن الكريم تحذيراته للمجاهدين حتى في حالة وضعهم السلاح، طالباً منهم اليقظة والحذر: ﴿**ولا جناحَ عليكم إنْ كان بكم أذىً من مطرٍ أو كنتم مرضى ان تضعوا أسلحتكم وخُذوا حِذْرَكم ان الله أعدّ للكافرين عذاباً**

مُهيناً﴾[٩٣].

بمعنى: انهم ان كانوا يتأذون من مطر ينزل عليهم، أو كان بعضهم مرضى، فلا مانع من أن يضعوا أسلحتهم، لكن يجب عليهم مع ذلك أن يأخذوا حذرهم ، ولا يغفلوا عن الذين كفروا فهم مهتمون بهم[٩٤].

وهكذا تشدّد الأوامر الالهية على المؤمنين بأخذ الحيطة والحذر: **﴿خذوا حِذْرَكم﴾** أي كونوا متيقظين، وضعتم السلاح أو لم تضعوه. وهذا يدل على تأكيد التأهّب والحذر، في كل الأحوال وترك الاستسلام، فان الجيش ما جاءه مصاب قط إلاّ من تفريط في حذر..[٩٥].

ثامناً: المواجهة

بعد ذلك، ينتقل الموقف مع مروجي الاشاعات والأراجيف الى جولة أخرى، هي الاشد والأعنف والأكثر ضراوة، ونقصد بها مرحلة المواجهة الحاسمة، وقد اتخذت استراتيجية مواجهة الاراجيف أساليب عدّة، الموصول الى أهدافها المنشودة:

أ: التصدي لها منذ البداية واحباطها:

وذلك عبر البحث عن مصادر كل شائعة، عند ظهورها، ومحاولة القضاء عليها من منبعها وقلعها من جذورها، وكشف مروجيها وفضحهم، ومن أمثلة ذلك عندما كان رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلّم منطلقاً ومعه جيش المسلمين الى تبوك، أخذ بعض المنافقين يشيرون اليها ويقولون: أتحسبون جلاد بني الأصفر (يعني الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً! والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال.. وذلك ارجافاً وترهيباً للمؤمنين.. فما كان من رسول الله صلّى الله عليه (وآله) إلاّ أن رأى ضرورة القضاء على هذه الشائعة في مهدها، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم الى عمار بن ياسر: «إدرك القوم، فانهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فان أنكروا فقل: بل قلتم كذا وكذا».. فذهب اليهم عمار وقال لهم ذلك.. فأتوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقالوا: يا رسول الله انما كنا نخوض ونلعب[٩٦].. فانزل الله عزوجل في ذلك: **﴿ولئن سألتهم ليقولن انّما كنا نخوض ونلعب﴾**[٩٧].

ب: تحطيم الرموز المعادية:

تشكّل القيادة والرموز المعادية الهدف الأول للاعلام والحرب النفسية المضادة، ذلك لان الرموز والقيادة هي القوة المركزية، والموّجة الحركي للجماعة والأمة، وكلما كان للجماعة والأمة ثقة برموزها، وتقديس لقيادتها، وارتباط وثيق بها، صعب اختراق الاعلام المعادي لتحصيناتها الفكرية والدعائية، لذا فان مثل هذا الموقف يتطلب،

من الخطاب الاعلامي المضاد، تحطيم الرمز المعادي، وعزل تأثيره، وتدمير الثقة به، ويستخدم القرآن هذا الاسلوب لتعرية المنحرفين، وكشف زيفهم وجناياتهم على الانسانية، وعلى اتباعهم، لفك الارتباط، وتحطيم التاثير النفسي على الرأي العام، لذلك نرى حملته الاعلامية تتصدى لفرعون والنمرود وأبي لهب وللطواغيت والكبراء والمنحرفين والمستكبرين في الارض والملأ المتعاونين معهم، ويتبنى الدفاع عن المستضعفين في الأرض، ليفصل بين القياده المنسلطه وبين الرأي العام، تمهيداً لعملية التلقي، وقبول الخطاب الآخر الذي يوجهه الأنبياء، ودعاة الاسلام، والمصلحون في الارض. قال تعالى:

﴿وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأَضَلّونا السبيلا ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾[98].

﴿إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شِيَعاً ويستضعِفُ طائفةً منهم يُذبّح ابناءهم ويستحيي نساءَهم إنه كان من المفسدين﴾[99].

﴿ويل لكل همزة لمزة * الذي جمع مالاً وعدّده * يحسب أنّ ماله أخلده * كلاّ ليُنبَذنّ في الحطمة * وما ادراك ما الحطمة﴾[100].

﴿تَبّتْ يدا أبي لهبٍ وتبّ * ما أغنى عنه مالُه وما كسب * سيصلى ناراً ذاتَ لهبٍ وامرأتُه حمالةَ الحطب﴾[101].

﴿عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم * أنْ كان ذا مالٍ وبنينَ * اذا تُتلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأولين * سَنَسِمُه على الخرطوم﴾[102].

وهكذا يكشّف القرآن حملته الاعلامية على رموز الجريمة والعدوان، لهدم شخصياتهم، وللاجهاز على دورهم القيادي، وتحطيم الثقة بينهم وبين الاتباع[103].

ح ـ التخويف:

ومن أساليب الحرب النفسية تخويف العدو وارهابه، بما يرى في جيش المجاهدين من امارات القوة، ووسائل الغلب.. وشبيه بهذا ما تقوم به الامم من عرض قوتها في تلك العروض العسكرية، التي تكشف بها عن بعض عدتها وعتادها..

ولهذا الجانب من الحرب النفسية أثر كبير في كسر شوكة العدو، وفي قتل مطامعه في النيل من عدوه، فلا يُقدم على العدوان، وهو يرى هذه القوة المهيأة للحرب، الراصده لكل عدو.. وهذا ما يشير اليه قوله تعالى: **﴿واعِدّوا لهم ما استطعتمْ من قوّةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ**

اللهِ وعدوَّكم﴾[١٠٤].

والى هذا يشير الرسول في مقام تعداد فضل الله سبحانه وتعالى، اذ يقول: «ونُصرت بالرعب مسيرة عام» أي أنّ اعداءه المحيطين به، يجدون في أنفسهم رهبةً له، ولجيش المسلمين، وذلك على امتداد مسيرة عام بينه وبينهم ، لما يتناقل الناس من أخبار المجاهدين المسلمين، واسترخاصهم لنفوسهم في ميدان القتال، حتى ليكون ذلك حديث الدنيا كلّها[١٠٥].

د ـ الاختراق:

عمد رسول الله صلّى الله عليه وآله الى هذا الاسلوب، كعمل مضاد لما كان يقوم به المشركون، من بث عيونهم الذين يبعثونهم للاندساس في صفوف المسلمين للاطلاع على جليّة الأمر، أو لنشر الأراجيف.. وما الى ذلك.

ومن ذلك، ان نُعيم بن مسعود اتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، عشيّة حرب الخندق وتحالف بني قريظة وقريش وغطفان، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمتُ، وان قومي لم يعلموا باسلامي. فمرني بما شئت. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: انما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنا إن استطعت (أي ادخل القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً) فان الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وقريش وغطفان، وخذّل الله بينهم، فلما انتهى الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ما اختلف من أمرهم، وما فرق الله من جماعتهم، دعا حذيفة بن اليمان فبعثه اليهم، لينظر ما فعل القوم ليلاً: «اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون ولا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتينا»[١٠٦].

وقل مثل ذلك عن عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي، الذي بعثه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الى نخله، ليرصد بها قريشاً، حتى يأتيه منهم بخبر.. وهكذا.

هـ ـ القصاص:

ويصل الأمر في معالجه أمر المرجفين الى القصاص، ويتباين الحكم حسب ما بينته الشريعة، من حالة الى أخرى. ولخطورة العمل الدعائي ورد في أحكام الجهاد أن المقاتل الذي يخذّل المقاتلين، وينشر الاشاعات بينهم يُحرم من الغنيمة ولا يُعطى منها[١٠٧].

وأما المنافقون. فقد أصدر الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بحقهم حكماً حاسماً، حينما تناهى الى سمعه أنّ رهطاً منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبطون الناس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، حتى لا يخرجوا معه في غزوة تبوك، ومما

قالوه في شائعاتهم: لا تنفروا في الحر.. زهادة في الجهاد، وشكاً في الحق، وارجافاً برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فأنزل الله تعالى فيهم: **﴿وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون﴾**[١٠٨].، وحالما بلغ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الخبر، بعث اليهم طلحة بن عبيد الله، في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة[١٠٩] وتخلص المسلمون من الشرور التي تنبعث من تلك البؤرة الفاسدة[١١٠].

وكان النفي احد أساليب القصاص، التي اتبعها الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، تنفيذاً لأوامر الله سبحانه: **﴿لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينه لَنُغرينَّك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلاً * ملعونين أين ما ثقفوا أُخذوا وقتّلوا تقتيلا * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسُنة الله تبديلاً﴾**[١١١].

ويأتي تهديد المنافقين، ومرضى القلوب، والمرجفين الذين ينشرون الشائعات المزلزلة، في صفوف الجماعة المسلمة.. تهديدهم القوي الحاسم، بانهم إذا لم يرتدعوا عمّا يأتونه من هذا كله، وينتهوا عن ايذاء المؤمنين والمؤمنات والجماعة المسلمة كلها، ان يسلط الله عليهم نبيّه، كما سلّطه على اليهود من قبل، فيطّهر منهم جو المدينة، ويطاردهم في الأرض، ويبيح دمهم، فحيثما وُجدوا أخذوا وقتلوا. كما جرت سنة الله فيمن قبلهم من اليهود، على يد النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وغير اليهود من المفسدين في الأرض، في القرون الخالية[١١٢].

تاسعاً: فتح باب التوبة:

ويبقى باب التوبة مفتوحاً لمن يشاء أن يدلف فيه، وباعلان التوبة الصادقة يصبح التائب مغفوراً له ما مضى قبل الاسلام، غير مؤاخذ بما ارتكب من جرائمَ قبل اسلامه، مهما كانت تلك الجرائم، ولو كانت الجرائم قتلاً لمسلمين وحرباً ضدهم، إنه باعلان اسلامه يصبح مندمجاً تمام الاندماج، وسط المسلمين كواحد منهم.

لا يفرّق بينه وبينهم، في المعاملة، وفي الثقة، وفي تحمّل ما يتحمله المسلمون، انه لا يعيش حاضره بعقدة ماضيه ،بل يصبح انساناً جديداً، تعانقه القلوب المؤمنة، وتبتسم له الشفاه التي طالما تحركت بالنصح، لتدعوه الى الايمان، وتنصحه بالسلام. فاذا ما جاء مسلماً فلا شيء عليه

بالنسبة لماضيه. انه يسير جنباً الى جنب مع منْ كان قتل اباه المسلم، ويجلس ويأكل مع منْ قتل ابنه المسلم (قبل الاسلام) إنه يعيش في أمن وطمأنينة، لا يُقال له قول يؤذيه، أو يهدد بما فعل في ماضيه[١١٣]:

﴿قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف و إنْ يعودوا فقد مضت سنّةُ الأولين﴾[١١٤].

وقال تعالى: **﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدّوا عن سبيله إنّهم ساءَ ما كانوا يعملون لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولاذمّة وأولئك هم المعتدون * فان تابوا وأقاموا الصلاه وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين ونفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾**[١١٥].

ولم يستثن الباري جل وعلا أحداً من توبته، بمنْ فيهم اولئك المنافقون المخادعون المذبذبون.. **﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجدَ لهم نصيرا * إلاّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين وسوف يؤتِ اللهُ المؤمنينَ أجراً عظيما﴾**[١١٦].

يقول العلامة الطباطبائي (ره): «التوبة بتمام معناها الوارد في القرآن، من التعاليم الحقيقية المختصة بهذا الكتاب السماوي.. والتوبة كما يُستفاد، من مجموع ما تقدم من الايات المنقولة وغيرها، إنّما هي حقيقة ذات تاثير في النفس الانسانية، من حيث اصلاحها واعدادها للصلاح الانساني.. وان الاسلام، وهو التوبة من الشرك، يمحو كل سيئة سابقة، وتبعة ماضية متعلقة بالفروع، كما يدل عليه قوله عليه السّلام: الا سلام يجبّ ما قبله، وبه تفسر الآيات المطلقة الدالة على غفران السيئات جميعاً كقوله تعالى[١١٧]: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم وأنيبوا الى ربّكم وأسلموا له﴾**[١١٨].

عاشراً: تنمية الثقة بالنفس:

في غمرة الظروف العصيبة التي اكتنفت مسيرة الاسلام، ورغم كل ما اعتورها من تحديات وعقبات.. فان الخطاب القرآني ـ وكذلك النبوي ـ كان يحث على تنمية الثقة بالنفس، والايمان بالله، والدعوه لمواصلة الكفاح والصمود، وعدم اليأس وحث الناس على المساهمة الايجابية، في كل مجال، وكل ذلك ممّا يساعد على مقاومة الشائعات، وعدم التأثر بها، وفهم الأغراض الخبيثة لمروجيها[١١٩].

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: **﴿لو**

لا إذْ سَمِعْتموه ظنّ المؤمنون والمؤمناتُ بأنفُسِهِم خيراً وقالوا هذا إفْكٌ مبينٌ﴾ [١٢٠] ومعناه: هلا حين سمعتم هذا الافك من القائلين، ظنّ المؤمنون والمؤمنات الذين هم كأنفسهم خيراً، لأن المؤمنين كلهم كالنفس الواحدة، فيما يجري عليها من الأمور، فاذا جرى على أحدهم محنة، فكأنه جرى على جماعتهم[١٢١] وينبغي للمؤمن اذا سمع شراً، عن أخيه المؤمن، أن يظن به الخير، وينفي السوء عنه قياساً على نفسه[١٢٢].

نعم كان هذا هو الأولى.. أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً. وان يستبعدوا سقوط أنفسهم، في مثل هذه الحماة[١٢٣]، ويقرر الخطاب القرآني الموجه للمؤمنين هذا المفهوم، الذي يفضي الى تنمية الثقة بالنفس والتربية الاجتماعية: هلاّ اذ سمعتم الافك ظننتم بمن رُمي به خيراً، فانكم جميعاً مؤمنون، بعضكم من بعض، والمرميّ به من أنفسكم، وعلى المؤمن أن يظن بالمؤمن خيراً، ولا يصفه بما لا علم له به[١٢٤].

وبهذا، تتضمن هذه الآية الكريمة قاعدة كلية، من قواعد الحياه الاجتماعية، في الاسلام، وهي انه ينبغي ان يكون الاساس للروابط الاجتماعية، في المجتمع الاسلامي، ظن الناس فيما بينهم خيراً، ولا ينبغي أن يظن بعضهم ببعض سوءاً، إلاّ في ما اذا كان له اساس ايجابي قاطع. فالمبدا الذي يقوم عليه المجتمع الاسلامي هو أن كل رجل برىء لا إثم عليه، ما لم يكن ثمة أساس قوي معقول، لكونه مجرماً، أو للشك في جريمته على الأقل، وأن كل رجل صادق، في ما يقول، ما لم يكن ثمه ما يدل على كونه ساقط الاعتبار[١٢٥].

وليس هناك من وسيلة ناجعة لمواجهة أراجيف الاعداء، أفضل من تعزيز الثقة بالنفس. فالواثق من نفسه، فرداً كان أم مجتمعاً، لا تهزّه الرياح العاتية، والعكس صحيح، فغير الواثق من نفسه ليس بمقدوره أن يمنح الثقة للآخرين، وبذا يكون لقمة سائغة للألاعيب والاشاعات، تعبث به ما شاء مخططوها، وكيفما يحلو لهم..!

والتاريخ ــ البعيد والقريب ـ خير مصداق على ما نذهب اليه. فحينما كان المسلمون واثقين من أنفسهم فتحوا الدنيا باقتدار عجيب.. وحينما فقدوا ثقتهم بأنفسهم تهالكت عليهم الامم الكافرة، في غمرة هزيمة نفسيّة عجيبة أيضاً..

وقد حرص القرآن على تربية أتباعه تربية متفوقة، تشعرهم بالقوّة والعزة الباطنة، فلا ينحني المؤمن للمحن والتحديات، ولا يستسلم للخصم، ولا

يرضخ لقوى الطاغوت:

﴿وللهِ العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[126].

﴿الذين قالَ لهم الناسُ إنّ الناسَ قد جَمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ﴾[127].

﴿ونُريدُ انْ نمنَّ عل الذين آستضعفوا في الارضِ ونجعلَهم ائمةً ونجعلَهم الوارثين * ونُمكّنَ لهم في الأرضِ ونُري فرعون وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون﴾[128].

وهكذا يكوّن القرآن وعياً وتربية لمقاومة الهزيمة النفسية، ويكرّس جهداً اعلامياً قائماً على أسس علمية دقيقة، يساهم في معركتنا الحضارية في حالتي الهجوم والدفاع[129].

تعليمات للتعامل مع الاشاعة:

الآن وقد انتهينا من استنطاق كتاب الله، في واحدة من أبرز مظاهر الحرب النفسية - أي الاشاعة - واستعرضنا أهم تلك المعالم القرآنية التي تناولت الموضوع، حرّي بنا أن نختتم البحث، بما يمكن استنتاجه، من فوائد متوخاة، لتوظيفها في مرحلتنا الراهنة بالاتجاه المطلوب.

ففي مرحلة «مطلع النور» أثبت الاسلام أنه أقوى من جميع الأعداء، ومن حرب الاشاعات الضارية التي شنوها للقضاء على الاسلام، ووقف تياره الزاحف.. وكل ذلك لأن رسول الله صلّى الله عليه وآله - مؤيداً بالوحي من السماء - قد قاوم تلك الاشاعات وقضى عليها، ببعض التصرفات السديدة، والتوجيهات الحكيمة الصائبة، ولاريب ان تلك التوجيهات تصلح لمقاومة الاشاعات، في كل زمان ومكان.. ونحن مخاطبون بهذه الآيات القرآنية، وهذا الهدي النبوي كما خوطب بها الأولون. لأن تلك النصوص القرآنيّة وهذا الهدي النبوي جاءت للعمل، ليس فقط في وسط الذين عاشوا أحداثها ومناسباتها ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك، كما وقع مثل تلك الاشاعات أو شبهها في البيئات المتنوعة، وعلى امتداد السنين[130].

وها هي امتنا الاسلامية تتعرض، اليوم، الى حرب نفسية رهيبة، من قبل أعدائها العريقين في عداوتهم.. مستخدمين وسائل الاعلام كافة، وبكل أنواع الاسلحة، من دعاية كاذبة، أو شائعة مغرضه، أو ضغط اقتصادي، أو تخويف، أو ارهاب.. وهدف الأعداء الأول والأخير تحطيم عقيده هذه الأمة، وقطع العرى التي تربطها بدينها

واخلاقها، وبالتالي تمزيق شملها ووحدتها، ومن ثم اضعافها، وضمان تبعيتها له، في كل أمر من الأمور السياسية والاقتصادية ،وحتى الفكرية والاجتماعية.

لذا فنحن أبناء هذه الامة في أشد الحاجه الى فهم ذلك، والوعي الكامل، بما يخطط له الأعداء، لاحباط هذه المخططات.. باذن الله[131] ولكي نستطيع أن نفوّت الفرصة، على أجهزة الرصد الاستكبارية، وقوى الاستكبار العالمي، والسائرين بركابهم، ونسقط خططهم، علينا أن نراعي مايأتي[132].

١ـ اذا سمع أحدنا اشاعة، أو خبراً، لا يُعرف مصدره، أو سمعه من مصدر لا يوثق به، كالاذاعات والصحف والعناصر المعبّرة عن مصالح أعدائنا، فلا يصح التصديق أو الاعتماد على هذا الخبر، وهو محرّم قد نهانا القرآن عنه في «آية النبأ».

٢ـ يجب أن نتسلّح بالقوة والمناعة النفسية، فلا نتأثر بالاشاعات والأخبار التي يروّجها خصومنا، فقد يشك الانسان في الخبر أحياناً، ولكنه يتأثّر به نفسياً، فيؤثّر على معنويته وموقفه، وبهذا التأثّر،وبتلك الاستجابة، يتحقق غرض الدعاية المخرّبة والدعاية المضادة، فان ذلك هدف أساس من أهدافها.

٣ـ اذا سمعت إشاعة أو تهمة أو خبراً مرجفاً، يستهدف قوّة المسلمين أو وحدتهم أو مصالحهم، فاحذر من أن تنقله، فتساهم في نشر الاشاعة، وتسخّر نفسك لخدمة الأجهزة المخرّبة والعناصر المروجة للاشاعات والدعاية الكاذبة، ولو على نحو الرواية، بان تقول: يقولون كذا، أو يُشاع وقوع هذا الحدث، أو حدوث ذلك الشيء.. الخ، فانه خدمة لمصممي الاشاعة، وتجنيد لخدمة أغراضهم، من حيث لا تشعر.

٤ـــ اذا سمعت خبراً، أو اشاعة صحيحة، أو اطلعت على شيء، فاحذر أن تنشر ذلك، ما زال في نشره ضرر بمصلحة الامه والرسالة الاسلامية، ونشر مثل هذا الخبر يُساهم باضعاف موقف الأمة وموقع الرسالة، والأهداف الاسلامية، ويجعل منك أداة هدم من حيث لا تشعر.

٥ ـــ من الضروري أن يكون الدور الاعلامي، الذي ينبغي أن تقوم به العناصر والاجهزة الاعلامية الاسلامية، متصفاً بالمبادرة والسبق الى الرأي العام والناس الذين تعيش معهم، فتوضّح لهم الحقائق، وتعرّفهم بالامور السياسية والفكرية والعسكرية.. الخ، قبل أن يُعَرَّضوا للاشاعة والتضليل، ليكتسبوا المناعة والقدرة على المقاومة، فالوقاية خير من العلاج.

٦ ـ روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «قولوا في الفاجر ما فيه ليحذره الناس» فلابدّ من فضح أعداء الاسلام، وكشف خططهم، ونواياهم، وأساليبهم، وانحرافهم، وجرائمهم، ليحذرهم الناس، وليحذروا عملاءهم المسخّرين لخدمتهم، الذين يفرّقون صفوف المسلمين، ويشيعون الاباطيل والتهم والاشاعات.

تلك أفكار ومبادىء أساسية تتعلق بالعمل الاعلامي، والدعاية، والاشاعة، والخبر، والأراجيف، ولابدّ من مراعاتها لمواجهة الحرب النفسية، ولا يصال الحقيقة الى الناس، ولصيانة الرأي العام وحمايته من التضليل والجهل والفوضى.

فما أحرانا، نحن مسلمي اليوم، أن نقتفي خطى كتاب الله وتوجيهات رسولنا الأكرم عليه الصلاة والسلام، ونسير على المحجّة البيضاء، حتى ننجح في مقاومة الاشاعات التي تحيط بالاسلام والمسلمين، من كل حدب وصوب، بهدف تحطيم الاسلام، ووقف انتشاره، وزعزعة المسلمين، وفتنتهم عن دينهم، وبث الفرقة بينهم، ليسهل على ذوي الأغراض الخبيثة السيطرة على ديار المسلمين، وسلب خيراتها، ونهب ثرواتها[133] واستعباد ساكنيها، وتركيعهم وفق تلك الخطط المرسومة، حتى لا تقوم لهم قائمة.. ولكن: **﴿إن ربّك لبالمرصاد﴾[134] و﴿ولا يحيق المكرُ السيء إلاّ بأهله﴾[135]** صدق الله العلي العظيم.

الهوامش:

(١) د. محمد فريد عزت، بحوث في الاعلام الاسلامي، (جدّة، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٣م) ص: ٦٠.

(٢) سيد قطب؛ في ظلال القرآن ٥: ٢٨٤٦ (ط دار الشروق العاشرة، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).

(٣) مؤسسة البلاغ؛ مرتكزات أساسية في الاعلام القرآني: ٣٧ (طهران ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

(٤) القلم: ٥١.

(٥) الانبياء: ٥.

(٦) آل عمران: ١٤٤.

(٧) النساء: ٨٣.

(٨) الاحزاب: ١٠ـ ١٣.

(٩) الاحزاب: ١٨ـ ٢٠.

(١٠) الاحزاب: ٥٨.

(١١) الاحزاب: ٦٠ـ ٦٢.

(١٢) النور: ١١.

(١٣) التوبة: ٤٧ـ ٤٨.

(١٤) الحجرات: ٦.

(١٥) الحاقة: ٣٨ـ٤٣.

(١٦) بحوث في الاعلام الاسلامي: ٥٠.

(١٧) اعتمدنا بشكل أساس، في أغلب هذه النقاط، على كرّاس: «مرتكزات أساسية في الاعلام القرآني» المرجع السابق، ص: ٣٩ ـ ٤١.

(١٨) م.س: ٤٦.

(١٩) في ظلال القرآن ٥: ٢٨٣٢.

(٢٠) السيد محمد حسين فضل الله؛ من وحي القرآن ١: ٦٥ (بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

(٢٢) البقرة: ٩ـ ١٥.

(٢٣) في ظلال القرآن ١: ٤٥.

(٢٤) مرتكزات أساسية في الاعلام القرآني: ٤٦.

(٢٥) وهو يوم اقتُتِلت فيه الأوس والخزرج، أيام الجاهلية، وكان النصر فيه حليف الأوس.

(٢٦) للمزيد يراجع كتاب: « السيرة النبوية لابن هشام» ٢: ٥٥٦ (ط بيروت ١٩٨٥)، وكتاب بحوث في الاعلام الاسلامي: ٦٦.

(٢٧) آل عمران: ٩٩ـ ١٠١.

(٢٨) من وحي القرآن ٦: ١١٣.

(٢٩) آل عمران: ١٤٩ـ ١٥٠.

(٣٠) آل عمران: ١١٨.

(٣١) ال عمران: ٦٥ـ ٦٦.

(٣٢) هود: ١٣ـ ١٤.

(٣٣) محمد: ٢٩ـ ٣٠.

(٣٤) آل عمران: ٧١.

(٣٥) مرتكزات أساسية في الاعلام القرآني: ٤٨.

(٣٦) م.س.

(٣٧) الفرقان: ٧٧.

(٣٨) البقرة: ١٧ـ ١٨.

(٣٩) الأعراف: ١٧٩.

(٤٠) التوبة: ٤٦ـ ٥٧.

(٤١) في ظلال القرآن ٣: ١٦٦١، ١٦٦٦ (ط دار الشروق).

(٤٢) مرتكزات أساسية: ٤٩.

(٤٣) المؤمنون: ٣.

(٤٤) الفرقان: ٦٣.

(٤٥) القصص: ٥٥.

(٤٦) الزخرف: ٨٨ـ ٨٩.

(٤٧) الانعام: ١٠٨.

(٤٨) بحوث في الاعلام الاسلامي: ٦٨.

(٤٩) فصلت: ٣٤.

(٥٠) النحل: ١٢٥.

(٥١) مرتكزات أساسية...: ٥٠ـ ٥١.

(٥٢) منصور محمد محمد عويس؛ الرسول والحرب النفسية (طرابلس ـ ليبيا، ١٩٧٥)، ص: ٣٦٩.

(٥٣) النساء: ٨٢.

(٥٤) سبأ: ٤٦.

(٥٥) الحجر: ٤٩.

(٥٦) غافر: ٢.

(٥٧) الأعراف: ٤٠ـ ٤٣.

(٥٨) المائدة: ٩٨.

(٥٩) الأعراف: ١٦٧.

(٦٠) ي ظلال القرآن ٢: ٩٨٣.

(٦١) الفخر الرازي؛ التفسير الكبير ١٢: ١٠٢(ط ٢).

(٦٢) الشيخ الطوسي؛ التبيان في تفسير القرآن ٤: ٣٣ (ط بيروت، د.ت).

(٦٣) البقرة: ١٤٣.

(٦٤) الحجرات: ٦.

(٦٥) الشيخ الطبرسي؛ مجمع البيــان في تفسير القرآن ٩: ١٣٢(ط طهران، ١٣٧٩هـ).

(٦٦) مرتكزات أساسية.. ٣٢، ٤٠.

(٦٧) في ظلال القرآن ٦: ٣٣٣٦، ٣٣٤٠(ط دار الشروق).

(٦٨) عبد الكريم الخطيب؛ التفسير القرآني للقرآن ٢٦: ٤٤٠ (ط مصر، ١٩٧٠).

(٦٩) مرتكزات أساسية..: ٤١.

(٧٠) بحوث في الاعلام الاسلامي: ٦٣.

(٧١) النسـاء: ٨٣.

(٧٢) الانفال: ٢٧.

(٧٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٤٧(ط بيروت ١٩٨٥).

(٧٤) تفسير الرازي ١٥: ١٥١.

(٧٥) الانفال: ٢٨.

(٧٦) الرسول والحرب النفسيّة: ٢٨٢.

(٧٧) الممتحنة: ١ـ ٢.

(٧٨) للمزيد يُراجع تفسير التبيان ٩: ٥٧٥.

(٧٩) المائدة: ٨٢.

(٨٠) البقرة: ١٢٠.

(٨١) المائدة: ٤٨ـ ٤٩.

(٨٢) في ظلال القرآن ٢: ٩٠٢، ٩٠٤.

(٨٣) المائدة: ٩٢.

(٨٤) تفسير التبيان ٤: ١٩.

(٨٥) التغابن: ١٤٠.

(٨٦) تفسير التبيان ١٠: ٢٤.

(٨٧) المنافقون: ١ـ ٤.

(٨٨) في ظلال القرآن ١٠: ٣٥٧٢، ٣٥٧٥.

(٨٩) م.س ٢: ٧٠٥.

(٩٠) النسـاء: ٧١.

(٩١) تفسير التبيان ٣: ٢٥٢.

(٩٢) في ظلال القرآن: م.س.

(٩٣) النسـاء: ١٠٢.

(٩٤) العلامـه الطباطبائي، تفسيـر الميزان ٥: ٦٢ (ط ٢، بيروت، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م).

(٩٥) ابو عبد الله القرطبي: الجـامع لأحكام القرآن ٥: ٣٧٢ (ط القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م).

(٩٦) السيرة النبوية لابن هشـام ٤: ١٦٨.

(٩٧) التوبة: ٦٥.

(٩٨) الأحزاب: ٦٧ـ ٦٨.

(٩٩) القصص: ٤.

(١٠٠) الهمزة: ١ـ ٥.

(١٠١) اللهب: ١ـ ٤.

(١٠٢) القلم: ١١٣ـ ١٦.

(١٠٣) مرتكزات اساسية في الاعلام القرآني ٥٢ ـ ٥٤.

(١٠٤) الانفال: ٦٠.

(١٠٥) التفسير القرآني للقرآن ٢٠: ٢٨٤، ٢٨٥.

(١٠٦) تُراجع الحـادثة بالتفصيل في سيـرة ابن هشـام ٢: ٢٤٠وما بعدها.

(١٠٧) مرتكزات أساسية في الاعلام القرآني: ٤٠.

(١٠٨) التوبة: ٨١ ـ ٨٢.

(١٠٩) سيرة ابن هشام ٤: ١٦٠.

(١١٠) بحوث في الاعلام الاسلامي: ٧١.

(١١١) الاحزاب: ٦٠ ـ ٦٢.

(١١٢) في ظلال القرآن ٥: ٢٨٨٠.

(١١٣) الرسول والحرب النفسية: ٢٧٥.

(١١٤) الانفال: ٣٨.

(١١٥) التوبة: ١١.

(١١٦) النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦.

(١١٧) تفسير الميزان ٤: ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٠.

(١١٨) الزمر: ٥٤.

(١١٩) بحوث في الاعلام الاسلامي: ٧٣.

(١٢٠) النور: ١٢٠.

(١٢١) تفسير التبيان ٧: ٤١٦.

(١٢٢) الشيخ محمد جواد مغنية؛ التفسير المبين: ٤٥٨.

(١٢٣) في ظلال القرآن ٤: ٢٥٠١.

(١٢٤) تفسير الميزان ١٥: ٩١.

(١٢٥) ابو الاعلى المودودي؛ تفسير سورة النور: ١٣٢ (مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ت.).

(١٢٦) المنافقون: ٨

(١٢٧) آل عمران: ١٧٣.

(١٢٨) القصص: ٥ ـ ٦.

(١٢٩) مرتكزات أساسية.. ٦٢.

(١٣٠) بحوث في الاعلام الاسلامي: ٧٨.

(١٣١) فهمي قطب الدين النجار: «الاعلام والبيت الاسلامي» (الكويت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥)، ص: ٧٢.

(١٣٢) اعتمدنا، بشكل أساس، في هذا المورد، على كرّس: مرتكزات أساسية في الاعلام القرآني: ٤٣.

(١٣٣) بحوث في الاعلام الاسلامي: ٦٢.

(١٣٤) الفجر: ١٤.

(١٣٥) فاطر: ٤٣.

في نكاح المسلم بغير المسلمة والعكس

السيّد حسين الطباطبائي اليزدي

قـوله تعـالى: ﴿ولا تَنكحـــوا المشركـاتِ حتى يـؤمنَّ ولأمَـةٌ مؤمنةٌ خيرٌ من مشـركة ولو أعجبتكم ولا تُنكحوا المشـركين حتى يـؤمنوا وَلَعبـدٌ مؤمن خيرٌ من مشـرك ولو أعجبكم أولئك يَـدعون الى النـار واللهُ يـدعو الى الجنـة والمغفرة بإذنه ويبينُ آيتَه للناس لعلهم يتذكّرون﴾(البقرة: ٢٢١).

ـ النزول ـ

في مجمع البيان: نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنوي، بعثه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الـى مكـة ليخـرج منهـا نـاسـاً مـن المسلمين، وكان قـوياً شجاعاً، فـدعته امرأة يقال لها عنات الى نفسهـا فأبى، وكانت خلة في الجاهليـة فقالت: هل لـك ان تتزوج بي؟ فقال: حتى أستأذن رسول الله ـ صلّـى الله عليه وآله وسلّم ـ فلما رجع استأذن في التزوّج بها، فنزلت الآية.

وكذا في اسباب النزول للواحدي[1] في روايته عن مقاتل وابن عباس، انها نزلت في مرثد بـن مرثد، ولكن بروايـة اخرى عن ابن عبـاس: انها نـزلت في عبـد الله بن رواحـة وكـانت لـه أمة سـوداء وانّـه غضب عليهـا فلطمها، ثم انّه فزع فأتى النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فاخبره خبرها؛ فقال له النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: ما هي يا عبد الله؟ فقال: يا رسـول الله هـي تصـوم وتصلّي وتحسـن الوضوء وتشهد ان لا اله إلاّ الله وأنّك رسوله؛ فقال: يـا عبد الله هذه مـؤمنة؛ قـال عبد الله: فوالـذي بعثك بالحق لاعتقنها ولأتـزوجنّها، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا: نكح أَمَـةً وكـانوا يـريـدون ان ينكحـوا الى المشركين وينكحـوهم رغبة في احسـابهم، فانزل الله تعـالى فيه: ﴿ولأمَةٌ مؤمنة خير من مشـركة... الآيـة﴾. وقـريب منـه فـي

تفسير الدر المنثور ج اص.

ـ التفسير ـ

لمّا تقدم ذكر المخالطة في الآية السابقة، ناسب بيان من يجوز مخالطته في النكاح، فقال سبحانه وتعالى: **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾** أي لا تتزوجوا المشركات حتى يؤمن بالله ويصدقن الرسول بما جاء به؛ وقد اختلف المفسرون في المشرك هنا، هل هو مختص بمن لا كتاب له أو يعم ويشمل أهل الكتاب من النصارى واليهود وغيرهم، وسيأتي إن شاء الله تفصيل الكلام فيه في بيان حكم الآية.

﴿ولأمة مؤمنة خيرٌ من مشركة ولو اعجبتكم﴾ أي ولامة مؤمنة على ما بها من خساسة الرق وقلة الخطر خيرٌ من مشركة حرّة على ما لها من شرف الحرّية ونباهة القدر على ما تزعمون وان رغبتم فيها لجمالها ومالها أو غيرها من المرغبات الظاهرية، لان بالايمان يكون كمال دينها وبالمال والجاه وحسن الوجه والهندام يكون كمال دنياها، ومراعاة الدين اولى من رعاية الدنيا، ان لم يستطع الجمع بينهما، بل بكمال دينها تحصل السعادة الزوجيه لانّها بواسطة ايمانها تحسن معاشرتها مع زوجها، وتحفظ الغيبة عنه وتواظب على ضبط امواله وقوت اولاده وتهذيب اخلاقهم، وتنشئتهم تنشئة دينية قويمة. وأيّ سعاده اعظم من هذا في حياة الزوجية.

وقد ورد في الاخبار من أهل بيت العصمة ـ عليهم السّلام ـ وغيرهم، النهي عن ان تنكح المرأة لجمالها أو ما لها كرواية التهذيب[٢] باسناده عن بريد العجلي عن ابي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال: قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من تزوج امرأة لا يتزوجها إلاّ لجمالها لم ير فيها ما يحب، ومن تزوجها لمالها لا يتزوجها إلاّ له وكله الله إليه، فعليكم بذوات الدين.

وما اخرجه ابن ماجة القزويني في سننه[٣] عن ابن عمر: ان النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهّن أن يرديهنّ، ولا تزوجوهنّ لاموالهنّ فعسى اموالهنّ ان تطغيهنّ، ولكن تزوجوهنّ على الدين، ولامة خرماء سواداء ذات دين افضل.

﴿ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ أي لا تزوجوهم المؤمنات إلاّ إذا آمنوا وتركوا ما هم عليه من الكفر، وحينئذٍ يصيرون اكفاء لهنّ؛ وقيل: انما جعل الخطاب للرجال دون انفسهّن، نظراً إلى العادة من ان المرأة يزوجها الولي، فيحرم أيضاً على المؤمنة ان تزوج نفسها من المشركين حتى يؤمنوا.

﴿ولعبد مؤمن خيرٌ من مشرك ولو أعجبكم﴾ أي ولمملوك مؤمن مع ما به من الذلة والمهانة خيرٌ من مشرك عزيز الجانب

مهيب في أعين الناس.

وما قيل: من ان المراد من الامة والعبد هنا في الآية، أمة الله وعبد الله حتى يعم الاحرار، هو خلاف الظاهر كما ترى، مع تفويت المبالغة.

ومحصل ما تقدم، انّه سبحانه وتعالى نهى في الآية الشريفة عن المصاهرة بين المسلم والمشرك، لانّ الزواج اعمق وادوم رابطة تحصل بين افراد البشر، فلهذا لابد من توحد القلوب، واجتماعها في عقدة لا تحل من قريب، ولا يمكن هذا إلّا ان يتوحد فيهما العقيدة الدينية، لانّها اعمق واشمل ما يعمر النفوس، ويؤثر فيها، ويكيف مشاعرها، ويحدد ثائراتها، فحينئذٍ المسلم إذا تزوج مع المشرك، لا يربط هذا الزواج بين قلبيهما لانّهما لا يجتمعان على عقيدة واحدة، فيكون هذا الزواج، رباطاً زائفاً واهياً ضعيفاً.

﴿اولئك يدعون الى النار﴾ أي هؤلاء المشركون والمشركات من دأبهم أن يدعوا الى الكفر والمعاصي، وكل ما يكون سببا في دخول النار، والنفس مائلة الى الشهوات وترك القيود، وهذا مثل التعليل، لان الغالب في الزوجين إذا اختلفا في العقيدة والدين، يريد كلٍ واحد منهما ان يجر صاحبه الى عقيدته ودينه، خصوصاً إذا لم يكن العقيدة الدينية راسخة في القلب.

﴿والله يدعوا الى الجنة والمغفرة بإذنه﴾ أي يدعو الى فعل ما يوجب به الجنة، من الايمان والطاعة، فيكون هو السبب في هدايتكم وإرشادكم وتوفيقكم للاعمال الصالحة، ومن ذلك انّ يامركم بأن تتباعدوا عن وسوسة الخليط المشرك.

﴿ويبيّن آياته للناس لعلّهم يتذكرون﴾ أي يوضح لهم حججه وبما فيه هداهم؛ وقيل: أوامره ونواهيه، وما يحظره ويبيحه للناس، لعلهم بهذا يتذكرون ويعتبرون، فلا يخالفون أمره ابداً، ولا يجرون وراء النفس الامارة والشيطان.

هذا كلّه في المنع الصريح عن المخالطة والمزاوجة من المشركين والكافرين، ومع ذلك نرى كثيراً من شبان المسلمين في بلادنا قد فتنوا بان يتزوجوا من النساء الاوروبيات غير المسلمات واغرموا بعشرتهنّ، فافسدن عليهم امورهم الدينية والوطنية، وتركوا بنات وطنهم من المسلمات المؤمنات العفيفات.

بل لقد عظم الخطب وعم البلاء، فسرت العدوى الى المسلمات فمن المتعلمات والغنيات منهنّ من تزوجن بمن عشقن من رجال الافرنج غير المسلمين، بدون مبالاة ولا خشية من الدين ولا وازع من الاسرة، وهذا كله من ضعف الدافع الديني وترك التربية والتعاليم الاسلامية في نفوس النشىء ايام الصبا، وبهذا قد عظمت الفتنة، وقى الله البلاد شرها وأيقظ المسلمين عن الغفلة والجهالة، حتى يهتدوا بهدى القرآن،

ويرشدوا الى تعاليمه المقدسة، ليفوزوا بها سعادة الدارين.

ـ الحكم ـ

لا خلاف ولا اشكال بين فقهاء المسلمين على اختلاف في مذاهبهم، على انّه لا يجوز نكاح غير الكتابية من الكفار والمشركين، كما هو صريح الآية الشريفة، ومفاد الاخبار الكثيرة.

وفي الجواهر: لا يجوز للمسلم نكاح غير الكتابية اجماعا من المسلمين فضلا عن المؤمنين، وكتاباً وسنة، وما عساه يظهر من محكي اطلاق الخلاف عن بعض اصحاب الحديث من اصحابنا، من القول بالجواز، مع انّا لم نتحققه ولا نقله غيره، مسبوق بالاجماع وملحوق به.

وفي كتاب الفقه على المذاهب[٤] بعد تقسيم المخالفين للاسلام الى ثلاثة اقسام فيمن لا كتاب لهم سماوي ولا شبهة كتاب كالمشركين عبدة الاوثان وغيرهم أو لهم شبهة كتاب كالمجوس أو لهم كتاب سماوي كاليهود والنصارى، قال: لا يحل للرجل ان ينكح المشركة على أي حال كما لا يحل للمرأة ان تنكح المشرك على أي حال، إلاّ بعد ايمانهم ودخولهم في المسلمين. ثم بعد ذلك ذكر اختلاف المذاهب في أهل الكتاب، ومن هذا يظهر اجماعهم. في غير الكتابي على عدم الجواز. وفي بداية المجتهد[٥] دعوى اتفاقهم على عدم جواز نكاح المسلم الوثنية هذا بالنسبة الى نكاح المشرك أو المشركة، وامّا الكتابية فقد اختلف كلمات الاصحاب الى ستة اقوال.

القول الاول:

جوازه مطلقا متعة ودواماً في حال الاختيار، والى هذا القول ذهب ابن بابويه كابن ابي عقيل؛ كما في الحدائق، عملا بعموم قوله تعالى في سورة النساء: **﴿وأحلّ لكم ما وراء ذلك﴾** آية ــ ٢٣ ــ وتخصيصاً للمشركات والكوافر بغير أهل الكتاب، لقوله تعالى في سورة المائدة: **﴿والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب﴾** آية ـ ٦ ـ مضافاً دلالة روايات على الجواز:

كصحيحة معاوية بن وهب عن أبي عبد الله ـ عليه السّلام ـ في الرجل يتزوج النصرانية واليهودية؛ قال: إذا اصاب المسلمة فما يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقلت: يكون له فيها الهوى. فقال: ان فعل فليمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، واعلم ان عليه في دينه في تزويجه اياها غضاضة. وقد نقلها صاحب الحدائق عن المشايخ الثلاثة.

وموثقة محمد بن مسلم عن ابي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال: سألته عن نكاح اليهودية والنصرانية؛ فقال: لا بأس اما علمت انه كان

تحت طلحة بن عبيد الله يهودية على عهد النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلّم - [6] الى غير ذلك من الاخبار.

القول الثاني:

عدم جوازه مطلقا، لان المراد بالمشرك هنا ما يعم عبّاد الاصنام وغيرهم من اليهود والنصارى وأضرابهم، حيث انّه سبحانه وتعالى قد سمّاهم مشركين بقوله عزّ من قائل: **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾** - الى قوله -: **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أُمِروا إلاّ ليعبدوا الهاً واحداً لا إله إلاّ هو سبحانه عمّا يشركون﴾** (التوبة: ٣٠-٣١).

ومن انه علق في الآية النهي على الغاية التي هي الايمان؛ بقوله: **﴿حتى يؤمنّ﴾** دلت على اشتراطه في النكاح، بل تعقيب النهي بقوله: **﴿اولئك يدعون الى النار والله يدعوا الى الجنّة﴾** يقتضي كونه علّة للمنع، فان الزوجين ربما اخذ احدهما من دين صاحبه فيدعو ذلك إلى دخول النار، وهذا المعنى مطرد في جميع اقسام الكفر ولا اختصاص له بالشرك. فعلى هذا تكون الآية شاملة لهما حرائر وإماءً، نكاحا وانكاحاً، دائما ومنقطعاً، ويرشد إليه أيضاً تعبير المشرك بصيغه الجمع المحلّى باللام المفيد للعموم. ويدل على التحريم أيضاً قوله تعالى في سورة الممتحنة: **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** آية - ١٠ - فنهى عن التمسك بعصمة الكافرات، واليهود والنصارى من الكفار بلا خلاف، الا ترى أنّ الله تعالى قد سماهم كفاراً مع اضافته اياهم الى أهل الكتاب في موارد متعددة في القرآن الكريم؛ كقوله في سورة البقرة: **﴿ما يود الّذين كفروا من أهل الكتاب﴾** آية - ١٥٠ - وكذا في سورة البينة آية - ١ - وفي سورة الحشر آية - ٢ و١١ - وفي هذه الآيات نص في تسميتهم بالكفر، مضافا الى هذا كله دلالة اخبار على عدم الجواز صريحاً:

منها - ما رواه الشيخ - قدس سره - في التهذيب في الموثق كالصحيح عن حسن بن الجهم قال: قال لي أبو الحسن الرضا - عليه السّلام - يا ابا محمد ما تقول في رجل تزوج بنصرانية على مسلمة؛ قلت: جعلت فداك وما قولي بين يديك قال: لتقولن فان ذلك تعلم به قولي؛ قلت: لا يجوز تزويج النصرانية على المسلمة ولا على غير المسلمة؛ قال: لم؟ قلت: لقول الله عزّ وجلّ: **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾** قال: فما تقول في هذه الآية: **﴿والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم﴾** فقلت: قوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾** نسخت هذه الآية؛ فتبسم ثم سكت[7].

ورواية زرارة بن أعين عن ابي جعفر

ـ عليه السّلام ـ قال: لا ينبغي نكاح أهل الكتاب؛ قلت: جعلت فداك وأين تحريمه؟ قال: قوله: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾[8].

والحسنة أو الصحيحة عن زرارة قال: سألت أبا جعفر ـ عليه السّلام ـ عن قول الله سبحانه: ﴿والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم﴾ فقال: منسوخة بقوله: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾[9]. الى غير ذلك من الاخبار الدالة على التحريم.

وفي قلائد الدرر: والى هذا القول ذهب المرتضى والشيخان في احد قوليهما وابن ادريس واختاره جماعة من الاصحاب.

وفي الجواهر: ذهب المفيد والمرتضى وابن ادريس فيما حكى عنه الى المنع مطلقا حتى الوطء بملك اليمين الذي هو احد العصم، بل ادعى المرتضى منهم الاجماع على ذلك.

والجمهور نسبوا هذا القول الى عبد الله بن عمر، والى ابن عباس في احد اقواله؛ كما صرح به القرطبي في تفسيره[10] حيث قال: عن نافع ان عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية قال: حرّم الله المشركات على المؤمنين، ولا اعرف شيئا من الاشراك اعظم من ان تقول المرأة ربها عيسى، أو عبد من عباد الله.

وفيه أيضاً عن ابن عباس في بعض ما روى عنه: ان الآية عامة في الوثنيات والمجوسيات والكتابيات، وكل من على غير الاسلام حرام؛ فعلى هذا هي ناسخة للآية التي في المائدة؛ وينظر الى هذا قول ابن عمر في الموطأ: ولا اعلم إشراكاً أعظم من ان تقول المرأة ربها عيسى؛ وروى عن عمر أنه فرّق بين طلحه بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقالا: نطلق يا امير المؤمنين ولا تغضب؛ فقال: لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما، ولكن أُفرّق بينكما صغرة قمأة.

القول الثالث:

جوازه في المتعة وعدم جوازه في الدائم. ونسب الفاضل المقداد هذا القول الى المتأخرين من الاصحاب. وعن المبسوط نسبته الى اصحابنا حيث قال: قد اجاز اصحابنا كلّهم التمتع بالكتابية ووطؤها بملك اليمين.

واستدلوا عليه: بان آية المائدة لا تدل على اباحة نكاح الدوام بل نكاح المتعة لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إذا اتيتموهنّ اجورهنّ﴾ ولم يقل مهورهنّ، وعوض المتعه سمّى اجراً لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ أجورهنّ فريضة﴾ آية ـ ٢٤ ـ

مضافاً الى هذا دلالة روايات على ذلك.

منها: صحيحة ابن ابي عمير عن حفص بن البختري عن ابي عبد الله ـ عليه السّلام ـ في الرجل يتزوج البكر متعة، قال

يكره للعيب على أهلها، ولا باس بان يتمتع الرجل باليهودية والنصرانية[١١].

وصحيحة حسن بن علي بن فضال عن بعض اصحابنا عن ابي عبد الله ـ عليه السّلام ـ قال: لا بأس أن يتمتع الرجل باليهودية والنصرانية وعنده حرة[١٢].

وحسنته عن محمد بن سنان عن ابان بن عثمان عن زرارة قال سمعته يقول: لا بأس بان يتزوج اليهودية والنصرانية متعة وعنده امرأة[١٣].

الى غير ذلك من الاخبار الداله على ذلك.

القول الرابع:

تخصيص الجواز بالبلّه والمستضعفات منهنّ.

لما روى في الكافي[١٤] باسناده ـ عن زرارة بن أعين قال: سألت ابا جعفر ـ عليه السّلام ـ من نكاح اليهودية والنصرانية؛ فقال: لا يصلح للمسلم ان ينكح يهودية ولا نصرانية، وانما يحل له منهنّ نكاح البله.

ولا يخفى ان اللفظ لا يصلح، وان كان ظاهرا في الكراهة باعتبار اصطلاح العرف، إلاّ انه في لسان الاخبار من الالفاظ المتشابهة المستعملة في التحريم أيضاً، وقوله: «انما يحلّ» تكون هنا قرينة على ارادة التحريم، فكيف كان فالرواية صريحة في الجواز، ويؤيده ما ورد في جواز نكاح البله من النواصب؛ كصحيحة زرارة قال: قلت لابي عبد الله ـ عليه السّلام ـ اتزوج مرجئة أو حرورية قال: لا عليك بالبله من النساء. الحديث[١٥] هذا والله العالم.

القول الخامس:

تخصيص الجواز في حال الاضطرار والضرورة. وفي الجواهر نسب هذا القول الى ابي علي ويدل عليه ما رواه في الكافي[١٦] باسناده ـ عن يونس عنهم ـ عليهم السّلام ـ قال: لا ينبغي للمسلم الموسر أن يتزوج الأمة إلاّ ان لا يجد حرّة، فكذلك لا ينبغي له ان يتزوج امرأة من أهل الكتاب إلاّ في حال الضرورة حيث لا يجد مسلمة حرّة ولاامة.

وموثقة محمد بن مسلم عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال: لا ينبغي للمسلم ان يتزوج يهودية ولا نصرانية وهو يجد مسلمة حرة أو أمة[١٧].

وفي الحدائق: والتقريب فيه بحمل لا ينبغي على التحريم كما هو ظاهر الخبر الاول.

اقول: لا يخفى أنّ حمل قوله عليه السّلام: «لا ينبغي» على التحريم خلاف الظاهر عند المتشرعة، وكذا ظهور الحرمة من الخبر الاول ممنوع، بل الظاهر منهم حمله على الكراهة، وظاهر صدر الخبر دالٌ على ذلك، لأنّه لا دليل على تحريم العقد على الامة

والمشهور بين الاصحاب الجواز مع الكراهة، كما ستعرف في آخر المسألة.

ويؤيد ما ذكرنا من ان قوله عليه السّلام: «لا ينبغي» محمول على الكراهة، استدلال المشهور، برواية ابن بكير المرسلة عن الصادق - عليه السّلام - قال: لا ينبغي ان يتزوج الرجل الحر المملوكة اليوم، انما كان ذلك حيث قال الله عزّ وجلّ: **﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾** والطول المهر، ومهر الحرة اليوم مثل مهر الامة أو اقل[18].

وفي التهذيب بعد ذكر هذه الرواية قال الشيخ - قدس سره -: فهذه الاخبار كلّها دالة على ان نكاح الامة انّما يكون سائغا مباحا مع فقد الطول، وان مع وجوده يكون مكروها، وان كان ذلك غير مبطل للعقد، لأن الخبر- الاخير دل على ذلك من قوله: لا ينبغي ان يتزوج الحر المملوكة اليوم؛ وهذا تصريح بالكراهة التي ليست بلفظ الحظر، ودل على ذلك معنى الاخبار الأخر حسب ما قدمناه.

وفي الجواهر: ومنه يعلم الكراهة لمن يجد المسلمة في خبر محمد بن ابي جعفر: لا ينبغي للمسلم ان يتزوج يهودية ولا نصرانية وهو يجد مسلمة حرة أو امة؛ مضافاً الى اشعار لفظ «لا ينبغي» فيه.

اقول: وبما ذكرنا ظهر ان لفظ «لا ينبغي» ظاهر في الكراهة عند كثير من الاصحاب، فحينئذ لا يمكن الاستدلال برواية يونس وموثقة محمد بن مسلم على عدم جواز نكاح الكتابية من اليهود والنصارى بقوله عليه السّلام: «لا ينبغي» هذا والله العالم.

القول السادس:

جوازه مطلقا على كراهة، وهو مختار صاحب الجواهر - قدس سره - حيث يقول بعد ذكر أدلة المانعين على التفصيل: إلاّ ان التحقيق الجواز مطلقا وفاقاً للحسن والصدوقين على كراهية متفاوتة في الشدة والضعف بالنسبه الى الدائم والمنقطع وملك اليمين، وبالنسبة الى من يستطيع نكاح المسلمة وغيره، وبالنسبة لمن يكون عنده المسلمة وغيره، وبالنسبة الى البله منهنّ وغيرها.

ويدل على هذا القول مضافاً الى النصوص المتقدمة، كصحيحة معاوية بن وهب وغيرها، روايات منها:

صحيحة أو حسنة عبد الله بن سنان عن ابي عبد الله - عليه السّلام - في حديث قال: وما احب للرجل المسلم ان يتزوج اليهودية ولا النصرانية مخافة ان يتهود ولده أو يتنصر[19].

وما عن كتاب قرب الاسناد عن أبي البختري عن جعفر عن ابيه - عليه السّلام -: انه كره مناكحة أهل الحرم[20].

اقول: وانّما يتم هذه الروايات في

صورة ان لفظ «لا احب» ولفظ «كره» بمعنى المكروه المستعمل بين المتشرعة، مع انه في الاخبار اعم من ذلك، وقد ورد بمعنى التحريم، فحينئذ يكون من الالفاظ المتشابهة، فيشكل الاستدلال به.

هذا مجمل الكلام في بيان اقوال المسألة وما استدلوا به، وقد عرفت فيها من اختلاف الروايات ومثلها الايات القرانية، وان المسألة لا تخلو من غموض واشكال، ولا يمكن الجزم بأحد الاقوال المذكورة؛ إلاّ ان ما ذهب إليه صاحب الجواهر ـ قدس سره ـ من القول بالجواز مطلقا على كراهية اقوى، لان ادلة الجواز اصرح واظهر من ادلة الحرمة وكما عرفت من النصوص المتقدمة، مضافاً الى صريح قوله تعالى في سورة المائدة: **﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾** آية ـ ٥ ـ ومن ان سورة المائدة المشهور في انّها محكمة لا نسخ فيها، وقول النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: ان سورة المائدة آخر القرآن نزولاً فاحلّوا حلالها وحرمّوا حرمها[٢١].

ويشهد عليه ما رواه الطبرسي في تفسيره[٢٢] عن العياشي باسناده من عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جده عن امير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضا وانّما يأخذ من أمر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بآخره وكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة التي نسخت ما قبلها ولم ينسخها شيء... الحديث.

وصحيحة زرارة عن أبي جعفر ـ عليه السّلام ـ قال: سمعته ـ عليه السّلام ـ يقول: جمع عمر بن الخطاب اصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فقال: ما تقولون في المسح على الخفين؟ فقال المغيره بن شعبة: رأيت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يمسح على الخفين؛ فقال علي ـ عليه السّلام ـ قبل المائدة أو بعدها؟ فقال: لا ادري؛ فقال علي ـ عليه السّلام ـ سبق الكتاب الخفين إنّما انزلت المائدة قبل ان يقبض بشهرين أو ثلاثه[٢٣].

وما في الجواهر: عن العياشي عن زرارة، وابي حنيفة عن ابي بكر بن حزم قال: توضأ رجل فمسح على خفيه فدخل المسجد فصلّى فجاء علي ـ عليه السّلام ـ فوطأ على رقبته فقال: ويلك تصلّي على غير وضوء فقال: امرني عمر بن الخطاب، قال فاخذ بيده فانتهى به إليه فقال: انظر ما يروي هذا عنك ورفع صوته، فقال: نعم انا امرته، إنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ مسح على الخفين؛ قال: قبل المائدة أو بعدها؛ قال: لا ادري؛ قال: فلم تفتي وانت لا تدري، سبق الكتاب الخفين[٢٤].

وقد ظهر مما تقدم ان القول بان آية المائدة: **﴿والمُحصناتُ من الذين أُوتوا الكتاب﴾** منسوخة بقوله: **﴿ولا تنكحوا المشركات﴾** أو بقوله في سورة الممتحنة: **﴿لا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** لا يمكن

الركون إليه، مع ان صريح الروايات المتقدمة وغيرها، ان المائدة آخر ما نزل على رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من السور، فلا يمكن نسخ الاخر بالاول، بل الآخر ينسخ الاول، مضافاً الى ذلك ان موردنا هذا ليس من باب النسخ بل هو من باب التخصيص، والتخصيص اولى من النسخ كما ذكره الاصوليون.

ويشهد بان آية المائدة مخصِّصة لآية البقرة، ما نقله صاحب الجواهر ـ قدس سره ـ عن السيد ـ قدس سره ـ في المحكي من رسالة المحكم والمتشابه نقلاً عن تفسير النعماني باسناده عن علي ــ عليه السّلام ـ قال: وامّا الآيات التي نصفها منسوخ ونصفها متروك بحاله لم ينسخ، وما جاء من الرخصة في العزيمة فقوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا المشركات الخ﴾** وذلك ان المسلمين كانوا ينكحون، في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وينكحونهم، حتى نزلت هذه الآية نهيا ان ينكح المسلم في الشرك أو ينكحونه، ثم قال الله تعالى في سورة المائده ما نسخ هذه الآية فقال: **﴿والمحصنات﴾** الآية، فاطلق الله تعالى مناكحتهن بعد ان كان نهى وترك قوله: **﴿ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾** على حاله لم ينسخه.

وما نقله ــ قدس سره ـ أيضاً عن الثقة الجليل علي بن ابرهيم في تفسيره عند قوله: **﴿ولا تنكحوا... الآية﴾** هي منسوخة بقوله تعالى في سورة المائدة: **﴿اليوم... الآية﴾** ثم قال: نسخت هذه الآية قوله: **﴿ولا تنكحوا المشركات﴾** وترك قوله: **﴿ولا تنكحوا المشركين﴾** على حاله لم ينسخ، لأنّه لا يحل للمسلم ان ينكح المشرك، ويحل له ان يتزوج المشركة من اليهود والنصارى.

ثم بعد نقله هذا عن علي بن ابراهيم قال: فإنه وان لم يسنده الى حجة، إلاّ ان الظاهر كونه ماخوذا عنهم ـ عليهم السّلام ـ كما يشهد به طريقة المحدثين، وخصوصاً فيما طريقه النقل من نقل متون الاخبار بحذف الاسناد كانه من كلامهم.

والظاهر ان المراد من النسخ في الروايتين هو التخصيص، وكثير ما في لسان الاخبار يطلق النسخ ويراد منه التخصيص. هذا والله العالم. هذا ما ذهب إليه اصحابنا الامامية في نكاح الكتابية.

وامّا المذاهب الاربعة من الجمهور فالظاهر لا خلاف بينهم على جواز نكاح الكتابية، ولكن اختلفوا في الكراهة وعدمها، وفيه تفصيل المذاهب.

فعن الحنفية انّهم قالوا: التزوّج بالكتابية إذا كانت في دار الحرب غير خاضعة لأحكام المسلمين مكروه تحريماً، وامّا إذا كانت ذمية ويمكن اخضاعها للقوانين الاسلامية، فانه يكره

نكاحها تنزيها.

وعن المالكية قولان ـ أحدهما ـ ان نكاح الكتابية مكروه مطلقاً، سواء كانت ذمية أو حربية، ولكن الكراهة في دار الحرب اشد.

ثانيهما: انّه لا يكره مطلقاً.

وعن الشافعية ـ أنّه يكره التزوّج بالكتابية إذا كانت في دار الاسلام، وتشتد الكراهة إذا كانت في دار الحرب.

وعن الحنابلة: يحل نكاح الكتابية بلا كراهة، لكن بشرط ان يكون أبواها كتابيين، فلو كان ابوها كتابياً وامها وثنية لا تحل. وكذا الشافعيه على هذا الشرط.

هذا كله ما صرح به في كتاب الفقه على المذاهب[٢٥]. وهناك قول بالحرمة مطلقا عند الجمهور نسبوه الى عمر بن الخطاب وابنه وابن عباس في احد قوليه. كما قد سبق.

وفي احكام القرآن لابن العربي[٢٦]: اختلف الناس فيها على ثلاثة اقوال: (أي في قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات﴾).

الاول: لا يجوز العقد بنكاح على المشركة كانت كتابية أو غير كتابية؛ قاله عمر في أحدى روايتيه، وهو اختيار مالك والشافعي إذا كانت أمة.

اقول: بعد ما عرفت أنّ للجمهور قولاً بعدم الجواز والحرمة، لا يمكن حمل اخبار الجواز على التقية، لانه يمكن ان يكون المعمول عندهم في زمان صدور أخبار الجواز الحرمة، وكذا لا يمكن العمل بمقبولة عمر بن حنظلة: في ان الرشد على خلافهم، كما استدل به صاحب الحدائق ـ قدس سره ـ على الحرمة، لان علمهم في وقت صدور الاخبار المذكورة غير معلوم عندنا حتى نأخذ على خلافه.

هذا كله بالنسبة الى زواج المسلم بالكتابية، وامّا زواج الكتابي بالمسلمة فحرام غير جائز، بنص الكتاب والسنة واجماع المسلمين، كما صرح به غير واحد من اصحابنا ومن الجمهور.

ويمكن ان يقال ان السرّ في هذا ان المرأة ضعيفة، وليس لها من الحقوق مثل ما للرجل، والرجل هو القوي على المرأة وصاحب الولاية والسلطة عليها، فبما له عليها من السلطان يخشى ان يزيفها عن عقيدتها ويفسد منها دون أن تصلح منه.

وفي بعض الاخبار: ان الزوجة تكتسب من دين بعلها ويقهرها على دينه. هنا فروع.

الاول: لا خلاف بين الاصحاب على اختلافهم في جواز نكاح الكتابية وعدمه، انّه إذا اسلم زوج الكتابية بقي على نكاحه، سواء كان قبل الدخول أو بعده، وسواء كان دائماً أو منقطعاً.

وفي قلائد الدرر: وهو موضع وفاق بين الاصحاب. ويدل عليه أخبار كثيرة، فيكون مستثنى من الحكم السابق.

وامّا إذا اسلمت زوجة الكتابي فإن كان

ذلك قبل الدخول بطل النكاح ولا مهر، وان كان بعده انتظر انقضاء العدة فإن اسلم قبل انقضائها فهو احق بها، وإلاّ فليس له عليها سبيل، ويدل على هذا الحكم بعض الاخبار.

الثاني: في المجوسية هل تعد من الكتابية، أو حكمها حكم الكتابية، أم لا؟

لا يخفى أنّ المستفاد من كلام بعض الاصحاب، أنّ اصناف الكفار ثلاثة ـ الاول ـ من ليس له كتاب ولا شبه كتاب، كعبدة الاوثان والنيران والكواكب ونحوهم.

والثاني: من له كتاب كاليهود والنصارى.

والثالث: من له شبه كتاب، كالمجوس.

واختلفوا في المجوسية هل تلحق بالاول، أو الثاني، في جواز التزويج بها.

ففي الروضة: وانما جعلنا المجوسية من اقسام الكتابية مع انّها مغايرة لها وان لحقت بها في الحكم ــ الى ان قال ــ: والمشهور بين المتأخرين ان حكمها حكمها فناسبَ الاطلاق.

وفي الحدائق: وبالجملة فالاظهر هو المنع من تزويجها دواماً، وانّه يجوز متعة وبملك اليمين.

وفي الخلاف: لا يجوز مناكحة المجوس بلا خلاف، إلاّ ابا ثور قال: تحل مناكحتهم.

اقول: والسرّ في هذا الخلاف اختلاف الروايات فيه. ففي بعض النصوص عدم الجواز في النكاح مطلقا وجوازه في ملك اليمين؛ كصحيحة ابن مسلم عن ابي جعفر عليه السّلام قال: سألته. عن الرجل المسلم يتزوج المجوسية؛ قال: لا ولكن ان كانت له أمة مجوسّية فلا بأس ان يطأها ويعزل عنها ولا يطلب ولده![27].

ونفي ظاهر بعض الاخبار كونهم من أهل الكتاب، وانّه كان لهم نبيّ وكتاب، كما في مرسلة ابي يحيى الواسطي عن بعض اصحابنا قال: سئل أبو عبد الله ـ عليه السّلام ـ عن المجوس كان لهم نبيّ؟ فقال: نعم اما بلغك كتاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ الى أهل مكة أن أسلموا وإلاّ نابذتكم بحرب، فكتبوا الى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أن خذ منا الجزية ودعنا على عبادة الاصنام؛ فكتب اليهم النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ انّي لم آخذ الجزية إلاّ من أهل الكتاب؛ فكتبوا إليه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يريدون بذلك تكذيبه ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ زعمت انك لا تأخذ الجزية إلاّ من أهل الكتاب، ثم اخذت الجزية من مجوس هجر؛ فكتب اليهم النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ان المجوس كان لهم نبيّ فقتلوه وكتاب فاحرقوه، أتاهم نبيهم بكتاب في اثني عشر الف جلد ثور[28].

وعن الصدوق ــ قدس سره ــ في كتاب المجالس بسنده عن الاصبغ بن نباتة: انّ علياً ـ عليه السّلام ـ قال على المنبر سلوني قبل ان تفقدوني؛ فقام إليه الاشعث فقال: يا امير

المؤمنين كيف تؤخذ الجزية من المجوس ولم ينزل عليهم كتاب ولم يبعث اليهم نبيّ؟ فقال: بلى يا اشعث قد أنزل الله عليهم كتابا وبعث اليهم نبيا... الحديث(٢٩).

وعن المفيد ـ قدس سره ـ في المقنعة عن امير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ مرسلا انّه قال: المجوس انّما الحقوا باليهود والنصارى في الجزية والديات لأنّه قد كان لهم فيما مضى كتاب(٣٠).

بعض الروايات تنص على جواز التمتع بهنّ.

كخبر منصور بن صيقل عن ابي عبد الله ـ عليه السّلام ـ قال: لا بأس بالرجل ان يتمتع بالمجوسية(٣١).

ورواية محمد بن سنان عن الرضا ـ عليه السّلام ـ قال: سألته عن نكاح اليهودية والنصرانيه؟ فقال: لا بأس؛ فقلت: مجوسيه؟ فقال: لا بأس به، يعني متعة(٣٢).

هذا ولكن صاحب الجواهر ـ قدس سره ـ ناقش في مرسلة الواسطي والمحكي عن الصدوق، وما روى عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: سنوا بهم سنة أهل الكتاب؛ وقال: بان مقتضى الآية والصحيح الاول عدم جواز النكاح مطلقا غبطة ومتعة، والاخبار الثلاثة ضعيفة لا جابر لها ضرورة عدم تحقق شهرة بذلك، بل لعل الشهرة على الخلاف، بل من التبيان والسرائر الاجماع على ذلك والمرسلان فاقدان شرائط الحجية، بل زيد في الثاني منهما غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم؛ فيراد منها بالنسبة الى غير ما نحن فيه، ففي المقنعة عن امير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ الرواية المتقدمة من المفيد ـ على ان المراد بأهل الكتاب من أظهر اتباعه والانقياد له، لا من حرّفه واعرض عنه، بل المنساق من أهل الكتاب في مثل آية المائدة التي في محل بحث اليهود والنصارى، كما لا يخفى على من تأمل موارد اطلاق هذا اللفظ لعدم العبرة عندنا بغير التوراة والانجيل من باقي الكتب التي هي على ما قيل: نقل من الانبياء بالمعنى لا انّ الفاظها نزلت من رب العزة أو انّها مواعظ ونحوها لا احكام، ولعلّه لذلك خص أهل الكتابين ببعض الاحكام دون غيرهم، فالّذي يقوى في النظر حرمة نكاحهم مطلقا إلاّ بملك اليمين. انتهى.

اقول: ولا يخفى ان القول بجواز نكاحهم في المتعة أيضاً لا يخلو من قوة لصريح ما تقدم من خبر منصور بن صيقل ورواية ابن سنان، وكذا بالجمع بين صحيحة ابن مسلم المتقدمة وبينهما قاض بذلك مضافاً الى مشابهة المتعة لملك اليمين؛ والى هذا القول ذهب المحقق في الشرايع.

هذا مجمل الكلام في نكاح المجوسية عند اصحابنا. واما عند الجمهور: لا تحل مناكحة المجوس باتفاق المذاهب الاربعة؛

وخالف داود، فقال: يحلها نظر لشبهة الكتاب. هذا ما صرح به كتاب الفقه على المذاهب[٣٣].

الثالث: لا يخفى ان في قوله تعالى: **﴿ولأمة مؤمنة خيرٌ من مشركة﴾** وقوله: **﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾** اشعار بجواز نكاح الاماء والعبيد للاحرار.

فحينئذ لا بأس بذكر الاقوال في عقد الامة والتزوّج بها على سبيل الاجمال.

فنقول: لا خلاف بين الاصحاب انّه لا يجوز ان يتزوج امة على حرة إلاّ باذنها؛ وفي الروضة: وهو موضع وفاق.

نعم وقع الخلاف بين الاصحاب فيما إذا لم يكن عنده حرة، المشهور كما نسب اليهم الشهيد الاول ـ قدس سره ـ في اللمعة بين الاصحاب القول: بالجواز مع الكراهة مطلقاً.

واستدلوا بالاصل وعمومات الكتاب كالآية المتقدمة، وقوله تعالى في سورة الاحزاب: **﴿في ازاوجهم وما ملكت أيْمانُهم﴾** آية ـ ٥٠ ـ وبقوله في سورة النساء: **﴿واحلّ لكم ما وراء ذلك﴾** آية ـ ٢٤ـ وبقوله في سورة النور: **﴿وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾** آية ـ ٣٢ ـ وقيل: بعدم جوازه فيما إذا كان مقدوراً له تزوّج بالحرّة، بأن يجد الحرة ويقدر على مهرهاونفقتها ويمكنه وطؤها، وهذا هو المعبر عنه بالطول، ولم يخشَ العنت، وهو في اللغه المشقة الشديدة، وشرعاً الضرر الشديد بتركه، بحيث يخاف الوقوع في الزنا لغلبة الشهوة؛ كما في الروضة، وامّا في صورة خوف العنت وعدم الطول فلا خلاف في جواز التزوّج بها، واستدلوا بظاهر قوله تعالى في سورة النساء: **﴿ومن لم يستطع منكم طَوْلاً ان ينكح المحصنات... الآية﴾ آية ـ ٢٥ـ**

هذا ما ذهب إليه أصحابنا الامامية، وامّا الجمهور: فعن مالك واحمد والشافعي: عدم جواز نكاح الاماء إلاّ بشرطين، خوف العنت وعدم الطول لنكاح الحرة، وعن ابي حنيفة: جوازه للحر مع فقد الشرطين، وانما المانع عنده من ذلك ان يكون تحته زوجة حرة أو معتد منها.

هذا ما صرح به الشعراني في كتابه ميزان الكبرى[٣٤] ويظهر من كتاب رحمة الامة في اختلاف الامة[٣٥].

هذا مجمل الكلام وسيأتي تفصيل الكلام فيها، في مواردها من الآيات. والله ولي التوفيق.

تنبيه: قد استظهر القرطبي في تفسيره[٣٦] من قوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾** على انّه لا نكاح إلاّ بولي، ونسبه الى محمد بن علي بن الحسين ـ عليه السّلام ـ انّه قال: النكاح بوليّ في كتاب الله؛ ثم قرأ: **﴿ولا تنكحوا المشركين﴾**؛ وبعد هذا ذكر احكام الولاية،

ولكن اصحابنا لم يتعرضوا في بيان هذه الآية الى احكامها، بل ذكروها في بيان قوله تعالى في سورة النساء: **﴿ومن لم يستطع منكم طولا... الآية﴾** ونحن تبعاً لهم نذكر أحكام الولاية في بيان تلك الآية. ومن الله التوفيق.

فائدة: في تعليل قوله تعالى: **﴿أولئك يدعون الى النار﴾** اشارة الى رجحان اختيار ذوي الصلاح والتقوى والاخلاق الفاضلة في الزوج والزوجة، لأنه بواسطة الازدواج تنعقد الاسرة، فإذا كان شعار الاسرة التقوى والاخلاق الفاضلة، تتم السعادة الزوجية، وتؤثر اثراً بليغاً في الناشئة ورعايتها، وتنمية جسدها وعقلها وروحها، لأن في ظلها تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل.

وفي الاخبار الصادرة من أهل بيت العصمة ما يدل على ذلك.

منها: ما في حديث الكرخي قال: قلت لابي عبد الله ـ عليه السّلام ـ ان صاحبتي ملكت، وكانت لي موافقة، وقد هممت ان اتزوج؛ فقال لي: أنظر اين تضع نفسك ومن تشركه في مالك وتطلعه على دينك وسرّك، فان كنت لابد فاعلاً فبكراً تنسب الى الخير والى حسن الخلق، واعلم انهنّ كما قال:

ألا ان النساء خلقن شتى
فمنهنّ الغنيمةُ والغرام

ومنهنّ الهلال إذا تجلّى
لصاحبه ومنهنّ الظلام

فمن يظفر بصالحهنّ يسعد
ومن يعثر فليس له انتقام

وهن ثلاث فامرأة بكر ولود ودود تعين زوجها على دهره لدنياه وآخرته، ولا تعين الدهر عليه، وأمرأة عقيم لا ذات جمال ولا خلق ولا تعين زوجها على خير، وامرأة صخّابة ولّاجة همازة تستقل الكثير ولا تقبل اليسير(٣٧).

وعن عبد الله بن مسكان عن بعض اصحابه قال: سمعت ابا عبد الله ـ عليه السّلام ـ يقول: انّما المرأة قلادة فانظر الى ما تقلده؛ قال: وسمعته يقول: ليس للمرأة خطر لا لصالحتهنّ ولا لطالحتهن، امّا صالحتهنّ فليس خطرها الذهب والفضة بل هي خير من الذهب والفضة، واما طالحتهنّ فليس التراب خطرها بل التراب خير منها(٣٨).

الى غير ذلك من الاخبار الدالة على رجحان اختيار النساء الصالحات، وفي بعضها النهي عن تزويج شارب الخمر والفاجرة ونحو ذلك.

الحمد لله تعالى شانه اولاً واخراً

الهوامش:

(١) صفحة: ٥٠.

(٢) ج٢ـ باب اختيار الازواج: ٢٢٦.

(٣) ج١باب تزوج ذات الدين: ٢٩٣.

(٤) قسم الاحوال الشخصية ٤: ٧٥ـ٧٦.

(٥) ٢: ٤٣.

(٦) التهذيب ٢ـ كتاب النكاح ـ باب من يحرم نكاحهن ـ: ١٩٩.

(٧) و(٨) و(٩) التهذيب ٢ كتاب النكاح في المحرمات بالسبب: ١٩٩.

(١٠) ٣: ٦٨.

(١١) و(١٢) و(١٣) التهذيب، كتاب النكاح ٢: ١٨٨.

(١٤) ٥: ٢٥٦.

(١٥) التهذيب، كتاب النكاح ٢: ٢٠١.

(١٦) كتاب النكاح. باب الحر يتزوج الامة ٥: ٣٦٠.

(١٧) التهذيب ٢: ١٩٩وفي الكافي باب نكاح الذمّية ٥: ٢٥٨.

(١٨) الكافي ـ كتاب النكاح ـ ٥: ٢٩٠.

(١٩) و(٢٠) الوسائل باب تحريم مناكحة الكفار: ١١٩.

(٢١) نقلهُ في الجواهر مرسلا ـ في كتاب النكاح ـ في نكاح الكتابية.

(٢٢) ٣: ١٥٠.

(٢٣) تفسير البرهان ١: ٤٣٠.

(٢٤) مستدرك الوسائل: في ابواب الوضوء ١: ٢٨.

(٢٥) كتاب النكاح ٤: ٧٦.

(٢٦) ١: ١٥٦.

(٢٧) كتاب النكاح باب جواز نكاح الامة الذمّية بالملك: ١٢٠ من الوسائل.

(٢٨) و(٢٩) و(٣٠) كتاب الجهاد ـ باب ان الجزية لا تؤخذ إلاّ من أهل الكتاب: ٤٨٥ الوسائل.

(٣١) و(٣٢) الوسائل كتاب النكاح باب حكم التمتع بالكتابية: ١٢٧.

(٣٣) ٤ ـ كتاب النكاح ـ: ٧٥.

(٣٤) ٢: ١١٤.

(٣٥) المطبوع على هامش ميزان الكبرى ٢: ٢٨.

(٣٦) التفسير ٣: ٧٢.

(٣٧) الوسائل كتاب النكاح ـ باب جملة ما يستحب اختياره من صفات النساء: ٥٨.

(٣٨) نفس المصدر المتقدم ـ باب استحباب اختيار الزوجة الكريمة الاصل: ٦١.

على طريق ذات الشوكة

الشيخ محمد مهدي الأصفي

﴿وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكه تكون لكم * ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ (الانفال: ٧).

﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتّبعوك ولكن بَعُدَت عليهم الشُقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون﴾ (التوبة: ٤٢).

لقد طال الطريق وطالت المحنة بالعاملين للاسلام، خلال العقود الأخيرة، وطال ابتلاء أبناء الاسلام هنا وهناك..

وفي خضم هذه المحنة احب ان اتحدث عن المحن والابتلاءات الطويلة، في تاريخ الحركات الاسلامية، والعاملين في سبيل الله، وعن الطرق والمسافات الطويلة والشاسعة التي يمتحن الله تعالى بها عباده في حركتهم إليه.

فالاسلاميون لا يتعرضون لاول مرة لمحنة طويلة وصعبه، وللحركه على طريق طويل وشاق، وانما تقع حركتهم في سياق حركات كثيرة من قبل، من النبيين والصالحين، والصديقين، امتحنهم الله تعالى بمثل هذا الابتلاء العسير، وطالت بهم المحنه، وطال بهم الطريق. والقرآن الكريم يحدثنا عن هذه المسافات الشاسعه والطرق الطويله والشاقة في حياة العاملين كثيراً.

اذن لكي تطمئن اقدامنا، وتثبت على الطريق العسير، لابد ان نعود الى كتاب الله لنتساءل عن طبيعة هذه المسافات وعن اعراضها وآثارها ونتائجها في حياة العاملين.

ولدينا على التحديد خمسة اسئله_

١ ـ ما هي المسافات الطويلة في حياة العاملين؟.

٢ ـ ما هي اعراض هذه المسافات؟.

٣ ـ ما هي مكاسب وآثار هذه المسافات في حياتهم؟.

٤ ـ ما هي عاقبه المسافات الشاسعة والشاقة في حياة المؤمنين؟.

٥ ـ ما هي الوسائل التي تمكننا من الحركه على طريق ذات الشوكه؟.

وفيما يلي نحاول ان نجيب على هذه الاسئله:ـ

١ ـ المسافات الطويلة:

في كتاب الله نجد آيتين تخصان المسافات الطويلة والشاقة في حياة العاملين، إحداهما في سورة التوبة والاخرى في سورة الانفال.

أ ـ آية سورة التوبة:

﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تَبعوك ولكن بَعُدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾(التوبة: ٤٢).

وهذه الآية الكريمه تقرر حقيقتين هامتين في حياة الناس، وهي أنّ روّاد المسافات القصيرة كثيرون **﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾**.

والعرض القريب المتاع القريب الذي يناله الانسان من أيسر الطرق، وبأيسر الوسائل، والسفر القاصد: السفر المعتدل المريح الذي لا يكلف اصحابه جهداً كثيرا.

والحقيقة الثانية: إن الناس عندما يطول عليهم الطريق وتبعد عليهم الشقة فسيتخلفون ويعتذرون.

والشقة: الطريق الطويل الشاق.

اذن قليل من الناس اولئك الذين يصبرون على السير على الطرق الوعرة والصعبة والشاقه. اما الطرق والمسافات القصيرة فروادها كثيرون.

ولذلك يكثر من الناس الاقبال على (الدنيا)، ويقل دائماً المقبلون على الاخرة، لأن الناس ينالون متاع الدنيا من ايسر الطرق وبأيسر الوسائل، نيلاً سريعا. اما متاع الاخرة فلا يناله الناس إلاّ بعد جهد ومشقه وعناء **﴿ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألاّ إن نصر الله قريب﴾**(البقرة ٢١٤).

ونحن في مواجهة الظالمين نجد أمامنا خيارين، احدهما يسير وسهل ومريح،

والاخر عسير وصعب وشاق.

اما اليسير منهما فهو مصانعة الظالمين، والوصول معهم الى حدود مقبولة من التفاهم، والاعتراف بوجودهم ليعترفوا لنا ببعض حقوقنا، وهذا هو الطريق اليسير، الذي لا يكلف المؤمنين في انفسهم واهليهم واموالهم كثيرا.

واما العسير منهما فهو المواجهة والمقابلة وما تتطلبانه من الصبر على الاذى والعذاب في سبيل الله، وما تؤدي إليه احياناً من انتكاسات صعبة ومرة. وتنطوي هاتان على رفض الاعتراف بالكيان السياسي للعدو، ورفض التفاهم معه، إلاّ ان يسلم لرب العالمين.

وهذه المواجهة إذا كانت معقولة وقائمة على اسس موضوعية صحيحة تنتهي الى النصر، وان كانت تكلف اصحابها الكثير من انفسهم واموالهم واهليهم.

ب ـ آية سورة الأنفال:

﴿وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ (الانفال: ٧ ـ ٨).

وهذه الآية المباركة نزلت في المسلمين في معركة بدر، وكان اصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتمنون عندما خرجوا من المدينة ان ينالوا الغنيمة من أيسر الطرق وبأيسر الوسائل، ودون أن تنالهم بأساء أو ضراء. وقد وعدهم الله تعالى إحدى الطائفتين أنّها لهم، اما الغنيمة الباردة والعرض القريب، أو النصر على طريق ذات الشوكة، في البأساء والضراء، وقد كان المسلمون يؤثرون الغنيمة البارد؟ من تجارة قريش ومتاع الشام الذي كان يحمله معه أبو سفيان من الشام الى مكة، على الحرب الضارية والشرسة التي واجهها المسلمون في بدر بين مكة والمدينه، وهم يبحثون عن قافلة قريش التجارية والمحملة بمتاع الشام الذي كان يتمناه المسلمون يومذاك.

﴿وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم﴾.

و﴿ذات الشوكة﴾ هي الطرق الشائكة والصعبة التي يمتحن الله تعالى بها عباده في حركتهم إليه.

وإذا ضممنا آية التوبة الى آية الأنفال نجد أنّ متطلبات الطرق والمسافات البعيدة والشائكة هي [الصبر والوعي]، فإن هذه

المسافات تتطلب من العاملين الصبر والثبات والمقاومة، كما تتطلب منهم الوعي والحذر، فإن الحركة على الطرق الشائكة [ذات الشوكه] لابد ان تقترن بالوعي والحذر بطبيعة الحال.

وقبل هذا وذاك لابد من الثقة بالله والاتكال على الله، والاستعانه بحول الله وقوته، للعاملين على هذه الطرق، ومن دون ذلك لا يستطيع الانسان مهما كان صبره ووعيه أنْ يواصل الحركه على هذه الطرق، وهو معنى [الصلاة].

وسوف نتحدث ان شاء الله تعالى عنه اكثر خلال هذا الحديث.

والان ننتقل الى الاجابة عن السؤال الثاني من الاسئلة التي استعرضناها قبل قليل على ضوء كتاب الله.

٢ ـ ما هي اعراض المسافات الطويلة:

ان من اهم أعراض المسافات الطويله التعب واليأس. وهما من اقوى عوامل التثبيط والتساقط والتخاذل، ولذلك يقل دائماً روّاد المسافات الطويلة ويكثر المترددون والسائرون على المسافات القصيرة، ويقل المتساقطون عليها، بينما كثر المتساقطون على المسافات الطويلة والشاسعة.

فإذا دُعي الناس الى طريق طويل هب للتحرك طائفة منهم، فإذا ضربوا في السير بدأ هذا الجمع بالتناقص، وكلما امعنوا في السير كثر المتساقطون منهم. وهذه سنه ثابته في المسافات الطويلة والمحن التي تطول بالناس.

وسبب هذا التساقط والتردد والتخلف هو [التعب] و[اليأس]. فقد يتعب العاملون عن مواصلة السير شان كل من يبلغ به التعب حداً يعجزه عن التحرك.

وقد ييأس العاملون عن مواصلة الطريق إذا نظروا الى طول الطريق وحجم العدو، وضخامة امكاناته، وكثرة عدده وماله، ونظروا الى قلة عددهم وشدة الفتن بهم، وتظاهر الزمان عليهم.

وان التعب واليأس يؤديان الى التخلف والتساقط كما ذكرنا. وهما يؤديان الى تبرير حالتي التخلف والتساقط ليبررّوا به تخلفهم وتساقطهم. والتبرير يجر الى التثبيط.

فإن الانسان إذا بّرر تخلفه، احب ان يقوى جانبه ويكثر عدد المتخلفين والمتساقطين من مثله، فيحاول ان يثبط الناس عن المواجهة والقتال.

وهذا الاخير يفصله عن جبهة الحق ويضعه في الجبهة المقابلة لها.

وهنا يتولد [النفاق] ويأخذ النفاق

شكله ونسيجه السياسي الخاص به.

العجب والرياء:

واخطر ما في هذه النقاط انها تختفي عن صاحبها وعن الاخرين اختفاءاً كاملاً في ساعات اليسر والرفاه، وتبرز مرة واحدة عند الشدة والابتلاء. وقد تكون نقاط الضعف هذه معروفة لصاحبها، ولكنه ينجح في اخفائها عن اعين الاخرين بالتظاهر بما لا يملكه من صفات القوة والترائي بما ليس فيه. وهذا هو [الرياء].

وقد تختفي هذه الصفات عن صاحبها وهو اخطر ما في هذا الامر فلا يعرف عن نفسه شيئاً حتى في لحظات الشدة والابتلاء.

والعامل الذي يخفي هذه الصفات عن صاحبها ويخفي الانسان عن نفسه هو [العجب]. فيتصور الانسان من نفسه ما ليس عنده من نقاط القوة والكمال.

والعجب يخدع الانسان عن نفسه. وبالرياء يخدع الانسان الاخرين عن نفسه، وهما اخطر العوامل في سلوك الانسان.

المراحل الاربعة للسقوط:

وتتطور هذه الاعراض في حياة الناس مرحلة السقوط الكامل ضمن اربع مراحل:

في المرحلة الاولى: تبرز على سلوك الانسان في لحظات الشدة والابتلاء ثلاث صفات هي:

١ ـ الخوف والجبن.

٢ ـ البخل والشح.

٣ـ الضعف.

وهذه الصفات الثلاثة إذا تمكنت من الانسان في ساحات المواجهة عطلت كل امكاناته وقدراته تماماً، واستنفذت كل جهده ومقاومته. وهذه هي المرحلة الاولى:

وفي المرحلة الثانية: يبدأ الانسان بالتخلف والتغيب والتهرب عن ساحة العمل والمسؤولية فيغيب ويعتزل الساحه، ويطلب العافية في حياته. ويؤثر السلامه على المخاطرة والمجازفة.

وفي المرحلة الثالثة: يبدأ الانسان بتوجيه غيابه وتخلفه عن الساحه وتبرير هذا الغياب والتشكيك في شرعية الحضور والعمل. والدوافع الخلفية لهذا الموقف هو الدفاع عن التخلف والغياب والتشكيك في شرعية الحضور والتكذيب لدعوة الانبياء. يقول تعالى **﴿ثم كان عاقبة الذين اساؤا السّوأى ان كذبوا بايات الله﴾** (الروم: ١٠).

وفي المرحلة الرابعة: يتحول الانسان من موقف الدفاع الى موقف الهجوم، فلا يقتصر امره في الدفاع عن موقفه السلبي تجاه المسؤولية، وانما يتحول الى موقف

هجومي في تعويق الناس وتثبيطهم عن التحرك والمواجهة وخوض الصراع وصدهم عن سبيل الله، وهنا يتحول الانسان الى الصف المقابل لصف الانبياء والدعاة الى الله، ويتحول عمله الى نقض عمل الانبياء وهو اقصى درجات السقوط.

المعوقون:

والتعويق والتثبيط نهاية السقوط في حياة الانسان، وفي هذه المرحلة من السقوط يتحول الانسان الى صف المكذبين للانبياء والناقضين لدعوتهم والصادين عن سبيل الله. فلا يكتفي الانسان بالغياب عن المواجهة، ولا يكتفي بتبرير هذا الغياب والتشكيك في دعوه الانبياء وتكذيبهم، وانما يتجاوز ذلك كله الى نقض دعوه الانبياء والصد عن سبيل الله، ودعوة الناس الى مشاقة الانبياء ومخالفتهم، وهؤلاء هم [المعوقون].

ولنقرأ هذه الآية الكريمة من سورة الاحزاب التي تقدم لنا صورة دقيقة عن المعوقين. يقول تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * اذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً * واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا * واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم بها فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلاّ فرارا * ولو دُخِلَتْ عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبّثوا بها إلاّ يسيرا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسؤولا * قل لن ينفعَكم الفرار إنْ فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلاّ قليلاً * قل من ذا الذي يعصمكم من الله إنْ اراد بكم سوءاً أو اراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا * قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لاخوانهم هلّم الينا ولا يأتون الباس إلاّ قليلا * أشحةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتم ينظرون اليك تدور أعينُهم كالذي يُغشىٰ عليه من الموت فإذا ذهب الخوفُ سلقوكم بالسنة حدادٍ أشحةً على الخير اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾** (الاحزاب ٨ـ١٩).

وهذه الآيات المباركات ترسم لنا

صورة دقيقة عن المعوقين والظروف التي استدرجتهم الى هذه العاقبة.

فتبدأ الآيات ببيان نعم الله تعالى العظيمة، والتنبه الى رحمة الله تعالى بالمؤمنين ـاذه وتاييده لهم في احرج الساعات.

﴿يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا﴾ (الاحزاب: ٩).

ثم تشير الآية الكريمة ــ في المقطع الذي يليه الى ساعات العسرة والشدة، حيث تزيغ الابصار وتبلغ القلوب الحناجر، ويظن الناس بالله الظنون ويتعرض المؤمنون فيها لزلزال شديد.

﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا...﴾(الاحزاب: ١٠).

في هذه الساعات العسيرة وفي مثل هذه الابتلاءات الصعبة ينشطر الناس الى شطرين متمايزين: الصادقين والكاذبين

والصادقون هم المؤمنون، والكاذبون هم المنافقون.

ولقد كان الكاذبون كاذبين من قبل، ولكنهم كانوا يخفون كذبهم عن الاخرين ولربما كان كذبهم يختفي عن انفسهم، فلا يعرفون عن انفسهم انهم كاذبون فتكشفهم الابتلاءات العسيرة لانفسهم وللاخرين وتفرزهم وتميزهم عن الاخرين... وها هنا مولد النفاق أو الموضع الذي يبرز فيه النفاق.

فيبرز النفاق فجأة **﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً﴾** (الاحزاب: ١٢).

ولقد كان هذا المرض في نفوسهم من قبل لكنه كان كاظاً في نفوسهم خافياً عنهم وعن الاخرين، فلما حلت بهم الفتن برز هذا المرض بصورة قوية ومفاجئة.

ثم ترسم الآيات المباركة صورتين من [النفاق].

الغياب والتهرب عن ساحه المواجهة.

والتعويق والتثبيط.

اما عن التهرب عن المواجهة والاعتذار فيقول تعالى: **﴿ويستاذن فريق منهم النبي يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون إلاّ فرارا﴾** (الاحزاب: ١٣).

اما عن التعويق والتثبيط والصد عن سبيل الله فيقول تعالى: **﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم بها فارجعوا﴾** وتشرح الآيات الكريمة بعد ذلك درجة سقوط هذه الفئة ودرجة انهيارهم في

الفتنة واستسلامهم لها وهي اقصى درجات الانهيار والاستسلام: **﴿ولو دُخِلَتْ عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لاتوها وما تلبثوا بها إلاّ يسيراً﴾**.

وتذكرهم الآيات المباركة بعد ذلك بعهد الله الذي عاهدوه والتزموا به، وقطعوه على انفسهم... وتذكرهم بان الله تعالى سوف يسألهم لا محالة عن هذا العهد الذي قطعوه على انفسهم، ويوقفهم موقف السؤال العسير يوم يوقف عباده للسؤال عن العهد.

﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسؤولا﴾.

ولا ينفعهم الفرار والهروب من القتل. واني يفر الانسان من قبضة سلطان الله تعالى وقضائه وحكمه.

﴿قل لن ينفعكم الفرار إنْ فررتم من الموت أو القتل و إذاً لا تمتعون إلاّ قليلا * قل من ذا الذي يعصمكم من الله إنْ أراد بكم سوءً أو اراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾.

ثم ترسم لنا هذه الآيات هذه الصورة العجيبة والرهيبة عن المعوقين الذين تناولت الآيات الكريمة اطرافاً من سلوكهم وتناقضهم مع انفسهم وغيابهم وتهربهم عن المسؤولية وصدهم عن سبيل الله، فلنتامل هذه الصورة العجيبة التي ترسمها هذه الآيات المباركات.

﴿قد يعلم الله المُعَوِّقِين منكم والقائلين لاخوانهم هَلُمَّ الينا ولا يأتون الباس إلاّ قليلا * اشحَّةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينُهم كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحَّةً على الخير اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم﴾.

وانها اوصاف عجيبة يحملها هؤلاء:

لا يأتون الباس إلاّ قليلا، اشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت اشحة على الخير. هذه اوصافهم في ساحة العسرة.

اما في ساعات اليسر حيث يذهب الخوف: فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد.

وتشير الآية الى الدور السلبي الذي يقوم به هؤلاء في الصد عن سبيل الله بعد الفرار والهزيمه والغياب **﴿قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لاخوانهم هلمّ الينا﴾**.

ومن عجب ان هذه الاوصاف كانت موجودة في نفوسهم من قبل، إلاّ انها كانت كامنة. فإذا جاء الخوف برزت وظهرت

﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك...﴾.

وفي نهاية هذه الصورة العجيبة يحكم الله تعالى حكمه الذي لا راد له بحق هؤلاء ﴿اولئك لم يؤمنوا فأحبطَ اللهُ اعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا﴾.

هذه الحالة من التعويق والتثبيط واحدة من افرازات ساعات العسر والشدة ولولا ساعات الشدة، وطريق ذات الشوكة لم ينفرز هؤلاء عن صفوف المؤمنين، ولا أثقلوا صفوف المؤمنين بما فيهم، واتعبوهم وأبطأوا حركتهم.

٣ ـ ما هي اثار وخصائص السير على المسافات الطويلة؟.

المسافات الطويلة تكشف نقاط الضعف في نفوس العاملين. فلا يستطيع الانسان ان يكتشف نقاط الضعف في نفسه قبل الابتلاء والحركة. فإذا دخل ساحة الابتلاء والحركة عرف نقاط الضعف وشخّصها وعرف كيف يتعامل مع هذه النقاط، وكيف يسدها ويعالجها.

وهذا الاكتشاف لا يتم إلاّ عبر المحنة والمعاناة والابتلاءات وفي المسافات الطويلة والحركات ذات الشوكة.

هناك يستطيع الانسان ان يعرف نفسه جيداً، ويعرف نقاط الضعف ونقاط القوة في نفسه، ويتمكن من تسديد نقاط الضعف في نفسه.

ان الانسان قبل ان يقدم على تسلق الجبال الصعبة لا يعرف شيئاً كثيراً عن نقاط العجز والضعف في جسمه واجهزته الباطنية، فيتصور أنّه قادر على هذا التسلق، فإذا بدأ حركة التسلق وباشر ذلك ظهرت له بالتدريج نقاط الضعف والعجز في جسمه وعضلاته وعظامه وقلبه ورئته وعرف من جسمه وجوارحه واجهزته الباطنيه ما لم يكن يعرف من قبل.

ولذلك فإن من المفيد ان يدخل الانسان دورة اختبارية قبل ان يبدأ بمثل هذه الحركات والاعمال الصعبة مهما كان نوع هذه الحركات والاعمال، من قبيل التسلق، ام من قبيل المواجهة العسكرية الميدانية، ام من قبيل المواجهة السياسية والحضارية والعقائدية.

ولعل من ذلك فترات الابتلاء الصعبة في تاريخ الانبياء التي تسبق الصراع العقائدي والحضاري الحاسم بين الانبياء عليهم السّلام واقوامهم.

يقول تعالى: ﴿وما ارسلنا في قرية من نبيٍّ إلاّ اخذنا اهلها بالباساء والضرّاء﴾ (الاعراف: ٩٤).

وليس من شك ان البأساء والضراء الذين يأخذ بهما الله تعالى الانبياء عليهم السّلام ومن يقوم معهم من المؤمنين يعدهم لخوض الصراع الحاسم بين التوحيد والشرك، ويرفع درجة كفاءتهم في الصمود في هذا الصراع العنيف والضاري.

وهذه احدى النتيجتين، وهي نتيجة تخص الكيان النفسي للفرد.

والنتيجة الاخرى للحركات ذات الشوكة تخص الكيان الجمعي للامة الناهضة بحركة التوحيد. فإن المسؤوليات الصعبة لرسالة التوحيد تتطلب من الامة الناهضة بهذه الحركة ان تكون ذات كفاءة عالية في المقاومة والصمود. وان وجود العناصر الضعيفة في جسم الامة يعقدها ويبطىء حركتها، ويسلبها المقاومة في مواجهة التحديات.

ولا شيء اضر على الامة الناهضة بحركة التوحيد في ظروف الصراع الضاري من الترهل. ولا شيء اكثر ضرورة في تكوين الامة النفسي في هذه المرحلة من صلابة النواة الاولى التي تحمل مسؤولية رسالة التوحيد.

ومثل هذه الابتلاءات تمنح النواة الاولى للدعوة هذه الصلابة والمتانة والاستحكام الذي تحتاجه الدعوة في المراحل الاولى من صراعها مع ائمة الشرك والكفر.

ولا يقتصر الاثر السلبي للعناصر الضعيفة في جسم الدعوة في ضعفها وبطئها فقط، فإن هذه العناصر بالاضافة الى بطئها وركودها تعوق حركة الاخرين وسيرهم.

وحالات اليسر والرفاه تخفي عادة العناصر الضعيفه التي تعوق حركه الدعوة، وحالات الشدة والعسر تفرز هذه العناصر، وتميزها عن العناصر القوية والكفوءة القادرة على مواجهة التحديات وتجاوزها.

ان طريق ذات الشوكة يشطر الناس شطرين: الصادقين والكاذبين وفي حالات اليسر والرفاه يختفي الكاذبون في صفوف الصادقين، فلا يمكن التمييز بينهما إلاّ بمشقة وصعوبة. والتجمع الذي يجمع هذا الخلط من الصدق والكذب تجمع قليل الكفاءة في مواجهة التحديات ان لم نقل انه عديم الكفاءة. ولقد كان لصلابة النواة الاولى للدعوة في حياه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم دور كبير في كفاءة الثله الاولى من اصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مواجهة تحديات قريش واليهود وحلفائهما، ولولا صلابة وقوة هذه الثلة الصالحة من اصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لما استطاعت الدعوة يومئذ ان تجتاز كل تلك الاعاصير التي اثارتها قريش واليهود

وحلفاؤهما ضد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الجزيرة. ولولا الايام الصعبة التي تمرست فيها هذه العصبة من اصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مكه والمدينة في بداية الهجرة لما تكونت هذه النواة، ولم تتكامل هذه النواة فيما بعد، فتكون منها شجرة باسقة طيبة، يمتد ظلالها من اقصى الشرق الى اقصى الغرب.

التمحيص على الخط العمودي والافقي:

والمهمه الاولى هي التحميص على الخط العمودي في نفوس الدعاة الى الله والعاملين في سبيل الله.

والمهمه الثانية هي التمحيص أيضاً، ولكن على الخط الافقي في كيان الامة هذه المرة.

وإذا كان التمحيص الاول يشذب الفرد مما كان عليه من نقاط الضعف ويأخذ من هذه النقاط، فان التمحيص الثاني يشذب الامة مما ينضم اليها من العناصر الضعيفة.

ولنقرأ مرة اخرى (التمحيص) في ايات من (آل عمران) على الخطين العمودي والافقي. هذه الآيات تحدد وبصورة دقيقه دور التمحيص في حياة الافراد وفي حياة الامة، على الخط العمودي وعلى الخط الافقي كما شرحنا ذلك من قبل.

يقول تعالى: **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الامثال نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾**(آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤١).

والتمحيص الاول هو قوله تعالى: **﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾** وهذا هو التمحيص الذي يجري على الخط العمودي داخل النفس.

والتمحيص الثاني هو قوله تعالى: **﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾** والله تعالى يعلم الذين آمنوا منا، ولكن الله تعالى يريد ان يفرز الذين آمنوا حق الايمان من الذين لم يؤمنوا كذلك في مثل هذه المعاناة والمحنة، ويخلص الذين آمنوا حق الايمان من الذين لم يؤمنوا كذلك.

ومن عجب ان الله تعالى لا يتخذ من الذين آمنوا منا شهداء حتى يعلم الله الذين آمنوا منا، وحتى يخلص تجمع المؤمنين منا من الذين لم يؤمنوا حق الايمان...

عندئذ فقط يتخذ الله تعالى من المؤمنين شهداء.

٤ ـ عاقبة المحنة على طريق ذات الشوكة:

كان المسلمون يتمنون عندما خرجوا لاول مرة من المدينة في معركة بدر ان يلتقوا قافلة قريش المحملة بتجارة الشام وان يرجعوا الى بيوتهم وذويهم محملين ببضائع الشام، وكانوا يكرهون ان تفوتهم هذه القافلة ليلقوا بدلاً عنها جيشاً مدججاً بالسلاح من قريش جاء ليدافع عن تجارة قريش وكرامتها وعزتها.

وكانوا يؤثرون الغنيمة الباردة التي يصيبونها من تجارة قريش على النصر الذي يظفرون به عن طريق ذات الشوكة في الحرب.

وكان الله تعالى قد وعدهم على لسان رسوله احدى الطائفتين اما الغنيمة الباردة أو النصر على طريق ذات الشوكة.

ولم يكن احب اليهم من ان يختار الله تعالى لهم الاولى على الثانية.

إلّا ان الله تعالى كان يريد لهم الثانية دون الاولى.

وهذا هو الفارق بين ما يريد الانسان لنفسه وبين ما يريده الله تعالى للانسان.

ان الانسان يطلب لنفسه اليسير العاجل، والسهل المريح والله تعالى يريد ان يجعل من الانسان خليفة له واداة لتنفيذ مشيئته وارادته في الارض، ويريد ان يحق به الحق ويبطل الباطل...

وذلك يتطلب من الانسان ان يسلك سبيل ذات الشوكة. وشتان بين ما يريده الانسان لنفسه وبين ما يريده الله تعالى له.

نتائج السير على طريق ذات الشوكة في سورة (الأنفال):

في سورة الأنفال يقرر القرآن نتائج الحركة على طريق ذات الشوكة بهذه الصورة: **﴿وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أنْ يحقّ الحق بكلماته، ويقطع دابر الكافرين﴾**.

وبالتحديد يحدد القرآن نتائج هذه الحركة في هاتين النقطتين.

١ ـ ليحق الحق بكلماته.

٢ ـ ويقطع دابر الكافرين.

ان تثبيت كلمة التوحيد، وتحكيم حدود الله، وتقرير حاكميه الله تعالى، وتنفيذ امره ونهيه، وتعبيد الانسان لله تعالى في كل شيء وفي كل شأن هو النقطة الاولى من هاتين الحقيقتين: (ليحق الحق بكلماته).

وازالة نفوذ الطاغوت وسلطانه، وقطع دابر الكافرين وإنهاء حاكمية الطاغوت في حياة الانسان هو النقطة الثانية من هاتين النقطتين.

والنقطة الثانية تحرير ارادة الانسان من أسر الطاغوت فيملك الانسان بذلك قرار نفسه، ويملك لنفسه حق الاختيار.

والنقطة الثانية تعرج بالانسان الى الله، وتبوؤه في موضع خلافه الله تعالى في الارض، وتجعل منه اداة لتنفيذ مشيئة الله، وتسمو به الى الله تعالى.

ولو لا ما يلقاه الانسان على طريق ذات الشوكة من عذاب وعناء ومحنة لا يتمكن من ان يتحرر من أسر الطاغوت ونفوذه وسلطانه، ولا يتمكن من ان يرتفع الى موقع الخلافة والشهادة.

ولقد كان الله تعالى يعلم أنّ كلمة الحق لا تسود على وجه الارض وكلمة الباطل لا تسقط إلاّ على طريق ذات الشوكة، ولا تقوم للحق دولة وقوة وهيبة وسيادة إلاّ على هذا الطريق، ولا يتم ابطال الباطل وزهوقه وسقوطه واستئصاله إلاّ على طريق ذات الشوكة.

على هذا الطريق الشائك فقط يتم تحرير الانسان من عبودية الطاغوت وعروج الانسان وصعوده الى الله تعالى.

لقد كان المسلمون الاوائل رحمهم الله في بدر يطلبون بضاعة الشام المحملة في عير قريش، وكان الله تعالى يريد لهم السياده على وجه الارض، ويريد الله ان يهدم لهم قلاع الكفر في فارس والروم، ويحرر الانسان بهم من الطاغوت.

النتائج الاربعة في سورة آل عمران:

وفي سورة آل عمران نقرأ نتائج وعاقبة رحلة المعاناة والعذاب في حياة العاملين بمايلي:

﴿وليعلمَ الله الذين امنوا.
ويتخذ منكم شهداء
وليمحص الله الذين آمنوا
ويمحق الكافرين﴾ (آل عمران).

وهذه اربعة نتائج:

﴿ليعلم الله الذين آمنوا﴾ وهذا هو التمحيص الذي سبق أنْ أشرنا إليه على الخط الافقي داخل مساحة الجماعة المسلمة، حيث تودي المحنة الى فرز وفصل العناصر الضعيفة عن العناصر القوية المؤمنة حقاً.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وهذه هي النتيجة الثانية بعد عملية (الفرز)، إنّ هذه المحنة تجعل من المؤمنين قيمين على حركة الانسان على وجه الارض وشهداء وادلاء، ويجعل منهم قدوات للناس، ويقيسون انفسهم بهم، ويكتشفون بهم نقاط الضعف من انفسهم، ويقتدون بهم.

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ وهذه

النتيجه الثالثة وهي التمحيص على الخط العمودي في عمق النفس بالمعاناة والعذاب.

ومن دون هذا التمحيص لا يكتشف الانسان نفسه، ولا يستطيع ان يسدد نقاط الضعف في نفسه، ولا يقوى عوده، ولن يكون قوياً صلباً في مواجهة التحديات.

﴿ويمحق الكافرين﴾ وهذه هي رابع النتائج، فإن محق الكافرين وهلاكهم وسقوطهم، وسقوط الكفر لن يكون بغير العبور من خلال هذه المعاناة الصعبة.

ومن عجب ان معاناة المؤمنين والكافرين في هذه المرحلة من التاريخ واحدة، فإن المؤمنين يعانون كما ان الكافرين يجدون هذه المعاناة أيضاً من دون فرق.

﴿وإنْ يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾.

﴿وان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا ترجون﴾(النساء: ١٠٤).

وان هذه المعاناة للمؤمنين تمحيص وللكافرين محق. ان المعاناة نفس المعاناة، ولكنها للمؤمنين ولادة جديدة، وللكافرين معاناة النزع والاحتضار.

﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾

والمعاناة هي المعاناة ولا فرق بين معاناة ومعاناة، ولكن للمؤمنين بشرى بولادة جديدة وللكافرين نذير بالسقوط والهلاك.

٥ ـ الوسائل التي تمكننا من الحركة على طريق ذات الشوكة:

ان الحركة على طريق ذات الشوكه من أشقّ الاعمال وأكثرها عناء في حياه الانسان. ولو لا ان الانسان يشد على هذا الطريق حبله بحبل الله، ويعتصم بحبل الله، لما امكنه من ان يواصل هذه المسيرة الشاقة العسيرة. ويكفي في أمر هذه المسيرة وعنائها وما يصيب المؤمنين فيها من تعب ويأس ومن بأساء وضراء. ولنقرا هذه الآيات المباركات من سورة البقرة: **﴿ام حسبتم أنْ تدخلوا الجنةَ ولما ياتكم مَثَلُ الذين خلوا من قبلكم مسَتهم البأساء والضراء وزُلزلوا حتى يقولَ الرسول والذين معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب﴾** (البقرة: ٢١٤).

وهذه الآيات من سورة الاحزاب:

﴿... اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل

منكم وإذ زاغت الابصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنّون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ (الاحزاب: ٩ ـ ١١).

وهذه الآيات تشير الى عمق المعاناة في نفوس المؤمنين، ولا تبلغ المعاناة في نفس الانسان اعظم من ان يقول الرسول والذين معه متى نصر الله، واعظم من ان تزيغ الابصار وتبلغ القلوب الحناجر، ويظن المؤمنون بالله الظنونا.

والذين اصابهم التعب واليأس، وتساقطوا على هذا الطريق وتراجعوا أو توقفوا عن مواصلة السير اكثر ممن واصلوا الطريق الى نهايته، وانتهوا الى ساحل النجاة.

وان البدء في هذه الحركة، والدخول في هذه الساحه صعب عسير، واصعب منه واعسر ان يواصل الانسان هذا الطريق الى نهايته.

فما هي الوسائل التي تمكن الانسان من مواصلة العمل والحركة على طريق ذات الشوكة؟.

ان القرآن الكريم يلخص ذلك في كلمتين:

الصبر، والصلاة.

والصبر والصلاة هما الاداتان المفضلتان في القرآن الكريم لتمكين الانسان من التحرك على طريق ذات الشوكة، ومواجهة التحديات الصعبة التي يواجه بها ائمة الكفر والشرك، الدعاة الى التوحيد في امتداد التاريخ.

يقول تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾(البقرة: ٤٥).

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين﴾ (البقرة: ١٥٣).

والصبر في علاقة الانسان بنفسه.

والصلاه في علاقة الانسان بالله تعالى.

ولابد منهما معاً، لابد ان يكون الانسان قوياً ثابتاً لا يتزلزل ولا ينهار أمام إعصار التحديات في علاقته بنفسه.

وعي المحنة:

وليس يتأتى لاحد ان يكون قوياً ثابتاً في المحنة، لا تزلزله اعاصير الابتلاء إلاّ عندما يكون واعياً للمحنة، فإن اكثر الذين يسقطون في المحنة من الذين لا يعون المحنة.

فإذا كان الانسان يرى المحنة شراً يراد له وانه وحده يواجه هذا الشر، فلابد ان ينزع الى الفرار من هذا الشر الذي لا يطيقه.

واما إذا كان واعياً للمحنة، وانها ليسَ من الشر في شيء وانما ابتلاه الله تعالى

والمؤمنين بها لأنه اراد بهم خيراً، وان الله تعالى بعد ذلك لا يتركهم لوحدهم في وسط المحنة وانما يمد اليهم يده، ويشد على قلوبهم، ويقوّي من عزمهم، ويسهل لهم الصعاب، ويذلل لهم العقبات، فالأمر يختلف تماماً، فلا ينهار الانسان امام المحنة، ولا يتزلزل، ولا يتراجع.

وهذا هو الجانب السلبي من الصبر.

واما الجانب الايجابي من الصبر، فلابد ان يكون الانسان صبوراً في مواجهة الواقع بأدواته المكافئة له، فلا ينال الانسان ما يريد بالتمنيات والشعارات، وانما ينال ما ينال باذن الله، بمواجهة الواقع بما يكافئه من الوسائل والادوات.

ولكي يواجه الانسان الواقع بما يكافئه، يحتاج الى تشخيص دقيق لساحة عمله، وعدده وامكانات عدوه، ويحتاج الى تفكير وتخطيط لمواجهة هذا الواقع، وهذا هو (الصبر) وهو احدى هاتين الاداتين.

واما الاداة الاخرى فهي (الصلاة)، في علاقة الانسان بالله تعالى: فلا يكفي الصبر والثبات والتخطيط والتشخيص في هذه الحركه الصعبة والعسيرة إذا قطع الانسان حبله عن حبل الله تعالى. فان الانسان ضعيف في امكاناته وقدراته وعقله وصبره لا يستطيع ان يواجه بعض هذا الواقع، فإذا وصل الانسان حبله بحبل الله، وشد حوله بحول الله، وقوته بقوه الله، ذلت له الصعاب.

ومن يربط حوله بحول الله، وقوته بقوه الله، لا ينفذ حوله وقوته في أي حال من الاحوال، ومهما اشتدت عليه الازمات، وتكالبت عليه الفتن، فان الله تعالى لابد ان يفتح عليه ويرزقه فرجاً ومخرجا من كل ضيق يلقاه وشدة.

ولقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يواجه من عتاة قريش في مكة والمدينة ما يضيق به صدره الكبير الذي شرحه الله تعالى... فانزل الله تعالى عليه سورة هود، يامره الله تعالى فيها بالاستقامة والصبر ﴿فاستقم كما أمِرتَ ومن تاب معك﴾ امام تلك الموجات العاتيه من التحدي والمشاكسه، يذكره الله تعالى بقصص ممن سبقه من الانبياء الذين حملوا رسالة الله تعالى، ولقوا ما لقوا من عذاب وعناء، وثبتوا وصبروا، ثم يامره الله تعالى في نهاية هذا الشوط بالصبر والصلاة.

﴿وأقم الصلاه طرفي النهار وزلفىً من الليل إنّ الحسناتِ يُذهبْنَ السيئات ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فان اللهَ لا يُضِيعُ اجرَ المحسنين﴾ (هود: ١٤ـ١٥).

والحمد لله رب العالمين

القرآن ومنهج التفكير

الدكتور عبد الجبار شرارة

مما لا شك فيه أنَّ الحاجة الى منهج في التفكير لضبط العمليات والأنشطة العقلية المتنوعة، أمرٌ على غايةٍ من الأهمية والخطورة، ليس على مستوى تجنيب الانسان حالة التخبط والفوضى والاضطراب فحسب ــ وهذا أمرٌ بحد ذاته يشكل مرتكزاً مهماً في أيّة بناء حضاري - وإنما لما لذلك المنهج من دور خطيرٍ أيضاً ينعكس على ضبط الفعاليات الاجتماعية، والأنشطة الأُخرى، وله انعكاساته الجدية أيضاً على المسيرة العلمية والتطورية باتجاه الترقي والبناء (عمارة الكون) ومن هنا كان اهتمام القرآن جديّاً واساسياً في دعوة الأنسان الى امتلاك منهجٍ صحيح وسليم في التفكير.

وهذا الأمر يطرحه القرآن ليس على انه (موعظة)، بل جعل التفكير (فريضةً) على كل مُسلمٍ، فامتلاك منهج التفكير الصحيح، والوصول الى الحقائق لم يُوكله القرآن الى (النخبة) أو الى طبقةٍ معينة كما حصل مثل هذا في (عملية استنباط الحكم الشرعي) إذ أوكل العملية هنا الى المتخصصين من (الفقهاء) ــ وفي هذا قيمة حضارية رهي احترام (ذوي الاختصاص)، وإنما جعل مهمة التفكير الفلسفي وامتلاك المنهج وظيفة كل فردٍ على التعيين. والقرآن هنا وإنْ قَرّرَ ذلك وأكدّه مراراً إلا أنه لم يترك الأنسان نهباً (للمناهج غير السليمة أو المنحرفة) تتناهبه ذات اليمين وذات الشمال، بل وضع أمامَهُ (المنهج المستقيم) محدداً أبعادَه ومعالمه، مبيّناً عناصره وآفاقه. وهذا ما نعرض له في هذه الدراسة.

أولاً: الدعوة الى التفكير

إنَّ الدعوة الى التفكيـر وامتلاك المنهج تأخذ بعدين في نظر القرآن الكريم.

أولهما: دعـوة الأنسان الى تدبـر آيات الكون وصفحـات الوجود وآفاقـه، وذلك من خلال الكشف عـن حقائقه المذهلـة، وعرض تجليات القـدرة الخلاقة، وصـور الابداع في هنـدسـة الوجـود، وهـذا يعني الحـثّ على التأمل الجدي، وتعقل ما وراء ذلك قال تعالى **﴿إنَّ في خلـق السموات والأرض واختـلاف الليل والنهـار والفلك التي تجري فـي البحر بما ينفع الناس وما أنزل من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كلِّ دابةٍ وتصـريف الرياح والسحـاب المسخَّر بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾**[1] فهنا دعوة الى النظر والاستقصاء والتعقل.

والبعد الثـاني: إنه يحدد وظيفـه الفرد المسلـم علـى التعييـن بضـرورة التفكيـر ويأمـره صـراحةً بـذلك؛ قـال تعـالى: **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشيء النشأة الآخرة...﴾**[2] وقال تعالى: **﴿ويتفكـرون في خلـق السمـوات والأرض ربّنـا ما خلقـت هـذا باطـلاً﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾**[4]. وهنا النظر والتدبر على سبيل الوجوب، واستناداً الى ذلك ذهب علماء الملة الاسـلاميـة الى (وجـوب النظـر)[5]أي الاستدلال وتحصيـل البرهان فـي المسائل الاعتقادية.

إنَّ القرآن الكريم عندمـا يعرض أمامنا صفحـات الكون والـوجـود، ويُطلعنـا على الهندسـة العجيبة، وعلى آثـار قدرة تعـالى المنبثـة في كل شـيء من حـولنا، بـل وفي أَنفسنا **﴿سنريهـم آياتنا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّنَ لهـم انّه الحق..﴾**[6]، انه عندمـا يعرض امامنا ذلك، فإنما يـدعونا الى استخلاص الحقائق، واكتشاف القوانين العامـة التي تحكم الـوجود، ومن هنـا نفهم قول الأمام علي عليه السّلام أيضاً «استدلوه ـ أي القرآن ـ على ربكم...»[7].

ثانياً: طريقة التفكير واسلوبه:

إنَّ القرآن الكريم لم يكتف بالدعوة الى اعتمـاد منهجٍ سليم للتفكيـر، واعتبـار ذلك وظيفـة الفـرد المسلـم فحسـب، بل يضـع بأيـدينـا أيضـاً الطـريقة السليمـة العلميـة للوصـول الى الحقـائق ويُعرّفنـا ـ في هـذا المجال، وضمن اطـار الفهم العميق لأسرار

الوجـود ـ أسـاسيات المنهج وأبعـاده، فهو منهج يقـوم أول مـا يقـوم علـى البـرهـان الوجداني قـال تعالى **﴿ولئن سألتهـم من خلقهم ليَقولُنّ الله﴾**[8]، وقال تعالى **﴿ولئن سـألتهـم مـن خلـق السمـوات والأرض وسخَّر الشمسَ والقمر ليقولُنَّ الله﴾**[9].

إذن القـرآن هنـا يستحـثُ الـوجـدان ويستنطقه، ويدعو الانسان الى القيام برحلة داخلية مع نفسه، (في حـوارٍ مع الذات) فيه الصراحة المتناهية، وإنَّ هذا الحوار الداخلي هو الآخر يجب أن يتمَّ بصيغة أسئلة يحكمها المنطق، ليكون هنـاك اتساق بين الـوجدان والعاطفة من جهة، وبين المنطق والعقل، أي أن يكون هناك تناغمٌ. والقـرآن هنا ـ كما هو في منهجه العـام ـ يحرصُ دائمـاً على عدم تغييـب العقـل والتعقـل، على الـــرغـم مـن اهتمامـه بالمعرفـة التي مصدرها الـوجدان الداخلي والإدراك الخاص ـ قال تعالى **﴿أفي الله شكٌ فاطر السموات والأرض...﴾**[10].

وهكذا نجدُ أنَّ القرآن عنـدما يفرغ من عملية استنهـاض وحثّ منطق الوجـدان في آيةِ عمليةِ تأمّل، نجـده أيضاً في عين الوقت يدعو الى اعتماد الأدلـة والبراهين الفلسفية والعلمية في اثبات المطالب.

إنّ القرآن يقدّم لنا أيضـاً عينةً من هذه البراهيـن، ويترك مساحـة مناسبة لحـركة العقل والاستعـانة بـالحواس. وهـذا أساس آخر من أُسس المنهج:

وقال تعالى: **﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختـلاف الليل والنهـار لآيـات لأُولي الألباب﴾**[11].

وقال تعالى: **﴿الذي جعل لكم الأرضَ مَهْداً وسلك فيهـا سُبلا وأنزل مـن السماء ماءً فاخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتى * كُلـوا وارعوا أنعـامكـم إنَّ في ذلك لآيـاتٍ لأولي النهى...﴾**[12] أي لذوي العقول.

وقال تعالى: **﴿ويتفكّـرون في خَلْـق السمـوات والأرض ربّنـا مـا خلقـت هـذا باطلاً﴾**[13].

إنَّ القـرآن الكريم مـن خلال ذلك كلـه يريد أن يقول لنا:

إنَّ البحـث والتأمـل في الآفـاق، وفـي الأنفـس، وفي مـا حـولنـا يجـب أن يلتـزم البرهان والدليل ويتـوسل بالحسّ والتجربة كلما أمكن ذلك، قال تعالى: **﴿سنريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم﴾**[14].

ثالثاً: الخطوات المطلوبة:

ولكن ما هي الخطوات التي يمكن أن تتبع للوصول الى الحقائق وتأسيس القناعة المطلوبة فيكون المنهج الذي يحدده القرآن ويضعه بين أيدينا منهجاً علمياً منتجاً؟

إنّ القرآن يستحث على عملية التأمل أولاً، والتأمّل هنا (عملية التفكير)، يمكن أن تتم بانفراد، وهذا هو الشائع ـ ويمكن أن تتمّ بصورة مشتركة، وهذه التفاتة بارعة من القرآن الكريم في التنبيه الى أهمية البحث والتفكير المشترك، قال تعالى **﴿قل إنما أعِظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا...﴾**[١٥] ثم يتجه القرآن الكريم الى الدعوة لطرح الافتراضات الممكنة **﴿أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾**[١٦] ثم يصعد الى مرحلة اختبار الافتراض، وتقليب الوجوه في المسألة: قال تعالى: **﴿أفرأيتم ما تُمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون...﴾**[١٧]، وقال تعالى: **﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾**[١٨].

إذن هكذا في خطوات علمية: فرض، واختبار الفرض، واستنتاج[١٩] مبنيّ على المنطق والتجربة والعقل، يرسم القرآن الكريم أبعاد المنهج، ويدعو الى التمسك به في سائر المجالات؛ قال تعالى: **﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إنّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾**[٢٠].

وأخيراً، ولما كان الحوار أساساً مهماً سواء مع الذات أو مع الآخرين أو في عملية التفكير والبحث المشترك ـ كما دعا اليه القرآن ـ فإنه يدلنا (أي القرآن) على اسلوب المحاورة العلمية الرصينة، فهو يُعلمنا أن ننطلق أولاً من مُسلّمةٍ لدى الطرفين، أو من افتراض مقبول وهو ما صرّح به القرآن قائلاً **﴿وإنّا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾**[٢١]، ثم لتبدأ المحاورة بعد ذلك ولكن على شرط أن يقدّم كل واحد دليلاً على ما يقوله، قال تعالى: **﴿قل هاتوا برهانكم﴾**[٢٢]، وهو يشترط في الدليل أيضاً أن يكون علماً، اي امراً يقينياً، لأنّ غير العلم لا يجدي ولا ينتج المطلوب قال تعالى: **﴿وإنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئاً﴾**[٢٣].

ثم إذا استقر الحقّ وثبت الأمر بالبرهان والدليل القاطع، فلابد حينئذٍ من التصديق به واعتماده، والاقرار به، قال تعالى: **﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾**[٢٤].

وهنا لفتةٌ بارعة في ضرورة استثمار الحقيقة.

وهكذا فإنَّ القرآن الكريم عندما يضع بين أيدينا مثل هذا المنهج ويدعونا الى التمسك به فلكي ينتهي الأنسان الى حالة الأطمئنان (الطمأنينة الداخلية) فيزيح عن نفسه وعن عقله كلَّ وهمٍ وخرافة وشك، فيعيش حينئذٍ هادىء البال يسهمُ في البناء والتقدم في الحياة الانسانية غير مضطربٍ ولا مشدود الأعصاب، وعندذاك يكون القرآن قد أرسى مرتكزاً أساسياً من مرتكزات البناء الحضاري وفي تخليص الأنسان من الهواجس والظنون من خلال التأكيد على اعتماد المنهج العلمي في التفكير، فضلاً عما يعنيه ذلك أيضاً من تعميم المعرفة وشموليتها وعدم اقتصارها على قطاع أو طائفةٍ أو طبقةٍ معينةٍ وهذه قيمة حضارية كبرى، وميزة عظيمة ينفرد بها القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿كتابٌ انزلناه اليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولوا الألباب﴾[25].

الهوامش

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) العنكبوت: ٢٠.

(٣) آل عمران: ١٩١.

(٤) يونس: ١٠١.

(٥) راجع: عقائد الامامية، للامام الشيخ محمد رضا المظفر، المطبعة الحيدرية النجف، انتشارات الشريف الرضي، قم، ط ٢، ١٤٠٨هـ.

(٦) فصلت: ٥٣.

(٧) نهج البلاغة، ضبط الدكتور صبحي الصالح، ص٢٥٢، خطبة رقم ١٧٦، منشورات دار الهجرة.

(٨) الزخرف: ٨٧.

(٩) العنكبوت: ٦١.

(١٠) ابراهيم: ١٠.

(١١) آل عمران: ١٩٠.

(١٢) طه: ٥٤.

(١٣) آل عمران: ١٩١.

(١٤) فصلت: ٥٣.

(١٥) سبا: ٤٦.

(١٦) الطور: ٣٥.

(١٧) الواقعة: ٣٥.

(١٨) الواقعة: ٦٤.

(١٩) راجع في المنهج العلمي وخطواته: الفتاوى

الواضحة، الامام الشهيد الصدر، ص٢١. طبعة دار التعارف بيروت ط٥ ١٩٧٨، وراجع المنطق، تأليف الاستاذ أحمد القادري، والدكتورة مارسيل عبسي، ص٩٢ـ٩٣، ط٩، ١٩٧٥ دار الفكر بيروت.

(٢٠) الزمر: ٢١.

(٢١) سبأ: ٢٤.

(٢٢) البقرة: ١١١.

(٢٣) النجم: ٢٨.

(٢٤) يونس: ٣٢.

(٢٥) ص: ٢٩.



علي والقرآن

السيّد عبد الأمير علي خان

الصورة التي يرسمها القرآن الكريم لأمير المؤمنين عليه السّلام تنسجم تماماً مع ما ترسمه الأحاديث الشريفة... وتكمل التصور عن ملاكات وأبعاد ولايته التي ترتسم وتتضح من التدبر في واقع شخصيته ووجوده عليه السّلام وفي الأحاديث وسيرة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم..

والملاحظ أنّ دراسة الأمام علي في القرآن الكريم لم تستوف لحد الآن فلم أطلع على دراسة وافية مستوعبة لها وهي تشكل ابحاثاً واسعة وتتطلب وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً وتشمل قسماً كبيراً من آيات القرآن الكريم... الاّ أننا سنقتصر هنا على ما تتطلبه منهجتنا في هذا الكتاب[1] وبقدر ما يسمح به المجال، مشيرين إشارة عابرة الى الآيات التي تعطي صورة لشخصية الامام ودوره الذي اضطلع به في هذه الدورة الرسالية الخاتمة ولمنزلته عند الله سبحانه وبعض ملاكات وابعاد ولايته...

والآيات التي تشارك في هذا المجال كثيره جداً ويمكن أن نصنفها الى عدة أصناف رئيسية، منها الآيات التي تذكر الأنبياء والشهداء والصديقين بصورة عامة، وما ضرب منهم مثلاً لأمير المؤمنين عليه السّلام بصوره خاصة مثل هارون وداود عليهما السّلام ومنها التي تتحدث في الأيمان والمؤمنين وتعدد صفاتهم وتصف مسؤولياتهم العظيمة ودرجتهم عند الله سبحانه والتي تتحدث في اولياء الله وقوانين التولي. والآيات التي تتحدث في اصحاب الجنّة والأبرار والمتقين والصالحين وورثة جنّة النعيم والآيات التي تتحدث في حال المؤمنين يوم القيامة... فإن بعض هذا القسم من الآيات يكون أمير المؤمنين عليه السّلام مثلها ومصداقها الأعلى من بعد

الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم مباشرة، ومنها ما يكون عليه السّلام مع أهل بيته مصداقها الوحيد من هذه الآية...، ومنها ما لا يكون لها مصداق غيرهم إلاّ من خلال التمسك بولايتهم.

ويوجد قسم كبير من الآيات نزل في علي عليه السّلام خاصة أو فيه مع بعض بني هاشم وبعض المؤمنين.

وللأختصار سأجعل الحديث في فصلين، الأول في الأمثلة من قصص الأنبياء والشهداء والصديقين، والثاني في الايات التي يكون أمير المؤمنين عليه السّلام مصداقها الأعلى أو الوحيد أو التي نزلت فيه خاصة أو فيه مع بعض بني هاشم وبعض المؤمنين.

الأمثله من ذكر الانبياء والشهداء والصديقين:

وسوف اقتصر على وصف كيفية الاستفاده من هذا القسم من الايات بشكلٍ أجمالي، وبأختصار بالحد الادنى الذي تتطلبه المنهجة في هذا الكتاب.

ونبدأ بنوح عليه السّلام فلو جمعت الايات التي ذكرته ترتسم لك صورة عن بعض الجوانب من شخصية أمير المؤمنين عليه السّلام ولأعطتك تفسيراً عن بعض سيرته، فمثلًا حينما تتمعن الآيات التي ترسم قوة شخصية نوح عليه السّلام وصبره على الأذى وتحمله المصاعب في الدعوة والثبات على الحق والاستقامة، رغم انصراف الناس عنه واستهزائهم به وكونه وحده في الميدان وأنه وحده كان يعرف سر مسيرته... ترتسم لك صورة لجانب من شخصية أمير المؤمنين عليه السّلام وقوة شخصيته وثباته وعدم توحشه من الطريق وان قل سالكوه.

وحينما تجمع الآيات التي تذكر ابراهيم عليه السّلام وتكسيره الأصنام، وانحصار النبوة في ذريته، وملاكات وابعاد ولايته، وإمامته، وشدة تفانيه في سبيل الله وصدقه مع الله سبحانه وجهاده في سبيله وتضحيته بولده الأعز وقوة ثقته بالله ورعايته مشروع النبوة من بعده وبعد نظره وطول نفسه وامتثاله لأمر الله حتى في ذبح ابنه، ومزاولته العمل بنفسه وبنائه البيت الحرام ووصيته لبنيه بالدعوه والجهاد والاستقامة والصلاة والحج وتعاهد البيت ترتسم لك جوانب من شخصية امير المؤمنين عليه السّلام... فان للإمام مناقب مشابهة وحالات ومزايا مناظرة ومواقف وادوار مماثله... وحينما تقرا عن شخصية اسماعيل عليه السّلام وكيف كان وزيرًا لأبيه في مهمته العظيمة وطاعته له وصبره على المشاق وعلى الذبح دون اية مناقشه ومساءلة ترتسم لك صورة عن وزارة امير المؤمنين عليه السّلام لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وتحمله المشاق وصبره للتضحية والفداء والموت دونه وانتظاره لقضاء الله

سبحانه وامتثاله لامره وتسليمه له دون اعتراض ونقاش.

وهكذا قل بالنسبه لآيات يعقوب عليه السّلام ووصيته لبنيه ورعايته للنبوة والامامة من بعده في محافظته على يوسف وحرصه عليه وعلى أبي الاسباط من ولده... وحينما تجمع الآيات التي تتحدث عن شخصية موسى عليه السّلام وسيرته وشدته وقوته ومباشرته العمل بنفسه. ترتسم لك صورة علي بن ابي طالب عليه السّلام وقوته وشجاعته وشدته في ذات الله وكيف أنه لا تأخذه في الله لومة لائم، وحدّيّته في تطبيق الاسلام... وحينما تقرا الأيات التي تذكر العصا عند موسى يستحضر ذهنك سيف علي ويمينه وما جرى عليها من امور عظيمة، ومن جانب آخر تجد في موسى عليه السّلام مثلاً لأمير المؤمنين في الاستيعاب والصبر مع قومه وعدم مفارقتهم حتى في تيههم وضلالهم وعصيانهم أوامره... وتجد فيه مثلاً على استعداده للحرب، ولو بقي مع أخيه لوحدهما في الميدان... وفي هذه الحالة أيضاً تجد فيه مثلاً لبعض حالات أمير المؤمنين عليه السّلام عندما بقي مع أخيه وحيدين لا يجدان اعواناً على الجهاد...

وهكذا ذكر هارون عليه السّلام اضافه الى ما يضربه من مثل في معاناته من الامة في غياب موسى عليه السّلام، مما يرسم صورة لمعاناة الإمام من الأمة في غياب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وكيف انهما عليهما السلام جابها هذه الردة وهذا الاعراض عنها من قبل الأمة، وكيف حرصا على حفظ وحدة الأمه وعدم التفريط بها ولم يفارقاها حتى في حالة غدرها بهما... وقد كان امير المؤمنين عليه السّلام يقارن بين حاله وحال هارون ويخاطب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بما خاطب هارون اخاه موسى **﴿يا بن أم إنّ القوم استضعفوني وكادوا أن يقتلون...﴾**.

ووزارة هارون لموسى ومنزلته منه جعلت مثلاً لوزارة امير المؤمنين للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ومنزلته منه.

وحينما تجمع الأيات التي تتحدث عن داود وسليمان عليهما السّلام ترتسم لك صوره عن امير المؤمنين عليه السّلام وصورهةعن الحسن والحسين ودورهما مع ابيهما... وحينما تقرأ آيات قتل داود لجالوت وبطولته الفائقة وضربته الحاسمة وكيف انها كانت من ملاكات إمامة وملك آل داود ترتسم لك صورة لعلي بن ابي طالب عليه السّلام ودوره ومواقفه الحاسمة في قطع دابر الكافرين وتثبيت الدين وما لهذا الدور من ملاك للإمامة والملك لآل علي وفاطمة عليهما السّلام.. ووراثة الحسنين لعلي من جميع الوجوه كما ورث سليمان داود... وحينما تقرا ولاية داود وسليمان التكوينية على الجبال والريح والحديد والوحوش

والشياطين والجن وعلمهما منطق الطير وسماع سليمان لكلام النملة ترسم لك صورة لما أوتي أمير المؤمنين من ولاية أو لما يمكن ان يؤتى من ولاية تكوينية ومن ملك وولاية تشريعية... وحينما تقرا آيات جلب عرش بلقيس وكيف كانت قوة وولاية الرجل الذي عنده علم من الكتاب اقوى وأبلغ من قوة وولاية العفريت من الجن يتضح لك ما يمكن أن يجعل لأمير المؤمنين عليه السّلام من قدرة وقابلية لأنه عنده علم الكتاب...

ومكذا حينما تقرا ايات آل عمران وأحوال بيت النبوة (امرأة عمران وزكريا وأمرأته ومريم وعيسى ويحيى عليهم السّلام) يتضح لك جانب من وضع أهل البيت، ويلقي لك ضوء على جانب من شخصية أمير المؤمنين عليه السّلام خاصة من اخبار زكريا وعيسى عليهما السّلام.

هذا وحينما تقرأ الآيات التي تذكر بعض اولياء الله من غير الانبياء عليهم السّلام مثل الرجل الذي جاء من اقصى المدينة يسعى وقال يا قوم اتبعوا المرسلين، ومثل مؤمن آل فرعون وحواره مع قومه ودفاعه عن موسى ودعوته بذلك المنطق الرفيع وتلك الحجج الدامغة والمفاهيم العالية، ومثل الرجلين اللذين أنعم الله عليهما، اللذين انتصرا لموسى على قومه حينما تخاذلوا عن طاعة أمر الله في الجهاد وما كان منهما من وعظ ومن مفاهيم سامية...، ومثل لقمان وحكمته وتعاليمه الحكيمة وتوصياته ووعظه الرفيع... ومثل ذي القرنين وسيرته الربانية وفتوحاته الموفقة المسددة بعناية الله سبحانه وثقته بالله...، ومثل اصحاب الكهف وآيتهم العجيبة وهدايتهم الربانية وما الهموا من علم الدين...، ومثل العبد الصالح الذي وجده موسى وفتاه، والذي علمه الله سبحانه من لدنه علماً خاصاً وكلّفه بمهمة خاصة وما كان ينفذه من دور عظيم وعجيب يقوم على أساس العلم الرباني وليس على اساس المقاييس المتعارفة... تتضح لك جوانب عظيمة من شخصيه أمير المؤمنين عليه السّلام ويظهر لك جلياً كيف يكون لبعض اولياء الله فضل حتى على بعض الرسل وإن لم يكونوا انبياءً... وفي ذلك مؤشر على ما جعل لأمير المؤمنين من فضل ومنزلة وولاية اوسع مما جعل لبعض الأنبياء والرسل ولم يكن نبياً.

وحينما تقرأ أدعية الأنبياء بصورة عامه وأدعية ابراهيم بصورة خاصة ترتسم لك صورة لمصداقية أمير المؤمنين لأدعيتهم أو لكونه جزء من مصاديق الاستجابة.

ويظهر لك وكأنه هو المعني بدعاء ابراهيم عليه السّلام **﴿واجعل لي لسان صدق في الاخرين...﴾** وأنه هو مصداق قوله تعالى **﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليا﴾**.

ويفتح لك ابواب الهداية للحديث النبوي الشريف الذي تكثفت فيه المقارنة بين أمير

المؤمنين عليه السّلام وبين الانبياء والصديقين السابقين، وما دأب عليه أهل البيت من اعتبار ذكر الأنبياء والصديقين أمثلة لأمير المؤمنين عليه السّلام بصورة خاصة ولهم كلهم بصوره عامة(٣).

القسم الثاني: ويشمل الآيات التي تذكر الايمان وقوانين الولاية بين العبد وبين الله تعالى والمؤمنين المسلمين لأمر الله والمتقين والأبرار وأصحاب الجنّة... وما الى ذلك من آيات، والآيات التي نزلت في امير المؤمنين عليه السّلام وهذا القسم يشمل آيات كثيره جداً سنقتصر على الأشاره الى بعضها كمثال لما نراه من منهجة مفيدة لدراسة هذه الآيات ولدراسة شخصية ومنزلة وولاية أمير المؤمنين عليه السّلام من خلالها.

ودليلنا في تتبع الآيات لهذا الغرض هو القرآن الكريم والحديث الشريف وواقع أمير المؤمنين عليه السّلام وما تقتضيه السنن الآلهية في الانبياء وذرياتهم وآل الانبياء وبيوتاتهم. فالقران الكريم يتضمن آيات نزلت في أمير المؤمنين عليه السّلام بالاجماع والقطع، فتكون دليلاً الى آيات اخرى مشابهة أو الى مقاطع قرآنية أخرى مشابهة، وبذلك ينفتح باب واسع لبحث قرآني واسع غزير، والحديث الشريف وصف أمير المؤمنين بصفات سامية أو انه بلغ عن اتصافه بتلك الصفات، وواقع أمير المؤمنين يدلّك على الآيات التي تنطبق عليه مع غيره والتي لا تنطبق إلا عليه أو التي يكون هو مثلها الأعلى ومصداقها الأصدق بعد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وسنة الله في الأنبياء وآل الانبياء وذرياتهم تدلّك على الايات التي تشمل أهل البيت عليهم السّلام.

وميزاننا في تقديم أهل البيت عليهم السلام على من سواهم عند التعارض أو التزاحم بين الدعاوى والتصورات يتكون مما تقتضيه سنة الله في الانبياء وآل الانبياء والذريات الطاهرة ومن الواقع التاريخي. فأن الدعاوى لغير أهل البيت لا تنسجم مع سنة الله في الانبياء والرسالات الرئيسية ومع ما تقتضيه كرامة النبي الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم على الله ومع فضله على جميع الانبياء والمرسلين، بينما الدعوى لأهل البيت تنسجم مع ذلك بل هي من مقتضيات السنة الالهية، والواقع التاريخي يجعل الدعوى لغير أهل البيت متهمة بنفس الوقت الذي يكون فيه مقوياً للدعوى لأهل البيت، لأن الدعاوى المقابلة لما يذكر لأهل البيت من مقام وفضل وولاية تتهم انها وضعت بعد أن حكم خصوم أهل البيت بتدبير من قبل بعض السلاطين الذين قام سلطانهم على اساس تقديم البعض على أهل البيت أو أشراكهم معهم في بعض الفضائل، وما قام به بنو أمية من وضع وكذب وتحريف معروف لا يحتاج الى بحث هنا، وكذلك

محاولات تجريد أهل البيت من بعض الفضائل السامية تتهم بنفس التهمة، وهذا بعينه يكون من الشواهد على إنّ ما وصلنا من فضائل أهل البيت عليهم السلام هو أقل مما كان لهم بالفعل لأن المحاربة الحادة والمستمرة لعدة قرون حجبت عنا بعض حقهم.

ومن هذا كله يتضح أنّ دراسة امير المؤمنين عليه السلام في القرآن الكريم موضوع واسع ومتشعب وغني وغزير جداً، ومحاولة استيعابه تستغرق موسوعة ضخمة لكننا، وكما ذكرنا سنقتصر على الأشارة والأشارة بالقدر الذي تتطلبه المنهجة ويسمح به المجال...

علي قائد البررة (الأبرار):

أطلق القرآن الكريم على الامام علي بن ابي طالب والصديقه فاطمة الزهراء والسبطين الحسن والحسين عليهم السلام عنوان الأبرار وذلك في سورة الانسان، وذلك نص عليهم لا ريب فيه، ولابد من الايمان به تصديقاً لله سبحانه، وكون الآيات نزلت فيهم خاصة أمر قطعي، وذلك حينما تصدّق أهل البيت النبوي بكل طعامهم ثلاثة أيام متوالية ولم يذوقوا فيها غير الماء، وكانوا يوفون النذر بالصيام ثلاثة ايام، فنزلت الآيات:

﴿إنّ الأبرار يشربون من كاس كان مزاجها كافورا *عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيرا * يُوفون بالنَّذْرِ ويخافون يوماً كان شرُّهُ مستطيرا * ويُطعمون الطعام على حبّهِ مسكيناً ويتيماً وأسيرا * إنما نطعمُكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا * إنّا نخافُ من ربّنا يوماً عبوساً قمطريرا * فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنّة وحريرا * متّكئين فيها على الأرائك لا يَرَوْن فيها شمساً ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالُها وذُلّلتْ قطوفُها تذليلا * ويُطافُ عليهم بآنيةٍ من فضّةٍ وأكوابٍ كانت قواريرا * قوارير من فضةٍ قدّروها تقديرا * ويُسقَوْن فيها كاساً كان مزاجها زنجبيلا * عيناً فيها تُسمى سلسبيلا * ويطوفُ عليهم ولدانٌ مخلّدون اذا رأيتهمْ حسِبتهم لؤلؤاً منثورا * وإذا رأيتَ ثَمّ رأيتَ نعيماً ومُلكاً كبيرا * عاليهم ثيابٌ سندس خضرٌ واستبرقٌ وحُلّوا أساورَ من فضّةٍ وسقاهمْ ربُّهم شراباً طهورا * ان هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكُم مشكورا﴾(الانسان: ٥-٢٢).

وهذا المقطع القرآني الكريم يكون دليلاً لتتبع كثير من الآيات في القرآن الكريم التي يكون امير المؤمنين عليه السّلام مصداقها الأعلى بعد النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، ومنها آيات الأبرار، فإن النص جعل

الامام عليه السّلام مثلاً وعلماً لهم.

وقد ورد عنوان الأبرار خمس مرات اضافة الى ما جاء في هذه الايات. وفي موردين من هذه الموارد جاء عنوان الابرار في آيات نزلت في علي عليه السّلام وفاطمة الزهراء وفاطمة بنت أسد أم الامام ومجموعة من المؤمنين هاجروا بحماية امير المؤمنين عليه السّلام بعيد هجرة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأحد العنوانين ورد في دعاء اولئك الابرار بأن يتوفاهم الله سبحانه مع الأبرار، والثاني جاء ضمن استجابة الله سبحانه لهم وتاكيده بانهم من الأبرار، وسوف نذكر الآيات في فقرة قادمة إن شاء الله تعالى. انظر آل عمران (١٩٣ ـ ١٩٨). وبقية الموارد في الآيات التالية:

﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ (الانفطار).

﴿ان الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يُسْقَونَ من رحيقٍ مختوم * ختامُهُ مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون﴾ (المطففين: ٢٢ ـ ٢٨).

﴿كلاّ إنّ كتابَ الأبرار لفي علّيين * وما أدراك ما عليون * كتابٌ مرقوم * يشهده المقربون﴾ (المطففين: ١٨ ـ ٢١).

وآية الأنفطار والايات ٢٢ ـــ ٢٨ من المطففين تشبه آيات سورة الانسان، وكانها جزء منها مع أنها نزلت في بداية عمر البعثة وسورة الانسان نزلت في اواخر عمر النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم.

اما الآيات ١٨ ـ ٢١ من المطففين فإنها تخبر عن موضوع هام آخر وهو وجود كتاب خاص بالابرار وأنه في عليين، وأنه كتاب مرقوم ويشهده المقربون، وسياتي بعض الفوائد الهامة من هذه الحقائق العظيمة. ومن ملاحظة مقابلة عنوان الأبرار لعنوان الفجار فوائد علمية هامة تاتي الاشارة الى بعضها ان شاء الله تعالى. ومن ذلك ايات البر؛ فانّ عنوان الأبرار مأخوذ من البر، وأن أهل البر المتلبسين به دائماً هم الأبرار، فآيات البر كآيات الأبرار تكون مما يتضمن ذكر أمير المؤمنين عليه السلام وفي كل منها نكتة ودرس وهي:

﴿ليس البرَّ انْ تولّوا وجوهَكم قِبَل المشرق والمغرب ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملئكة والكتاب والنبيّين وآتى المال على حبِّهِ ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاةَ وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في الباساء والضراء وحين الباس اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ (البقرة: ١٧٧).

﴿... وليس البرُّ بان تاتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من أتقى وأتوا البيوت من ابوابها واتقوا الله لعلكم

تفلحون﴾(البقرة: ١٨٩).

﴿... وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب﴾(المائدة: ٢).

﴿يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيةِ الرسول وتناجَوا بالبرّ والتقوى واتّقوا الله الذي إليه تحشرون﴾(المجادلة:٩).

وأمير المؤمنين عليه السلام مصداق البر في كل هذه الايات لان القرآن الكريم نص على أنّه في مقدمة الأبرار اولاً، ولأن المواصفات التي ذكرت في تفسير وتعريف البر قد اجتمعت فيه، ومن ملاحظة الآيات جيداً يتضح ما لأمير المؤمنين عليه السّلام من امتياز على جميع الصحابة، وذلك من ملاحظة سهولة ادراك انطباق مواصفات وشرائط البر في شخصه وصعوبة تصور اجتماعها كلها بالدقة في غيره من الصحابة غير فاطمة والحسنين عليهم السلام.

ومن شهادة القرآن الكريم للأمام بانه في مقدمة الأبرار يتضح لك أيضاً امتيازه على غيره في آيات النجوى وسوف نعود اليها في موضع قادم ان شاء الله تعالى.

﴿اتأمرون الناسَ بالبرّ وتنسونَ أنفسَكم وأنتم تتلون الكتابَ أفَلا تعقِلون﴾ (البقرة: ٤٤) فإن شهادة القرآن الكريم لعلي بن ابي طالب بأنه في مقدمة الأبرار من آيات الاستجابه في سورة آل عمران ،وآيات المديح في سورة الانسان تخبرك أنه عليه السلام أهل للأمر بالبر، لانه متلبس به دائماً ولا ينفك عن معنىً من معانيه ولا عن بُعد من أبعاده ولا عن جانب من جوانبه، وهذا الإخبار لم يحصل لأحد غيره من الصحابة فيكون التقدم عليه وتجاوزه في الأمر ــ بالبر مشكلاً بينما يكون تقدمه هو وتجاوزه غيره في الأمر بالبر متيقن الصحة والاستقامه وعدم التهافت أو التناقض.

وحينما تقرأ قوله تعالى:

﴿كلاّ إنّها تَذكرة * فمن شاء ذكره * في صُحفٍ مكرّمةٍ مرفوعةٍ مطهّرة * بايدي سفرة * كرام بررة﴾(عبس: ١١ـ١٦).

فإنك تنتبه الى حقيقة اخرى لعلي بن ابي طالب عليه السلام، وانه من مستوى هؤلاء الكرام البررة ومن جوهرهم، وذلك لشهادة القرآن الكريم له بأنه في مقدمة الأبرار لانه كان كذلك في كل الايات التي ذكرت الأبرار وعنته شخصياً من بينهم(٣).

وهناك فوائد كثيرة من آيات سورة الانسان نذكر بعضها فيما يناسبها من آيات، ومنها ذكر الصفات العالية التي شهدت الآيات لأمير المؤمنين عليه السّلام بها مثل عباد الله، الوفاء بالنذر، يخافون يوم القيامة، وقاهم شر ذلك اليوم، يطعمون الطعام على حبه، عملهم لوجه الله، أهل الوجوه الناضره، السرور يوم القيامة، إنّهم

صبروا، انهم متكئون على الأرائك، دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا، عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق... الخ. هذا والآيات اعطت امتيازاً لأمير المؤمنين وأهل بيته على جميع أهل الجنّة بذكر امور لم تذكر في أي مورد آخر ومنها:

﴿مزاجه كافورا﴾ و﴿يفجّرونها تفجيرا﴾ فإن هذا التعبير بهذا المعنى العائد على نفس المعنيين بهذه الآيات منهم الذين يفجرون العين تفجيرا لم يرد في آيات أخر، و«سرورا» لم يذكر لاحد انه يكون مسروراً يوم القيامة الا لهؤلاء الأبرار، نعم ذكر الاستبشار كما سيأتي، و﴿لا يرون فيها شمسا ولازمهريرا﴾ و﴿دانية ظلالها﴾ و﴿ذللّت قطوفُها تذليلا﴾ و﴿آنية﴾ و﴿من فضّة﴾ فإنها ذكرت القوارير والآنية والأساور ولم يذكر ذلك في آيات اخر.

و﴿مزاجها زنجبيلا﴾ و﴿سلسبيلا﴾ و﴿لؤلؤاً منثورا﴾ أي وصف الولدان باللؤلؤ المنثور لم يذكر الا في هذه الايات، ومما يذكر ان الحور العين لم تذكر في هذه الآيات لأن ذكرها مع وجود فاطمة الزهراء لا يكون مدحاً، لأن فاطمة الزهراء أرقى من الحور اولاً وهيبةً لمقامها ثانياً.

و﴿ملكاً كبيرا﴾ و ﴿طهوراً﴾ لم يذكر شراب الجنة بهذا الوصف الا هذا الشراب الذي يسقاه أهل البيت عليهم السّلام. وكذلك ﴿سقاهم ربهم﴾ فإن اضافة السقي الى الله سبحانه لم ترد الا في هذا المورد.

وأخيراً فان الآيات لم تذكر الجنّة اولاً ثم فرّعت عليها الامتيازات، وانما ذكرت الامتيازات وعدّت من ضمنها جنة خاصة (حديقة خاصة من ضمن الجنّة) وفي ذلك سر عظيم، لان الآيات في مقام المدح الخاص وتعدد امتيازات أهل البيت على أهل الجنة، فالجنّة درجات ولأن كونها في الجنّة من المسلمات قبل نزول هذه الآيات فلا يشكل الاخبار بانهم من الجنة مدحاً لهم في هذه المناسبة العظيمة وهذا الموقف العظيم[٤].

علي عليه السّلام إمام المتقين:

ومن وصف النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لامير المؤمنينعليه السّلام بأنه إمام المتقين يشكل دليل لتتبع آيات المتقين في القرآن الكريم لترتسم صورة لامامهم الذي هو في مقدمتهم، فهو مثلهم الأعلى، وهو المصداق الاعلى والاصدق لما جاء في الآيات لقول النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ولشهادة واقعه عليه السّلام وشهادة آيات الأبرار التي وصفته بما يفوق صفات المتقين، فهو قد احرز منزلة المتقين ثم احرز منزلة الابرار. والآيات التي لها علاقة بهذا الموضوع كثيرة جداً، والدروس التي يمكن ان تستنبط منها كثيرة وواسعة، ولكننا نكتفي بما تتطلبه منهجتنا في هذا البحث ذاكرين اولاً بعض الآيات التي

تصف المتقين ومن ثم بعض الآيات التي تصف مقامهم في الآخرة، وبعد ذلك بعض الآيات التي تبين بعض الخصائص وبعض قوانين الولاية بين الله وعباده حسب ما يجر اليه التدبّر في الآيات:

﴿الّم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزِل اليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾(البقرة: ١ـ٥).

وانظر الآية ١٧٧١ المتقدم ذكرها في آيات البر (ليس البر) فإنها تعدد صفات البر العليا وتختتم بقوله تعالى **﴿أولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون﴾** وسياتي بعونه تعالى ربطها بآيات الصادقين.

﴿... للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾(آل عمران: ١٥ ـ ١٧).

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتّقوا أجرٌ عظيم﴾.

﴿إنّ الذين يَغُضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجرٌ عظيم﴾(الحجرات: ٣).

﴿... وجنة عرضها السموات والأرض أُعدّت للمتقين الذين ينفقون في السرّاءِ والضرّاء والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين اذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا اللهَ فاستغفروا لذنوبِهم ومن يغفر الذنوب الاّ الله ولم يُصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون * اولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربّهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ونعم أجرُ العاملين...﴾(آل عمران: ١٣٣ـ١٣٦). وكذلك الآيات التي تحث على احراز الصفات السامية التي تكون جزءاً من صفات المتقين أو تجمعها يكون أمير المؤمنين عليه السّلام مصداق تطبيقها، لأننا على يقين من توفر تلكم الصفات عنده، لشهادة القرآن له في آيات الأبرار وآيات الصدق والصديقين وآيات الأحزاب والصف وغيرها.

وتتركز صفات المتقين في قوله تعالى:

﴿والذي جاء بالصدق وصدّق به اولئك هم المتقون﴾(الزمر: ٣٣).

والذي جاء بالصدق هو الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، والصدق هو كل الأسلام عقيدةً ومفاهيم وأحكاماً، والذي صدق به جملةً

وتفصيلا هو المصداق الأعلى لمن قرن بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في الاية. والتصديق الحقيقي هو الايمان والعمل والاستقامة والطاعه، فيكاد يقتصر المصداق في ذلك الزمن على النبي وعلي وفاطمة. ولكن بركة الاية وفيضها يترشحان على المؤمنين العاملين.

ويتركز ما للمتقين من ثواب في الآخره فيما بيّنه القرآن الكريم لمصداق الآية نفسها بقوله تعالى: ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين، ليكفّر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم باحسن الذي كانون يعملون﴾(الزمر: ٣٤_٣٥).

فإن الآية اطلقت ما للمتقين عند ربهم ولم تحدده ولم تقل لهم ما يشاؤون في الجنّة، أي ان لهم ما يشاؤون من جنان ومن مواصفات الجنان وفرق أن تكون مشيئتهم محدده بجنّة حصينة وبين ان تكون مطلقة. والآيات التي تصف ما للمتقين عند ربهم من ثواب وتصف احوالهم في الآخره وفي يوم القيامة كثيرة منها بعض الآيات السابقة ومنها:

﴿والعاقبه للمتقين﴾(الاعراف: ١٢٨ والقصص: ٨٣) ﴿إنّ العاقبة للمتقين﴾(هود: ٤٩) ﴿يومَ نحشرُ المتقين الى الله وفدا * ونسوق المجرمين الى جهنم وردا﴾(مريم: ٨٥ ـ ٨٦) ﴿أم نجعل المتقين كالفجّار﴾ ﴿وأُزلفت الجنّةُ للمتقين﴾(الشعراء: ٩٠) ﴿وأن للمتقين لحسنَ مآب﴾ ﴿والآخرةُ عند ربك للمتقين﴾(الزخرف: ٣٥) ﴿مَثَلُ الجنّةِ التي وُعِدَ المتقونَ تجري من تحتها الانهارُ أُكُلها دائمٌ وظلُّها تلك عُقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾(الرعد: ٣٥) ﴿إنّ المتقين في جناتٍ وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونَزعْنا ما في صدورِهمْ من غلٍّ إخواناً على سُرُر متقابلين * لا يَمَسُّهم فيها نصبٌ وما هم منها بمخرجين﴾(الحجر: ٤٥ ـ ٤٨) ﴿وقيل للذين اتقَوا ماذا أَنزل ربُكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه حسنة والدارُ الاخرة خيرٌ ولنعم دار المتقين * جنات عدنٍ يدخلونها تجري من تحتها الانهارُ لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين * الذين تتوفاهم الملائكةُ طيبين يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون﴾(النحل: ٣٠_٣٢) ﴿قل * أذلك خيرٌ أم جنةُ الخُلدِ التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً * لهم ما يشاؤون خالدين كان على ربّك وعداً مسؤولاً﴾(الفرقان: ١٥_١٦) ﴿الأخِلاّء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو الا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنو بآياتنا وكانوا مسلمين* ادخلوا الجنّة انتم وأزواجكم تُحُبرون * يطاف عليهم بصحافٍ من ذهبٍ واكوابٍ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وانتم فيها

خالدون * وتلك الجنّة التي أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تاكلون﴾(الزخرف: ٦٧ ـ ٧٣) ﴿ان المتقين في مقام أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس واستبرق متقابلين * كذلك وزوّجناهم بحورٍ عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموتَ الا الموتةَ الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربّك ذلك هو الفوز العظيم﴾(الدخان: ٥٠ ـ ٥٧) ﴿مَثَل الجنة التي وُعِد المتقون فيها انهارٌ من ماء غيرِ آسن وأنهارٌ من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرٍ لذة للشاربين * وأنهار من عَسَلٍ مصفًّى ولهم فيها من كلّ الثمرات ومغفرةٌ من ربهم﴾(محمد: ١٥) ﴿فمن اتقى وأصلحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ ﴿العاقبة للتقوى﴾(طه: ١٣٢) ﴿... قل متاع الدنيا قليل والأخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا﴾(النساء: ٧٧) ﴿وأزلِفتِ الجنّة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكلِ أوابٍ حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب مُنيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولَدينا مزيد﴾(ق: ٣١ ـ ٣٥) ﴿ان المتقينَ في جناتٍ وعيون آخذين ما آتاهم ربّهم إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾(الذاريات: ١٥ ـ ١٩) ﴿انّ المتقين في جنّاتٍ ونعيم فاكهين بما آتاهم ربُّهم ووقاهم ربُّهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * متكئين على سررٍ مصفوفةٍ وزوّجناهم بحورٍ عين﴾(الطور: ١٧ ـ ٢٠) ﴿ان المتقين في جناتٍ ونهرٍ في مقعدِ صدقٍ عند مليك مقتدر﴾(القمر: ٥٤ ـ ٥٥) ﴿انّ المتقين في ظلالٍ وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾(المرسلات: ٤١ ـ ٤٤) ﴿انّ للمتقين مفازا * حدائق واعنابا * وكواعب اترابا * وكاساً دِهاقا * لا يسمعون فيها لغواً ولا كذّابا * جزاءً من ربك عطاءً حسابا﴾(النبأ: ٣١ ـ ٣٦).

هذا وقد ذكرت هذه الآيات كلها لتسهيل احضارها امام الدارس ليقارن بينها وليكون صورة عن المتقين في الآخرة، ليكون ذلك دليلاً له لتصور ما لأمام المتقين فيها أي في الاخرة ودوره في تلك الحياة الخالدة، وليكوّن صورة عن تكرر الآيات في القرآن الكريم وكيف انها تجعل القارىء ابداً امام ذكر المتقين، ومن المقارنة يتضح ان للمتقين درجات ومستويات من الحياة في الحياة الأخرة، وان بعض الآيات تشير الى اوسع دائره يضمها عنوان المتقين، وبعضها يشير الى دائرة أقل ودرجة أعلى وصنف اخص، وبعض الآيات تشير الى الدائره

الاضيق والصفوة الأخص، وان بعض الآيات ذكرت صورة مقاربة لما ذكرته آيات الابرار... وبعد هذا كله فإن إمام المتقين وقائد الأبرار يشارك جميع المتقين في درجاتهم ومستوياتهم وفيما اعد لهم من انواع الثواب ويمتاز عليهم بامتيازات يتضح بعضها من آيات الأبرار وآيات اخر سنذكر بعضها ومن الأحاديث الشريفة التي تناولت وصف ما لأمير المؤمنين من مقام في الآخرة وما له من جنان وملك عظيم.

وبعض الآيات المتقدمة تشير الى بعض ما يضطلع به المتقون من دور قيادي وما لهم من ولاية في الآخرة لانها تشير الى نوع ملك ومنصب في تلك الدار، وهذا جانب من قوانين الولاية بين الله وعباده، ونضيف اليها:

﴿يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعلْ لكم فرقاناً...﴾(الانفال: ٢٨) ﴿انّه من يتَّقِ ويصبِرْ فانّ الله لا يُضيع أَجر المحسنين..﴾(يوسف: ٩٠) ﴿... واقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظُ به من كان يؤمن باللهِ واليومِ الآخرِ ومن يتقّ الله يجعلْ له مخرجا ويرزقهُ من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إنّ الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾(الطلاق: ٢-٣) ﴿... ومن يتق الله يجعلْ له من أمره يُسرا﴾(الطلاق: ٤) ﴿ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفا اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتَّبعوا اهواءَهمْ * والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم﴾(محمد: ١٦-١٧) ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ (البقرة: ٢) ﴿... فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ (آل عمران: ١٣٨) ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفُرقان وضياءً وذكرى للمتقين﴾(الانبياء: ٤٨) ﴿ولقد انزلنا اليكم آياتٍ مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظةً للمتقين﴾(النور: ٣٢) ﴿... وإن الظالمين بعضُهم أولياءُ بعضٍ والله ولي المتقين﴾(الجاثية: ١٩) ﴿وانه تذكرة للمتقين﴾ (الحاقه: ٤٨).

نجد في هذه الآيات اربعةً انواع من قوانين وسنن التولي، أحدها: انّ التقوى تدخل في شرائط الانتفاع من الصبر والجهاد وكل عمل صالح، والثانية: انّ تقوى الله سبحانه تشكل العامل الرئيسي للهداية والبصيره والعلم، والثالثة: انّ التقوى تهيء اسباب المخرج من المعضلات سواءً كانت معضلات تشريعية أو كانت في الوضع التكويني للانسان والظروف المحيطة به، والرابعة: ان التقوى شرط أساسي في مدى الانتفاع من الآيات سواء كانت آيات كونية أو كانت معاجز وعقوبات أو كانت آيات قرآن أو حكمة نبوية، فالمتقون هم الذين يتعظون

بالآيات، وهم الذين يزدادون إيماناً بها، وهم الذين يتعلمون منها اكثر من غيرهم.

ويؤيد هذه المعاني الآيات التي تنص على ان الله مع المتقين مثل آية: ١٨٦ من سورة آل عمران والبقرة: ١٩٤ والتوبة:٣٦ ـ ١٢٣.

وقوله تعالى **﴿انما يتقبل الله من المتقين﴾** (المائدة: ٢٧) يوضح ان قبول الأعمال وانوع البر والدعاء انما يكون من المتقين، فالتقوى من عوامل القبول الاساسية.

والآيات آل عمران: ٧٦، والتوبة: ٤ ـ ٧ تنص على ان الله يحب المتقين.

واخيراً فان النصر والامداد بالملائكة يتوقف على توفر حالة من الصبر والتقوى عند الجيش الاسلامي المحارب مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم **﴿بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمددكم ربُّكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسوّمين﴾** (آل عمران: ١٢٥) هذا ومن الواضح ان بعض الآيات يصعب ان تجد لها مصداقاً حقيقياً دقيقاً ومثلاً واقعياً مع النبي غير علي بن ابي طالب عليه السّلام، لصعوبة تلمس اجتماع الصفات والخصائص المذكورة فيها عند غيره، بينما تجدها متجسده عنده بسهولة، وقد احتفظت ببعض الآيات لآخر الفصل لفوائد سوف اذكرها عند ذكرها بعون الله تعالى.

علي أمير المؤمنين:

لقد نص القرآن الكريم على امير المؤمنين بأنه (آمن بالله) وانه (مؤمن) وأنه (المؤمنون) وأنه (الذين آمنوا) وذلك في مواضع اقصى مدح المؤمنين في القرآن ومن دون الصحابة اجمعين:

﴿أجعلتم سِقاية الحاج وعِمارة المسجدِ الحرامِ كمن آمن باللهِ واليومِ الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين * الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشّرهم ربُّهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها ابداً ان الله عنده اجر عظيم﴾ (التوبة: ١٩ـ٢٢).

نزلت هذه حينما تفاخر العباس عم النبي وطلحة كل بما كان يقوم به من خدمة للبيت الحرام فقد افتخر طلحة بعمارة المسجد الحرام وفاخره العباس بسقاية الحاج وترافعا لعلي بن ابي طالب فقال راداً عليهما جميعاً **﴿انا اول من آمن وهاجر﴾** فأختصموا ورفعوا ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنزل الوحي المبين ولم يحدث مثل هذا الانتصار الآلهي بالوحي، وهذه الشهادة الصريحة لأحد من الصحابة غير علي بن

ابي طالب عليه السّلام.

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا * ليجزيَ اللهُ الصادقين بصدقهم ويعذبَ المنافقين إنْ شاء أو يتوبَ عليهم إنّ الله كان غفوراً رحيما * وَردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعبَ فريقاً تقتلون وتاسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم واموالهم وارضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾ (الاحزاب: ٢٢ـ ٢٧).

والرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم علي بن ابي طالبعليه السّلام وحمزة بن عبد المطلب وعبيده بن الحارث بن المطلب عليهما الرضوان، وعليعليه السّلام هو الذي ينتظر الشهادة ولم يمدح احد من الصحابة بمثل هذا المدح وحتى الشهيدان حمزة وعبيدة لم يكن مدحهما في الآيتين كمدح الامام لأن الحكم للشهيد المقتول في سبيل الله لا يرقى الى الحكم للحي بأنه صدق ما عاهد الله عليه وانه لم يبدل وانه سيجزى جزاء الصادقين، وانه ينتظر الشهادة بصدق مع انهعليه السّلام بقي ينتظر الشهادة بهذا المستوى من بعد نزول الآية ما يقارب الاربعين سنة.

والآيات الاخرى بعضها نزلت تعليقاً على نصر الله وفرجه الذي منّ به على الأمة الأسلامية في معركة الخندق (الأحزاب) والذي تم على يدي امير المؤمنين عليه السّلام وجهوده من دون المسلمين وبه كفى الله المسلمين القتال، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وأمر معركة الخندق وقتل الامام عمرو بن ود العامري وانهزام المشركين بسبب ذلك معلوم متواتر، وبعضها نزلت فيه وتقدمت الاشارة اليها ولدور امير المؤمنين عليه السّلام.

والواقع ان اول محور رئيس من المحاور التي تدور حولها سورة الأحزاب هو الإشادة بذكر أمير المؤمنين عليه السّلام، وقد ورد فيها لفظ (المؤمنون) بمعنيين مختلفين بينهما فرق كبير جداً، احدهما معنى المسلمين جميعاً ما عدا النبي وعلي بن ابي طالب وفيه، وصف لحالهم في ذلك اليوم ولوضعهم النفسي والعسكري الواهي الخائف، والثاني بمعنى علي بن ابي طالب عليه السّلام خاصة وحاله في ذلك اليوم العصيب، ووضعه النفسي والجهادي القوي الرفيع ضمن الآيات التي تصف المسلمين في ذلك اليوم ﴿يا أيها الذين امنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * اذ جاؤكم من فوقكم

ومن اسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا * وإذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا * واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستئذن فريق منهم النبي يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورةٍ ان يريدون الاّ فرارا * ولو دُخلتْ عليهم من اقطارها ثم سُئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا الا يسيرا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولا * قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تُمتَّعون الا قليلاً * قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءً أو اراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا * قد يعلم الله المعوِّقين منكم والقائلين لأخوانهم هلُمَّ الينا ولا يأتونَ الباس إلاّ قليلا * أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتَهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنةٍ حدادٍ أشحة على الخير اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا * يَحسبون الأحزابَ لم يذهبوا وانْ يأت الأحزابُ يودّوا لو أنهم بادون في الأعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلا﴾(الاحزاب: ٩ـ٢٠).

وقد أوردت الآيات على طولها لترتسم الصورة كاملة عن حال المسلمين (الصحابة) في ذلك اليوم المخيف صورة كاملة لمؤمنيهم وللمنافقين معاً، فالمؤمنون أُحيطوا من كل جانب وزاغت منهم الابصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنونا وابتلوا وزلزلوا زلزالاً شديداً، والمنافقون كما وصف الله سبحانه، واذا علمت ان المنافقين على نوعين، نوع واضح معروف ونوع آخر ممن مردوا على النفاق وهم غير معروفين يتخللون صفوف المؤمنين بالحال التي وصفها القرآن الكريم تعرف ماذا كان الوضع الداخلي للامة في ذلك اليوم، وإذا اضفت الى ذلك تواطؤ اليهود وتآمرهم مع الأحزاب ضد النبي وأمته وخيانتهم له تعرف الظروف العصيبة التي كانت تحيط بالمسلمين.

وقد حرص القرآن الكريم ان يبين حال الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم والفرق بينه وبين ما كان عليه المسلمون، وأنه غير مشمول بالوصف المذكور لعامه المؤمنين، بل انه كان على العكس من ذلك وكان وصفه حجة على المؤمنين، وكان عليهم ان يقتدوا به ويتخذوه أسوة في الاطمئنان ورباطة الجاش والتوكل على الله والصبر والشجاعة والاستعداد للقتال....:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة

حسنه لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾(الاحزاب: ٢٢ـ٢١).

ثم بين حال ووضع أمير المؤمنين عليه السّلام الذي يحاكي وضع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وبيّن الفارق الكبير بينه وبين حال ووضع عامة المسلمين في ذلك اليوم، وأعطاه عنوان «المؤمنون»، فهو أذن أمة كما كان المؤمنون أمة، والفارق في الحال والكيف، فهو ارجح واشرف من تلك الأمه المتكونة منهم جميعاً:

﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ ايماناً وتسليما﴾ـ ٢٢ـ

ثم بين ان المعني هو علي بن ابي طالب عليه السّلام وانه هو بقية الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وانه هو الذي ينتظر وما بدل تبديلا، وأن الفرج انما تحقق على يديه بأذن الله، وانّ المدد الألهي جاء عوناً له.

واختصاص الآية ٢٢ ولفظ (المؤمنون) فيها بأمير المؤمنين عليه السّلام واضح، لانه عليه السّلام وحده من بين المسلمين من بعد الرسول كان على هذه الحال العالية ولم يثبت احدٌ منهم جدارة للمشاركة في هذه الخاصيّة العظيمة، لأن احجامهم عن البراز لعمرو بن ود العامري معلوم ومتواتر وهو شاهد على انفراد امير المؤمنين بالآية الكريمة.

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون * اما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنّات الماوى نُزُلاً بما كانوا يعملون * واما الذين فسقوا فماواهم النار كلما ارادوا ان يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾(السجدة: ١٨ـ٢٠).

نزلت هذه الآيات انتصاراً وتصديقاً لأمير المؤمنين عليه السلام حينما ناظره وفاخره الوليد بن عقبة بن ابي معيط، فقال له الامام اسكتّ فانما انت فاسق فنزلت الآيات.

ولم يحدث مثل هذا الانتصار والتصديق القرآني لغير علي بن ابي طالب، ففيه تشخيص بمنتهى الصراحة ومنتهى الاختصاص، فعلي هو المؤمن وخصمه ابن ابي معيط هو الفاسق، وعلي عليه السّلام هو **﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** وخصمه هو **﴿الذين فسقوا﴾** وعلي هو صاحب جنّات المأوى وهي له نُزُل بما كان يعمل، ومأوى خصمه النار كلما أراد ان يخرج منها أعيد فيها وقيل له ذق عذاب النار الذي كنت به تكذب... لأن المناظرة حدثت بعد دخول الطلقاء في إطار الإسلام، فالايات تصف ان المخاصم لعلي فاسق ومن أهل النار، وهذا امر نادر أو لم يحدث ان صرح القرآن بفسق شخص بعينه وبدخوله النار مع انه يدعي الاسلام ويظهر

الشهادتين.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾ (مريم: ٩٦).

وهذه الآية نزلت في علي عليه السّلام. راجع الدر المنثور وكتب الفضائل.

﴿إنّما وليكم اللهُ ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ وهم راكعون * ومن يتولَّ اللهَ ورسولَهَ والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون﴾ (المائدة: ٥٥-٥٦).

نزلت هاتان الآيتان في ولاية امير المؤمنين عليه السّلام في اواخر عمر النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وكان امير المؤمنين قد تصدق بخاتمه على فقير سأل في مسجد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والامام قائم يصلي فلم يعطه أحد فتدارك الامام الموقف وأومأ له الى خاتمه وهو راكع، وكان النبي بنفس الوقت يدعو بدعاء موسى عليه السّلام بأن يجعل الله له وزيراً من أهله علياً أخاه... فلما نزلت الآيتان كبر الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وحمد الله سبحانه لاستجابة دعائه وبيان ولاية ابن عمه وأخيه ووزيره امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السّلام.

وهذه الآيات التي ذكرت أمير المؤمنين عليه السّلام بالفاظ «مؤمناً» و«المؤمنون» و«الذين آمنوا» و«من آمن» و«من المؤمنين رجال صدقوا» تكون دليلاً للآيات التي نزلت فيه بهذه الألفاظ أو الايات التي يكون مصداقها الأعلى أو المتقين و«بالجمع بين ما جاء في هذه الآيات وآيات الأبرار والمتقين يتكون دليل لتتبع الآيات التي تشير اليه عليه السّلام او التي يكون من مصاديقها العليا كما سنشير بعونه تعالى...

ونقدم الآن بعض آيات الأيمان التي نجد فيها.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحابُ الجنّة هم فيها خالدون﴾ و﴿سندخلهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ابداً لهم فيها ازواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ و﴿سندخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدقُ من الله قيلا﴾ و﴿... اولئك اصحاب الجنّة هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربّنا بالحق ونودوا ان تلكم الجنّة اورثتموها بما كنتم تعملون﴾ و﴿يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنّات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين﴾ و﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك اصحاب الجنّة هم فيها خالدون﴾

و﴿وأُدخِلَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾ و﴿ان الله يدخلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وَهُدوا الى الطيّب من القول وَهُدوا الى صراطِ الحميد﴾ و﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخِلنّهم في الصالحين﴾ و﴿ولنُبوئنَّهم من الجنّة غُرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجرُ العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ و﴿فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضةٍ يحبرون﴾ و﴿لهم جنّات النعيم خالدين فيها وَعْدَ الله حقاً وهو العزيز الحكيم﴾ و﴿بشرِ المؤمنين بانّ لهم من الله فضلاً كبيرا﴾ و﴿في روضات الجنّاتِ لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضلُ الكبير﴾ و﴿فما أُوتيتم فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ و﴿إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ و﴿لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾ و﴿فيدخلهم ربُّهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين﴾.

هذا ما تقرأه في الآيات البقرة: ٨٢ النساء: ٥٧، ١٢٢، الأعراف: ٤٥، يونس: ١٠، هود: ٢٣، ابراهيم: ٢٣، الحج: ٢٣ ـــ ٢٤، العنكبوت: ٩، ٥٩، الروم: ١٥، لقمان: ٨، ٩، الاحزاب: ٤٧، الشورى: ٢٢، ٣٦، محمد: ١٢، التين: ٦، الجاثية: ٣٠.

ونجد فيها ﴿ومن ياته مؤمناً قد عمل الصالحات فاولئك لهم الدرجاتُ العلىُ جنّاتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّى﴾ و﴿أم حسبَ الذين اجترحوا السيئات أنْ نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتُهم ساء ما يحكمون﴾ و﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم بشراكمُ اليوم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾.

وهذا ما نقرأه في الآيات طه: ٧٥، ٧٦، الجاثية: ٢١، الحديد: ١٢، ٢١.

وما الى ذلك من الآيات الشريفة التي تذكر جنات المؤمنين فإنها اما ان تتضمن ذكر امير المؤمنين عليه السّلام، لأنه اعلى مصداق لعنوان المؤمنين بشهادات القرآن الكريم ولأنه اعلى مصاديق أهل الدرجات العليا في الاخره بعد الرسول بشهادات القرآن أيضاً، أو أنها تذكر به وتبشر بالمصير الى أهل ولايته لأنه هو امير المؤمنين أصحاب تلك المقامات وذلك الفوز

العظيم والمقام الرفيع. وسياق الآيات ولسانها ووصف الجنان والمقامات الموعودة في التي تدلك على التميز بين الطائفتين من الدلالة مما كانت تتحدث بسياق ولسان ووصف يشبه ما نص القرآن عليه لأمير المؤمنين نفسه أو مقارب له فإنه يتضمن ذكره بالذات وما كانت تتحدث بما دون ذلك من مستويات، فهي من النوع الذي يذكر باللحوق بأهل ولايته... على أن اهل الدرجات العليا يحوزون على ما عند الدرجات الأقل بينما لا يحوز أهل الدرجات الأقل ما عند أهل الدرجات الأعلى مما يميز درجاتهم عنهم.

الهوامش

(١) وهو كتاب الولاية في الاسلام، وهذا الموضوع فصل من الجزء الثاني منه وهو الجزء الخاص بولاية أهل البيت عليهم السلام.

(٢) قصص بعض الانبياء تكون امثلة لامير المؤمنين بصوره خاصة اكثر من غيره من الائمة، وقصص بعضهم تكون امثله لبعض الائمة كما يتخذون يحيى مثلاً للحسين عليه السّلام وعيسى مثلاً للحسن عليه السّلام والانبياء بصورة عامة امثلة للائمة بصورة عامة.

(٣) لانه مصداق آيات سورة الانسان، هم أهل البيت وهو في مقدمتهم وكذلك آيات آل عمران التي نزلت في هجرته والآيات التي فسرت البر ذكرت اوصافاً اجتمعت فيه .

(٤) لا يفوتنك ربط هذه الصورة التي يرسمها القرآن الكريم لمقام امير المؤمنين عليه السّلام بين الأبرار فيما بلّغ به النبي الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم بأن علياً عليه السّلام «قائد البرره وقاتل الفجرة».

البحث القرآني ونظرية الاحتمال
رؤية في العلاقة بين البحث القرآني والاسس المنطقية للاستقراء

السيّد محيي الدين المشعل

من الوضوح بمكان كبير جداً أهمية المنهج الاستقرائي في الاستدلال على ظاهرة أو نظرية ما من خلال حساب الاحتمال، ومن الواضح أيضاً أن هذا المنهج من أهم المناهج في إثبات الصانع تعالى، بل لعله المنهج الفلسفي المعقد الذي يعتمد في كثير من بحوثه على المجردات، الأمر «الذي أدى بالقرآن الكريم إلى التركيز على هذا الاستدلال من بين ألوان الاستدلال المتنوعة على اثبات الصانع»[1].

«فكان من الطبيعي أن يتجه القرآن الكريم إلى دليل القصد والحكمة بوصفه الدليل الذي يمثل المنهج الحقيقي للاستدلال العلمي. ويقوم على نفس أسسه المنطقية، ويفضّله على سائر الصيغ الفلسفية للاستدلال على وجوده تعالى»[2].

قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحق أو لم يكف بربّك أنّه على كل شيء شهيد﴾[3].

كل ذلك من أجل ان هذا المنهج أقرب إلى الفهم البشري العام وأقدر على مسك وجدان الانسان ـ أي انسان ـ وعقله بالاتيان من البراهين الفلسفية ذات الصيغ النظرية المجردة التي يقتصر معظم تأثيرها على عقول الفلاسفة وأفكارهم[4].

وهذا أمر لا يقاس فيه، ولا نريد أن ندرس من خلال هذه المحاولة ما يتعلق به من حيث استخدام القرآن الكريم له، أو دعوته لاستخدامه في اثبات الصانع تبارك وتعالى.

وإنما نريد ان نبحث مدى إمكانية تطبيق هذا المنهج الاستقرائي ـ في خطواته المتعددة التي ترفع القيمة الاحتمالية

للنظرية المفترضة إلى درجه يقينية أو قريبة منها[٥] ـ على البحوث القرآنية المختلفة، فهل من المفضل أن نعالج الآراء المتعارضة في أسباب النزول في مقام ترجيح أحدها، وإيصاله إلى قيمة علمية مقبولة من خلال تطبيق الأسس المنطقية للاستقراء عليها مثلاً؟ أو هل يمكن اثبات ظاهرة الاعجاز في القرآن الكريم من خلاله أيضاً، وكذلك الأمر في المكي والمدني، وغيرها من بحوث علوم القرآن، فهل هذا أمر عملي ومطلوب؟ أم لا يمكن ذلك؟ أو أنه على فرض امكانه قد لا يكون امراً عملياً ومطلوباً.

وربما نترقى أكثر محاولين إدخال هذا المنهج في البحث التفسيري من أجل أن نثبت أن القيمة الأحتمالية العليا للرأي التفسيري المعيَّن هي التي تحققت من خلال هذا البحث لأجل اسقاط بقية الاراء التفسيرية الأخرى في هذا المجال، والاعتماد على رأي واحد منها ليكون هو الرأي المعتمد دونما سواه.

في الحقيقة أن المسألة قد تكون محاطة بشيء من الغرابة أو الغموض، خصوصاً وأن المنهج الاستقرائي يعتمد على الحسّ والتجربة من خلال ملاحظة الظواهر الخارجية، وأن تطبيق مثل هذا المنهج على البحث القرآني، وخصوصاً على البحث التفسيري قد يحتاج إلى تكلف كبير، إذ أن المسألة في مقام البحث التفسيري تدور مدار الفهم العرفي للأسلوب العربي، وهذا يعتمد على معرفة اللغة وأساليبها، وخصوصياتها ولا علاقة له أصلاً بنظرية الاحتمال، أو بالأسس المنطقية للاستقراء فكيف يتسنى للباحث في القرآن أن يطبق هذا المنهج على موضوعه لكي يرجِّح طرفاً من أطراف الاحتمالات الموجودة في المسألة القرآنية الواحدة؟.

ولكي نجلّي المسألة أكثر فنحن لن نقوم بأكثر من تطبيق منهج الأسس المنطقية للاستقراء على أي مسألة من مسائل البحث القرآني التي نريد التعامل معها للخروج بنظرية تتمتع بقيمة علمية كبيرة تضطر الآخرين إلى قبولها، والإذعان اليها، والقناعة التامة بالرأي الذي سجل تجاهها.

وهنا لن نبذل جهداً كبيراً في معرفة الخطوات فهي كالتالي:

«إن منهج الدليل الاستقرائي القائم على حساب الاحتمالات، يمكن تلخيصه إذا توخينا البساطة والوضوح في الخطوات الخمس التالية:

أولاً: نواجه في مجال الحس والتجربة، ظواهر عديدة.

ثانياً: ننتقل بعد ملاحظتها، وتجميعها الى مرحلة تفسيرها، والمطلوب في هذه المرحلة أن نجد فرضية صالحة لتفسير تلك الظواهر، وتبريرها جميعاً، ونقصد بكونها صالحة لتفسير تلك الظواهر، أنها إذا كانت ثابتة في الواقع فهي تستبطن أو تتناسب مع وجود جميع تلك الظواهر التي هي موجودة فعلاً.

ثالثاً: نلاحظ أن هذه الفرضية إذا لم تكن صحيحة، وثابتة في الواقع، ففرصة تواجد تلك الظواهر كلها مجتمعة ضئيلة جداً، بمعنى أنه على افتراض عدم صحة الفرضية، تكون نسبة احتمال وجودها جميعاً إلى احتمال عدمها أو عدم واحد منها على الأقل ضئيلة جداً، كواحد في المائة أو واحد في الألف. وهكذا:

رابعاً: نستخلص من ذلك أن الفرضية صادقة، ويكون دليلنا على صدقها وجود تلك الظواهر التي أحسسنا بوجودها في الخطوة الأولى.

خامساً إن درجة إثبات تلك الظواهر للفرضية المطروحة في الخطوة الثانية تتناسب عكسياً مع نسبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعاً إلى احتمال عدمها على افتراض كذب الفرضية فكلما كانت هذه النسبة أقل، كانت درجة الإثبات أكبر. حتى تبلغ في حالات اعتيادية كثيرة إلى درجة اليقين الكامل بصحة الفرضية(٦).

وهذه الخطوات نقلناها كاملة عن مصدرها. وتركنا تفاصيلها مع تطبيقاتها ليراجعها القاريء الكريم(٧).

وسنحاول أن نطبق هذا المنهج على بعض المسائل لننظر مدى فائدته التطبيقية فيها، وسوف تكون هذه النماذج من علوم القرآن، ومن التفسير كذلك.

النموذج الأول:

في الإعجاز القرآني: لا يشك مسلمٌ البتة في كون القرآن معجزاً في كل أبعاده، بل يتيقن بذلك سواءاً تم له ذلك الأمر عن طريق العقل أو النقل بالإضافة إلى الكثير مما كتب في هذا المجال بحيث يفوق حد الإحصاء. ونحن هنا لن نثبت شيئاً لم يكن ثابتاً، وإنما نريد أن نثير منهجاً علمياً أثاره القرآن الكريم، كما أشرنا في أول البحث محاولين تطبيقه على البحث القرآني، لأن النتائج التي يوصل إليها هذا المنهج غير قابلة للرد أصلاً، إذ كما قال السيد الشهيد

في آخر كتابه الأسس المنطقية: فالإنسان بين أمرين: فهو إما أن يرفض الاستدلال العلمي ككل وإما أن يقبل الاستدلال العلمي ويعطي للاستدلال الاستقرائي على إثبات الصانع نفس القيمة التي يمنحها للاستدلال العلمي[٨] ولنبدأ الآن في تطبيق المنهج فنلاحظ في الخطوة الأولى من الخطوات الخمس السابقة أن القرآن الكريم يشتمل على عدة ظواهر، ومن باب المثال لا الحصر، والتتبع التام نذكر عدة ظواهر.

الظاهرة الأولى: عدم الاختلاف فيه: قال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾(النساء: ٨٢). وهذا أمر منفصّل في محله ثابت عقلاً ونقلاً.

الظاهرة الثانية: إخباراته عن المغيبات خصوصاً التي تحققت فيما بعد أو اكتشفت بعد، قال تعالى: ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا**﴾ (هود: ٤٩).

الظاهرة الثالثة: المستوى المعرفي الراقي على مستوى المعارف الالهية والفلسفية، والأخلاق الفاضلة، والقوانين الدينية الفرعية من عبادات، ومعاملات وسياسات واجتماعيات وكل ما يعد من فعل الانسان وعمله[٩].

الظاهرة الرابعة: المستوى البلاغي المتميز الذي لا يمكن أن يسبك مثله على مستوى الكلام العربي كما شهد به المخالف والموالف من أساطين العربية وأساتذتها.

الظاهرة الخامسة: بيان بعض الحقائق العلمية المتعلقة بالطبيعة والكون، والنظام الكوني التي لا تخطر على بال بشر حين نزول القرآن.

إلى غير ذلك من الظواهر الأخرى التي تذكر مفصلة في مباحث الاعجاز القرآني وهي ظواهر محسوسة لا يمكن انكارها أو التشكيك فيها بحال من الأحوال إلّا مكابرة. أو مغالطة وجحوداً كما في قوله تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلوّاً**﴾(النمل: ١٤).

وبهذا نكون قد انتهينا من الخطوة الأولى، وحيث أننا نريد اثارة المنهج لم نتعمد رصد جميع الظواهر القرآنية التي تنسجم مع ما سنفرضه في الخطوة الثانية، إذ أننا نريد ان نتعرض الى نماذج تطبيقية أخرى فآثرنا الاختصار في البحث ومن ثم ننتقل إلى الخطوة الثانية، وهي مرحلة التفسير لتلك الظواهر، وهنا توجد فرضية صالحة لتفسير اجتماع هذه الظواهر مع

بعضها في كتاب واحدٍ قد نزل في مدة طويلة تصل الى الثلاث والعشرين سنةً، وهي فرضية ان هذا الكتاب نزل من عند الله تعالى على رسوله محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم عن طريق الوحي الأمين، فإن هذه الفرضية يمكن بها تبرير كل تلك الظواهر. وتكون منسجمة معها ومستبطنة لها.

أما الظاهرة الأولى، وهي ظاهرة عدم الاختلاف، فإنها منسجمة تمام الانسجام مع كون المرسل لهذا الكتاب إلهاً حكيماً مطلقاً قيوماً مشتملاً على جميع صفات الكمال، اذ كما يقول الفلاسفة ان العلة والمعلول لابد، وأن يكون بينهما تسانخ فإن الكامل لا يصدر إلاّ عن الكامل. والثابت لا يصدر إلاّ عن الثابت.

والظاهرة الثانية وهي مسألة الاخبار بالغيب تستبطن الاطلاع على الغيب من جميع جهاته، وهذا لا يتسنى إلاّ لقوة مطلقةٍ غير محدودةٍ بيدها الأسبلب والمسببات على اطلاقها.

وأما الظواهر الثلاث الأخيرة فهي كاشفة عن مستوى علمي راقٍ لا تصل إليه أفهام البشر، فإذا كانت الفرضية تفرض إلهاً ــ كما في الخطوة الثانية ــ مثل الكمال المطلق في جميع صفاته فلا شك أنه يكون مطلقاً من حيثية العلم فصدور مثل هذه المعارف والحقائق العلمية والمستوى البلاغي الفارد في جماله وعلوه ينسجم تمام الانسجام مع هذه الذات. لذلك فإن هذه الفرضية سوف تستبطن جميع الظواهر المحسوسة في الخطوة الأولى.

الخطوة الثالثة: «وهنا نلاحظ أنه على افتراض أن الفرضية المتقدمة في الخطوة الثانية غير صحيحةٍ، فلابد من استبعاد اجتماع كل تلك الظواهر. إذ حينئذٍ سوف تكون مجموعة من الصدف التي ليس بينها ترابط مفهوم، فاحتمال تواجدها جميعاً على تقدير عدم صحة النظرية المذكورة ضئيل جداً. لان هذا الاحتمال يتطلب منا مجموعة كبيرة من الاحتمالات والافتراضات لكي نفسر تلك الظواهر جميعاً»[١٠].

فإذا لم تصح الفرضية في الخطوة الثانية فلابد أن نفرض أن عدم الاختلاف في القرآن الكريم مستند إلى العقل البشري، سواء كان ذلك العقل هو عقل النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، أو عقل سلمان الفارسي، أو عقل أهل الكتاب أو غيرها من الدعاوى التي ادعاها المشركون. وهذه الفرضية تجرنا إلى فرضية أن العقل البشري يمكن أن يتصف بالكمال والثبات، ولا يتصف

بالتكامل، ثم أنه أيضاً لابد أن نفرض أن هذا الثبات والتكامل يختص بعقل واحد دون العقول الأخرى، وعليه فلابد أن ننقض القاعدة القائلة بأن حكم الامثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد، وغير ذلك من الصدف التي لا يمكن أن يوجد بينها ترابط مفهوم.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى قضية الإخبار بالمغيّبات، فلابد من فرض كون المخبر ليس إلهاً مطلقاً محيطاً بعوالم الإمكان. بل نفرض إما أن يكون بشراً، أو جناً أو غير ذلك مما يمكن فرض إخباره عن المغيّبات، وهذا يلزمنا أن نفرض ما بالغير ما بالذات، وذلك لأن العالم بالغيب المطلق هو العالم بالذات وغيره يتعلم منه، ويلزمنا أن نفرض أنه يمكن ان يكون فاقد الشيء قادراً على إعطائه، إلى غير ذلك من الصدف التي لا يمكن أن يكون بينها ترابط مفهوم، وهكذا الأمر بالنسبة إلى الظواهر الثلاث الأخيرة أعني المستوى المعرفي، والبلاغي، والاخبار عن الحقائق الدقيقة. فإنه على تقدير خطأ الفرضية التي أخذناها في الخطوة الثانية فان المسألة تحتاج الى افتراض مجموعة من الصدف بحيث يعتبر احتمال وجودها مجتمعةً ضئيلاً جداً، بينما فرضية كون هذا الكتاب العزيز من عند الله تعالى تفسر كل تلك الظواهر والربط بينها، إذ أن هذه الظواهر مجتمعةً تحتاج الى سلطة قاهرة فوق طوق الممكنات وهي السلطة الالهية المتصرفة في كل شيء كما تشاء، وهذا معناه استبطان الفرضية للظواهر المحسوسة.

وهنا تتحق الخطوة الرابعة في المسألة، وهي انه عندما تكون هذه الظواهر المحسوسة في القرآن مجتمعةً من حيث التحقق والوجود ضعيفة الاحتمال، على فرض أن القرآن ليس من عند الله، فمن المرجح بدرجة كبيرة جداً من خلال اجتماع هذه الظواهر كلها أن يكون هذا القرآن من عند الله تعالى.

ولم يبق شيء سوى أن نطبق الخطوة الخامسة والأخيرة وهي عملية الربط بين ترجيح كون القرآن من عند الله تعالى، وبين ضعف الاحتمال المشار إليه في الخطوة الرابعة وهو عدم كونه من عند الله تعالى.

والمراد بالربط بين هاتين الخطوتين انه كلما كانت ضآلة الاحتمال أشد بالنسبة إلى عدم كون القرآن من عند الله فإن الترجيح الذي يكون في جانب كون القرآن من عند الله أكبر إلى أن يصل حد القناعة اليقينية التي تطلب في مثل هذا

الموضوع[61].

وبهذا يتضح كيفية استخدام المنهج الاستقرائي المعتمد على حساب الاحتمال في ايجاد القناعة الكاملة بأن هذا القرآن هو الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من قبل الله، وهو كلام الله وليس كلام البشر، وإذا كان كذلك فإن البشر لا يتمكنون من الاتيان بمثله أبداً فهو المعجز بكل ظواهره، ومظاهره، غير قابل للانكار كما اتضح من خلال استخدام المنهج السابق.

ونحن نكتفي بتطبيق هذا المنهج على ذلك النموذج داعين إلى إثارته، واستخدامه في كل علوم القرآن لتتصف بالدرجة العالية من الاحتمال التي قد تصل في بعض الأحيان إلى درجة اليقين.

النموذج الثاني:

وأما محاولة إثارة هذا المنهج وتطبيقه في مجال البحث التفسيري فقد يكون أكثر غموضاً مما سبق، إذ أن المسألة في المنهج تعتمد على رصد ظاهرة محسوسة أو مدركة بالتجربة كما في خطوته الأولى، ومن ثم الانطلاق في تطبيق بقية الخطوات وإجرائها للوصول الى المطلوب. ونحن هنا ـ أعني في البحث التفسيري ـ أمام ألفاظ عربية وأساليب كلامية يتمكن من فهمها كل من فهم المفردة العربية، واقتدر على تمييز طرق ربطها بالمفردات الأخرى، فقد يتصور أن المنهج الاستقرائي غير قابل للتطبيق هنا إلاّ أن المسألة على العكس من ذلك، فإنه لو طبق على البحث التفسيري ذلك المنهج لأمكن أن تتمتع النظريات والفرضيات التفسيرية بقيمة علمية أكبر مما هي عليه عندما يكون المنهج المستخدم في التفسير منهجاً غيره.

ولكي تحل مشكلة الخطوة الأولى في المنهج فإننا لابد لنا من ملاحظة الظواهر القرآنية المختلفة من خلال ما يلي:

أولاً: ملاحظة الموضوع الواحد المتكرر في القرآن الكريم من أوله لآخره عبر مناسبات مختلفة وللاجابة على أسئلة متباينة. وهذه تمثل ظاهرة محسوسة تسهل ملاحظتها.

ثانياً: متابعة المفردة المتكررة بمختلف اشتقاقاتها واستعمالاتها بلحاظ سياقاتها المختلفة. وهذه تمثل ظاهره اخرى محسوسة أيضاً.

ثالثاً: ملاحظة الصور المختلفة، والمتعددة، وكذلك ملاحظة الاساليب

البلاغية والفنية، وهي ظاهرة ثالثة.

رابعاً: ملاحظة العلاقات المتعددة بين الجمل والآيات من خلال وحدة السياق، أو وحدة الموضوع.

فهذه تمثل مجموعة من الظواهر المحسوسة التي نتمكن من جعلها موضوعاً للخطوة الأولى، بحيث يمكن أن نفترض على أساس اجتماع هذه الظواهر ـ نظرية تفسيرية معينة (رأي تفسيري معين) يكون مستبطناً لتفسير اجتماع كل تلك الظواهر المرصودة في الخطوة الأولى. من أجل مقارنته بالآراء التفسيرية الأخرى التي يمكن افتراضها «عند تقدير الخطأ في الرأي المعين، بحيث يحتاج افتراضها الى فرض مجموعة من الصدف الفاقدة لحالة الترابط بينها لنصل بالنتيجة من خلال العلاقة بين قيمتي احتمالي الرأيين التفسيريين، أعني التفسير المستبطن لاجتماع تلك الظواهر، والتفسير الآخر المتوقف على تقدير الكثير من الصدف حتى يكون قادراً على تفسير الظواهر، نصل إلى رفع درجة الاحتمال في النوع الأول من التفسير وتقليل الاحتمال في النوع الثاني منه.

ولكي لا يكون البحث مُحاطاً بهالةٍ من الغموض فإننا نتمكن أن نطبق المنهج الاستقرائي على أحد المصاديق لنتحقق من النتيجة في نهاية المطاف.

فعندما نلاحظ ظاهرة الدعوة للصلاة في القرآن الكريم في الكثير من الآيات كقوله تعالى: **﴿ويقيمون الصلاة﴾** (البقرة: ٣) **﴿واقيموا الصلاة﴾** (البقرة: ٤٣) **﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾** (البقرة: ٤٥) **﴿حافظوا على الصلوات﴾** (البقرة: ٢٣٨) والتوسع في ذكر أحكامها وصورها كصلاة المسافر، وصلاة الخوف، وذم التاركين لها والمتهاونين فيها، وتوعدهم بالنار وبجهنم، وبيان المقدمات المتعلقة بها كالطهارات، والنتائج المترتبة عليها كالنهي عن الفحشاء والمنكر وتزكية النفس وغير ذلك مما يتعلق بها، فمن خلال استقراء هذه الظواهر القرآنية المختصة بشأن الصلاة من خلال الملاحظة المعتمدة على الحسّ والتتبع لآيات القرآن الكريم نحقق الخطوة الأولى في المنهج الاستقرائي ثم ننتقل وبشكل مباشر للخطوة الثانية، وهي الفرضية التي يمكن أن تفسر بها كل تلك الظواهر مجتمعة بحيث تستبطنها ـ على تقدير واقعيتها ـ وهذه الفرضية هي أن الصلاة أمر واجب يلزم به المكلف، ولا يحق له تركه بحال من الأحوال اصلاً[١٢].

وبعد ذلك نصير إلى الخطوة الثالثة وهي ملاحظة ضآلة اجتماع تلك الظواهر كلها على فرض عدم صحة الفرضية المقررة في الخطوة الثانية، إذ سوف تكون تلك الظواهر مجموعة من الصدف التي ليس بينها ترابط مفهوم كما قررناه في النموذج الأول.

فعندما لا يكون المستفاد من مجموع هذه الآيات الوجوب فإنه لا محالة ينتقل الأمر الى الاستحباب، وعندها لابد لنا أن نفرض مسلكاً جديداً في التحاور، وهو أن المتكلم عندما لا يهتم بالشيء كثيراً فإنه يؤكد على فعله ويحذر من تركه مع أنه لا يريد الالزام بفعله، وهذا يدعونا إلى أن نفرض أن الحكيم مع كونه حكيماً يستخدم أسلوباً غير حكيم في كلامه، الأمر الذي يجعل تحقق تلك الظواهر كلها مع بعضها مسألة ضئيلة الاحتمال جداً.

وفي الخطوة الرابعة نستخلص من ذلك أن فرضية كون الصلاه واجبة فرضية صادقة ويكون الدليل على صدقها هو وجود الظواهر التي لاحظناها في الخطوة الأولى.

وبعدها نطبق الخطوة الخامسة التي تبين أن العلاقة بين الفرضية المأخوذة في الخطوة الثانية من خلال اثبات تلك الظواهر لها، مع نسبة وجود تلك الظواهر على فرض عدم صدق الفرضية هي علاقة عكسية. وعليه فكلما كانت درجة الاحتمال في كون الصلاة واجبة أكبر كانت درجة احتمال عدم كونها واجبة أقل، إلى أن يتلاشى هذا الاحتمال الأخير، ويبقى الاحتمال الأول لا يزاحمه أي احتمال أصلاً.

وتوجد هنا مشكلة عبرَّ عنها السيد الشهيد(رحمه الله) بمشكلة (الاحتمال القبلي) وهي يمكن أن تتحقق هنا، وقد عالجها (رحمه الله) في كتاب الأسس المنطقية معالجة مفصلة فليراجع.

وبعد، فهذه محاولة أو دعوة قد تحتاج إلى مزيد من الدراسة وبحث من أجل التحقق التام من صلاحيتها لتكون مساهمة في خدمة البحث القرآني سواءً كان على مستوى بحث علوم القرآن، أو كان في مجال البحث التفسيري، فإنها قد تحل مشكلة أساسية في المجال التفسيري خصوصاً، وهي مشكلة الظواهر التي تدل عليها الألفاظ والتي تشكل نسبة احتمالية عالية نتمكن من رفعها الى درجة اليقين عندما يكون المنهج هو منهج الأسس المنطقية للاستقراء، وقد نحتاج الى رفع هذه الدرجة الاحتمالية في المسائل العلمية البحتة كالتي تتعلق بالنظام

الكوني بشكل عام، وكذلك في المسائل التي ترتبط بالعقيدة، والتي يتطلب فيهما القناعة التامة واليقين الجازم.

الهوامش

(١)، (٢)، (٣)، (٤) الاسس المنطقية للاستقراء (٥٠٨).

(٥) الرسول ـ الرسالة ـ الشهيد الصدر ـ ص٢١ ـ ٤١.

(٦) يراجع كتاب: المرسل ـ الرسول ـ الرسالة ـ الشهيد الصدر ص٢٣ ـ ٢٤.

(٧) المصدر السابق وكتاب الاسس المنطقية للاستقراء ص٢٥٥ ـ ٤١٠.

(٨) الاسس المنطقية للاستقراء ص٥٠٧.

(٩) الميزان ـ الطباطبائي: ١ص٦٢.

(١٠) المرسل ـ الرسول ـ الرسالة ص٣٠.

(١١) يراجع المصدر السابق ص٣٢.

(١٢) طبعاً يلاحظ هنا ضم التفصيلات المستفادة من بيان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والائمة الطاهرين عليهم السّلام في جزئيات مسائل الصلاة بعد ثبوت وجوبها من خلال البحث التفسيري لانه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «صلوا كما رايتموني أصلي» وقال: «اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

فإن القرآن الكريم بنفسه قد دعا لهذه المسألة في قوله تعالى: ﴿ما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر: ٧).

وقال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخِيَرَةُ من امرهم﴾ (الاحزاب ـ ٣٦).

لكن من الواضح أن هذه المسألة تتم بعد استنباط الوجوب من خلال الآيات القرآنية وحدها.

القرآن وثيقة تاريخية أيضاً!

عز الدين سليم

إذا قدر لنا ان نجري عملية استقرائية للآيات القرآنية التي تتناول الأحداث التاريخية التي شهدها العالم والانسان، وهذا الكوكب، فاننا نجد معلومات تاريخية وثائقية يمكن أن تحتل مواقع الصدارة في ثقافة الانسان ورؤيته للأشياء في العصر الحاضر والعصور القادمة..

فالقرآن الكريم يخصص نسبة كبيرة من آياته للحديث حول نشوء العالم[١]، وخلق الانسان[٢]، ونشوء كثير من الحضارات واسباب انهيارها كحضارة مصر[٣] واليمن[٤] واليهود[٥] وما الى ذلك، كما ان آيات كثيره تتحدث حول الانبياء واقوامهم والمشاكل التي تعرضوا لها والاخفاقات والنجاحات التي واجهتهم، ومصائر الامم التي عصت انبياءها كقوم نوح وصالح وشعيب وهود ولوط[٦] وغيرهم.

والقرآن الكريم يتناول حياة العرب في الجزيرة العربية تناولا يفيض دقة ومتانة حيث يتكلم حول عباداتهم في الجاهلية[٧]، واصنامهم وتصورهم لله تعالى، ورحلاتهم التجارية[٨] والمعاملات الربوية في حياتهم الاقتصادية، ومواقفهم من الدعوة الالهية المحمدية.

والقرآن الكريم يتناول احداث الدعوة المحمدية تناولاً واسعاً، ابتداء من بداية الدعوة الى الهجرة النبوية، الى المواجهات العسكرية مع قريش، كما يصف حالات النصر وحالات الانتكاسة والاخفاق ويعدد عواملها وظروفها.

هذا، ويكشف القرآن الكريم كثيراً من تطورات الدعوة من بدايتها حتى قيام الدولة، ويتعرض لكثير من المشاكل والاحداث

والمواقف التي يمارسها الافراد والجماعات ـ كما سيتضح بعد استعراض نماذج من الآيات الكريمة التي تهتم باستعراض الاحداث التاريخية التي تتناول الكون والانسان والحضارة.

وفي القرآن المجيد احاديث مفصلة حول احداث المستقبل: مصير الوجود(٩)، ومصير الانسان(١٠)، ومصير الكوكب الارضي، ومصير المطيعين ومصائر الكافرين والمنافقين وما الى ذلك..

ان من المؤسف حقاً ان لا يحوّل المسلمون هذه الوثائق وهذه المعلومات التاريخية الهامة الى تاريخ مكتوب يُشفع بالحقائق الموثقة والارقام الصحيحة التي توصل اليها الانسان المعاصر عبر تجاربه العلمية المطردة، لتكون هذه المعلومات القرآنية التاريخية احدى وسائل الدعوة لرسالة القرآن الالهية فضلاً عن توفير معلومات موثقة لثقافة الانسانية جمعاء..

على ان كثيراً من المعلومات التاريخية القرآنية يمكن ان تأخذ مكانها الطبيعي في سياق احداث التاريخ البشري العام، إذا نجحنا في عرضها من خلال التأليف والمحاضرات والنشاطات الثقافية الاخرى، كما ان المجامع العلمية في بلاد المسلمين يمكنها ان تقوم بدور هام في اشاعة هذه المعلومات الحيوية خصوصاً إذا اهتمت مناهج الدراسة بتبنيها وعرضها على طلبة المراحل المختلفة...

وإذا وفق العلماء والباحثون واصحاب الاختصاص من المسلمين للاستلهام من السنة الصحيحة والآثار الموثقة التي تشرح الآيات الكريمة التي تتعلق بأحداث التاريخ وتتناولها بالتفصيل يكون المسلمون قد بلوروا ثقافة تاريخية حضارية مميزة تغني مسيرة الانسان، وتحظى باهتمام الباحثين في العالم، على ان تعرض بأدوات تعبيرية تناسب لغه العلوم التاريخية وثقافتها وتفيد من مصطلحاتها ومفاهيمها في العرض والتقديم..

ومن خلال هذه اللفتة نحاول ان نضع بين ايدي القراء الكرام عدداً من الوثائق التاريخية التي قدمها القرآن المجيد لقلب الانسان وعقله، كبصائر على الطريق ومنارات للهدى:

١ ـ كيف نشأ الوجود؟:

يؤرخ القرآن الكريم لبداية نشوء الوجود بالكلمات الربانية التالية:

﴿قل أئنكم لَتَكفرون بالذي خَلَقَ

الارضَ في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربُّ العــالمين، وجعـل فيهـا رواسيَ مـن فوقها وبــارك فيها وقَدَّر فيها أقـواتَها في أربعةِ أيامٍ سواءً للســائلين * ثم استوى الى السماءِ وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرهــا قالتا أتينا طائِعين * فقضيٰهنَّ سبعَ سمواتٍ في يومين وأوحى في كلِّ سماءٍ أمـرَها وَزَيَّنَّا السماءَ الـدنيا بمصــابيحَ وحفظــا ذلك تقـديـر العزيـز العليم﴾(فصلت: ٩ ـ ١٢).

٢ ـ ثم كان الانسان:

ويـؤرخ القرآن لمبـدأ وجود الانســان فوق هذا الكوكب فيقول:

﴿وإذا قلنــا للملائكـة اسجـدوا لآدمَ فسجدوا إلاّ ابليـسَ أبى * فقلنا يــا آدمُ إنّ هذا عـدوٌ لك ولزوجك فلا يُخـرِجَنَّكما من الجَنَّة فتشقـى * ان لك الاّتجوعَ فيهـا ولا تعرىٰ * وانّك لا تظمؤا فيها ولا تضحى * فـوسوس إليـه الشيطان قــال يــا آدم هل أدّلك علـى شجرة الخلـد ومُلْـكٍ لا يبلى * فاكـلا منها فبـدت لهما سـوآتهما وطفقـا يخصفان عليهما مـن وَرَقِ الجنةِ وعصىٰ آدمُ ربَّـهُ فغوى * ثم اجتبٰيـه ربُّهُ فتــابَ عليـه وهدى * قــال اهبطـا منها جميعــاً بعضُكُمْ لبعـضٍ عدوٌّ فإمـا يأتينّكـم مني هـــدىً فمن اتّبــع هـــداي فـلا يضـلُ ولا يشقى﴾(طه: ١١٦ ـ ١٢٣).

٣ ـ السامري يضلّ أمة:

﴿وما اعجلك عن قومـك يا موسى * قال هم اولاء على اثـرى وعجلت اليك ربّ لترضى * قال فانّا قد فتنّا قومك من بعدك واضلّهم الســامري * فـرجع موســى الى قومه غضبان اسفاً قــال يا قوم ألَم يَعِدْكم ربُّكم وعـداً حسناً افطال عليكـم العهد ام أردتـم ان يحلّ عليكـم غضـبٌ من ربكـم فاخلفتم موعدي * قالوا ما اخلفنا موعدك بِمَلكِنا ولكنّا حُمِّلنــا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السامري * فاخرج لهم عجلاً جسداً له خوارٌ فقالوا هذا الهكم وآله موسى فنسى * افـلا يرون الاّ يرجعُ اليهم قـولاً ولا يملك لهم ضـراً ولا نفعاً * ولقد قال لهم هارون مـن قبل يا قوم انما فُتِنْتم بــه وانّ ربَّكم الرحمـنُ فاتبعـوني واطيعـوا امري * قــالوا لـن نبرح عليــه عاكفين حتى يرجع الينا موسى * قال يا هــارون مـــا منعـكَ إذ رأيتهم ضلّــوا ألاّ تتّبعنِ افعصيتَ أمـري * قال يــا بنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا بـرأسي اني خشيت ان تقول فرّقت بين بني اسـرائيل ولم ترقب

قولي * قال فما خطبك يـا سامري * قال بَصُرْتُ بما لم يبصروا به فقبضتُ قبضةً من أثَرِ الرسول فنبذتُها وكذلك سوّلت لي نفسي * قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقولَ لامساس وإنّ لك موعداً لـن تُخْلَفَه وانظر الى الهك الذي ظَلْتَ عليه عـاكفاً لنحرّقنّه ثم لننسفنّه في اليمّ نسفا * انما الٰهكم الله الذي لا اله إلاّ هو وسع كلَّ شيءٍ علما﴾(طه: ٨٣ـ٩٨).

٤ ـ ابـراهيم واسمـاعيل عليهما السّلام يرفعان قواعد الكعبة:

﴿وإذ يـرفع ابـراهيـمُ القـواعـدَ من البيت واسمـاعيل ربنا تقبّلْ منّـا انك انت السميع العليم * ربنـا واجعلنا مُسلِمَيْنِ لـك ومن ذريّتنـا أمـةً مسلمـه لـك وأرنـا منـاسكَنـا وتب علينـا إنّـكَ انت التـوابُ الرحيـم * ربنا وابعث فيهم رسـولا منهم يتلـوا عليهـم آيـاتـك ويعلّمهـم الكتـاب والحكمة ويزكّيهم إنّك انت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملّة ابراهيمَ الا من سَفِهَ نفسَهُ ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنّه في الاخرة لمـن الصـالحين * إذ قـال له ربـه أسلم قال أسلمتُ لرب العالمين * ووصّىٰ بها ابـراهيم بنيه ويعقوب يـا بَنيّ إنّ الله اصطفى لكـم الدين فـلا تموتُـنَّ إلا وانتم مسلمـون * ام كنتـم شهــداء إذ حضـر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلهـاً واحدا ونحن له مسلمون * تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم مـا كسبتم ولا تسئلون عمـا كانـوا يعملون﴾(البقرة: ١٢٧ ـ ١٣٤).

٥ ـ بنو اسـرائيـل بعد غيـاب موسى عليه السّلام:

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعـرفـون أبنـاءهـم وإنّ فـريقـا منهـم لَيَكتمونَ الحق وهم يعلمون * الحقُّ من ربك فـلا تكـونـن من الممتـريـن * ولكلٍ وجهةٌ هو مولّيهـا فاستبقوا الخيرات اين ما تكونوا يـاتِ بكم الله جميعاً إنّ الله على كل شيءٍ قدير * ومـن حيث خرجتَ فولّ وجهك شطر المسجد الحـرام وإنّه للحقُّ من ربـك وما الله بغـافـلٍ عما تعملـون * ومن حيـث خـرجت فـولّ وجهـك شطـر المسجـد الحرام وحيـث ما كنتـم فولّـوا وجوهكم شطره لئـلاّيكونَ للناس عليكم حجةٌ إلاّ الذين ظلمـوا منهم فلا تخشوهم واخشـوني ولأتمَّ نعمتي عليكـم ولعلكم

تهتدون * كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم اياتنا ويزكيكم ويعلّمكم الكتابَ والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾(البقرة: ٢٤٦ـ٢٥٢).

٦ ــ الاسراء من مكة الى بيت المقدس:

﴿سبحان الذي أسرىٰ بعبدِهِ ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لِنُرِيَهُ من آياتِنا إنّه هو السميع البصير﴾(الاسراء: ١).

٧ ـ الانتصار الاول في بدر:

﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّةٌ فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين آلَن يكفيكم انْ يُمِدَّكم ربُّكم بثلاثة الأفٍ من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا وياتوكم من فورهم هذا يُمْدِدكم ربكم بخمسة الافٍ من الملائكة مسوّمين * وما جعله الله إلاّ بشرى ولتطمئنّ قلوُبكم به وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾(آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٧).

٨ ـ القرآن يقيّم نتائج معركة الاحزاب:

﴿يا أيها الذين امنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَروْها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا﴾(الاحزاب: ٩ ـ ١١).

٩ ــ الاسكندر يطوف العالم منتصرا:

﴿إذ مكّنا له في الارض وآتيناه من كلّ شيء سببا * فأتبع سببا * حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عينٍ حمئةٍ ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إمّا انْ تُعَذِّبَ وإما أنْ تتّخذ فيهم حُسنا * قال أما من ظلم فسوف نُعذِّبُه ثم يُردُّ الى ربه فيعذبه عذاباً نكراً * أمّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى وسنقول له من امرنا يُسرا * ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا * كذلك

وقد احطنا بما لديه خبرا * ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ بين السَّدَّين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا * قالوا يا ذا القرنين إنّ ياجوج وماجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خَرْجاً على ان تجعل بيننا وبينهم سدا * قال ما مكّني فيه ربي خير فاعينوني بقوة اجعلْ بينكم وبينهم رِدْما * آتوني زُبُرَ الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرِغْ عليه قِطْرا * فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا * قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد رَبي جعله دكّاً وكان وعد ربي حقا﴾ (الكهف: ٨٣ـ٩٨).

هذه نماذج من الوثائق التاريخية التي حملها الكتاب المعصوم[١١] نسأل الله تعالى ان يوفق الباحثين والمهتمين بشؤون الحضارة والتاريخ ان يستلهموا المعرفه الحقة من هذا الكتاب السماوي الخالد.

الهوامش

(١) سورة فصلت.

(٢) سورة ص.

(٣) سورة القصص.

(٤) سورة سبا.

(٥) سورة الاسراء والبقرة.

(٦) سورة هود.

(٧) سورة النجم.

(٨) سورة قريش.

(٩) سورة فاطر.

(١٠) سوره الملك.

(١١) وللمزيد من الوثائق التاريخية القرآنية تراجع سورة هود والاعراف وآل عمران والتوبة والبقرة ويوسف والكهف والنجم والفتح والانبياء والشعراء وغيرها.

وقفة مع كتاب العدد:

منهج الحضارة الانسانية في القرآن

عرض وتقديم: جلال الانصاري



اسم المؤلف: د. محمد سعيد رمضان البوطي

اسم الناشر: دار الفكر: دمشق

عدد الصفحات: ٢١٥

سنة الطبع: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م [ط ٢ اوفست]

* * *

في غمرة التساؤلات التي اخذت تُطرح، في الساحة الفكرية، حول حاجة البشرية اليوم الى منهج متكامل يرضي تطلعها، ويروي ظمأها، وينقذها من وهدتها.. وفي ظل افلاس المذاهب الوضعيّة، وعجز حلولها عن معالجة المشكلة الانسانية - الاجتماعية والنفسية والروحية - بشكل خاص.. فان من الطبيعي أن تـوّجه الأنظار صوب البديل المنقذ.

ومنذ مطلع الثمانينات طُرح الاسلام باعتباره هو الحل.. ولكن هذا الطرح لم تُتح له الفرصة، لكي يشق طريقه بسلام الى الرأي العام العالمي فاثيرت في وجهه الزوابع.. واقيمت الحواجز والمتاريس

وتعرّضت الاطروحة الى كثير من الدس والتشويه والتزييف.. بل والتآمر السافر.

وساحتنا في الوطن الاسلامي كانت من بين كل الساحات التي احتدم فيها الجدل، حول قدرة الحل الاسلامي على تحقيق مفاهيمه المثلى، على واقع الحياة المعاصرة.

وليس هناك من شك أن أغلب — إن لم يكن كل — المشككين في امكانيّة الحل الاسلامي أو واقعيته أو امتلاكه المنهج الحضاري هم من اولئك الذين تشربوا أفكار التغريب، بشتى مدارسه ومذاهبه!

والمسألة الحضارية - على سبيل المثال — واحدة من تلك المفردات التي ما يزال الجدل يحوم حولها، وما يزيد من تعميق الهوّة أن «جل بحوث الكاتبين في الحضارة الاسلامية انما تتناول بياناً وصفياً لمنجزاتها دون أي تحليل جاد لاسبابها».

ومشكلة هذه الطريقة أنها تثير في أذهان الآخرين معضلة التساؤل عن سر اقبال تلك الحضارة بالأمس وادبارها اليوم، وتسبب لهم الوقوع في أخطاء جسيمة بحثاً عن الجواب، وكان من آثار هذه الطريقة أن اتجه كثير من الباحثين الى دعم وتصديق الرأي الجانح الذي تبناه الفيلسوف الالماني «شبنجلر» عن اعمار الحضارات واعترائها ما يعتري العمر البشري من أطوار.

وهذا هو الدافع الذي حمل المؤلف الدكتور البوطي على القاء سلسلة محاضرات عن «الحضارة الاسلامية»، وليخرجها موسعّة في هذا الكتاب ليقف، على معالم المنهج القرآني القويم وتفاصيله، ومن ثم ليثبت بالدليل أن جذور الحضارة الانسانية المثلى، هي في الوقت ذاته جذور للتربية الانسانية المثلى، ومعنى هذا أن القرآن يحوي منهجاً متكاملاً لأصول التربية الانسانية المثلى.

المنهج الفريد.. والتغريب البليد!

وفق هذه الرؤية العميقة انطلق المؤلف في توضيح هذا المنهج الرباني، منذ البداية حتى النهاية.

ففي البدء يفتتح الكتاب بمقدمة ينحي فيها باللائمة على المنهج الوضعي العقيم في تناول موضوع الحضارة، بشكل عام والحضارة الاسلامية بشكل خاص. على أنه بادر واستثنى المفكر الاسلامي مالك بن نبي الذي سلك في بحوثه الكثيرة عن الحضارة الاسلامية مسلك النابش عن جذورها الباحث عن صلة ما بينها وبين نفوس أصحابها. إلاّ انه اتجه الى ذلك من خلال طريق طويل، جعله يجتاز بالقارىء مراحل نظرية مجردة قبل ان تأخذ بيده لتدله بشكل عملي على المفتاح الضائع الذي يبحث عنه..».

ويعرّج الكاتب على اولئك الذين ابتليت بهم الساحة الفكرية في ديارنا، فيقول عنهم: بلاؤنا الكبير باولئك الذين يقولون: بحثنا في القرآن فلم نعثر فيه على اصول متكاملة للتربية الانسانية المثلى.. انهم لم يبحثوا قط، ثم يظلون يكررون مع ذلك هذه الدعوى في كل مناسبة!..

وكيف نصدّق أنهم بحثوا، وأنّ أحدهم لم يمر على كتاب الله تعالى قراءة مستوعبة له، مرة واحدة في حياته بعد!.. بل إني لا أشك أنّ فيهم مَنْ لا يعرف من القرآن الذي ينتمي إليه، أكثر مما يعرف عن التوراة والانجيل، ولم يعلق بذهنه من آيات ذلك الكتاب، أكثر مما حفظه من مقاطع هذين الكتابين!

الحضارة وعناصرها:

بعد هذه المقدمة، يتناول المؤلف موضوع «الحضارة وعناصرها» وهو تمهيد للكتاب، وفي السطر الأول يواجهنا الاستاذ البوطي برأيه الذي يذهب الى عدم جدوى الاطالة في تعريف الحضارة على نحو ما يصنع كثير من الكاتبين، مع تأكيده على أنه لم يقف الى الان على تعريف علمي دقيق لها في كتابات مختلفة عنها، ليضع القارىء أمام نقطتين:

الأولى: ان مدار الحضارة (مهما تشقق أو اختلف الحديث عنها) على الجهود التي يبذلها الانسان في نطاق انتقاله من حياة البداوة وبساطتها الى حياة العمران وتعقيداتها.

الثانية: ان الحضارة يمكن ان تعرّف انطلاقاً من هذا الأساس بأنها ثمرة التفاعل بين الانسان والكون والحياة.

وتأسيساً على هذا التعريف، يحدّد المؤلف عناصر الحضارة أو أركانها الأساسية بالكليّات الثلاثة: الانسان والحياة والكون.

وهنا، رغم استفادة المؤلف من هذه النقطة من أفكار مالك بن نبي، بيد أنه يستغرب عليه عدم دقته في مدلولات الالفاظ، حينما يعبر عن العمر بالزمن، وعن الكون بالتراب..

وفي الأثناء يبدي المؤلف تعليقاً يدور حول تعريف للحضارة ورد في أحد كتب «أبي الأعلى المودودي».. ليخرج بالقول: «ليس ثمه أي علاقة حتمية بين الحضارة من حيث هي، وما قد تحققه من مبادىء الحق والخير للانسان، لذا جاز أن تتفاوت الحضارات في استقامتها وآثارها».

وتحت عنوان فرعي يسأل المؤلف: كيف يحمّل القرآن الانسان مسؤولية بناء الحضارة؟

فيجيب بالقول: لم يكن القرآن كتاب دين وعبادة إلا من حيث إنه يحمّل الناس جميعاً مسؤولية بناء حضارة. ومن ثم يذكر

أبرز الأدلة على ذلك، وهذه الحقيقة الثابتة تثير سؤالاً هو: هل الدين جاء من أجل الدنيا، أم الدنيا قامت من أجل الدين؟

وعن: كيف يبصّر القرآن بعناصر الحضارة ويدلّه على سبيل التعاون معها: يؤكد المؤلف بأن منهج الحضارة الانسانية في القرآن يتلخص في تعريفه الانسان تعريفاً دقيقاً على كل من ذاته وحياته والكون الذي يعيش فيه، وعلى كيفية التنسيق بينها.

ولكن من هذا الذي يستطيع أن يعرف الانسان على هذه العناصر الثلاثة وكيفية الاستفادة منها؟ إن الذي يملك ذلك هو الذي استقل بإبداعها وصنعها، ثم وضع في كل منها قابليته وأقامه على وظيفته.

من هنا كانت الضرورة قاضية بالإقبال على البيانات الالهية التي صحبت الانسان في رحلته إلى هذه الدنيا، والمتضمنة لإيضاح أدق السبل الى التعاون مع الكون والحياة والإنسان، من أجل عمارة الأرض. وهذه البيانات مندرجة كلها في القرآن.

منهج الحضارة الانسانية في القرآن:

بعد هذه المقدمات يطرح المؤلف السؤال التالي: من هو الإنسان في القرآن؟ وهنا يوّضح بأن القرآن يحفل بالانسان كما لا يحفل بغيره، فهو يبدأ قبل كل شيء بتعريف الانسان على ذاته، ترى ذلك واضحاً فيه سواء من حيث أسبقيّة الترتيب أو النزول، فأول آية من حيث النزول (العلق) تعرّفه على ذاته.. واوائل الآيات من حيث الترتيب الكتابي تقسّم الانسان الى: مؤمن، وجاحد، ومنافق. كما يبصّر القرآن الإنسان على هويته من خلال تنبيهه الى حقيقتين داخلتين في تركيبه الانساني..

الحقيقة الأولى: أنه مخلوق تافه، أصله من تراب.. الخ

الحقيقة الثانية: هي أنه ذلك المخلوق المكرّم على سائر المخلوقات الأخرى.

ولكن كيف تآلفت هاتان الحقيقتان ضمن هوية واحدة للانسان؟ وما سرّ تركيز القرآن على كل منهما؟ وما هو الأثر التربوي الناتج عن ذلك؟

إنّ المنطلق العلمي السليم لأي عمل يريد الإنسان النهوض به هو أن يبدأ فيعرف ذاته وخصائصها معرفة سليمة.. وكلما ازداد نطاق العمل اتساعاً وأهمية، برزت أهمية هذا الشرط بشكل أوضح، ولكن هذا الشرط يتوقف بدوره على اليقين بوجود الله عزوجل، ولعل البعض يحسب أن هذا الشرط تنحصر أهميته بالنسبة للمجتمعات القديمة التي كان يشيع فيها وجود متألهين... والجواب أن فقد هذا الشرط لابدّ أن يستلزم انتشار الربوبيات الزائفة في كل عصر، ولكن لا يشترط أن تستعمل لها كلمات «الربوبية» و«العبودية» فما أيسر أن يمارس

المتألهون ألوهيتهم من خلال شعارات الحرية والمساواة والعدالة ونحوها.

ما هي الحياه الإنسانية في القرآن؟

انّ أشد ما يتعلق به الانسان من دنياه إنما هو عمره، والحياة رأس مال بيد الإنسان، فمتى يجب أن يجازف ويغامر بها، ومتى يجب أن يكون حريصاً عليها؟ يتوقف ذلك على معرفة حقيقة الحياة من حيث مصدرها ومآلها، ومعرفة أوجه العلاقة بينها وبين ما نسخرها لأجله من المصالح والأهداف .فمن هنا يبدأ القرآن (بعد تعريفه الإنسان على ذاته) بتعريفه على حقيقة العمر الذي يتمتع به، فما هي حقيقة العمر الإنساني في تعريف القرآن وتحليله؟ وكيف يتحقق الانسجام بين حقيقتين يؤكدهما القرآن، هما ضآلة الحياة الانسانية وأهميتها في الوقت ذاته؟ وبيان الأثر التربوي في ذلك.

وهنا يشير المؤلف الى صور من الآثار الحضارية التي تتجلى في أي مجتمع أخذ نفسه بهذا التوجيه القرآني، ليمضي في مقارنة سريعة وذكية بين واقع الحضارة الانسانية التي انشأها رجل الحضارة كما صاغه وربّاه القرآن، في غرّة تاريخنا الاسلامي المجيد، وبين واقع البشرية اليوم بكل ما تحفل به من صور الآثار الحضارية السيئة التي تفشت في المجتمعات التي ضلت عن هذه التبصرة القرآنية.

ما هو الكون في القرآن؟

ان أهم ما يلفت القرآن نظرنا إليه من حقيقة المكونات المحيطة بنا، هو أنها بيان قاطع بأن هذا الكون من صنع صانع وتدبير مدبّر، ثم إن القرآن ينبه الإنسان إلى أن جلّ ما يراه حوله من أشياء الكون ومظاهره مسخر من قبل الله عزوجل لخدمته وتدبير أسباب عيشه، وعليه لم تكن علاقة ما بين الانسان والمكونات التي من حوله، يوما ما، علاقة تحدّ أو صراع، مهما أوغلت بخيالك في الماضي البعيد، غير أن البيان الإلهي استثنى طائفة من الظواهر والأنظمة الكونية عن عموم هذه المسخرات، وأكد لنا أنها ثابتة، وبعيدة عن أن تنالها يد التطوير والتسخير، مهما بذل الانسان من أسباب القوة وحيل الفكر... ويستعرض المؤلف بعضاً لهذه الأنظمة، كالموت وحجب حقيقة الروح، السنة الالهية في سير الحياة الانسانية من ضعف الى قوة فضعف وشيبة.. الخ

وهنا يُثار هذا التساؤل: هل من شأن بيان القرآن للثوابت الكونية التي لا تخضع للتطوير والتبديل، أن يثبط الناس عن المحاولات العلمية وأن يقيد عزائمهم عن ممارسة الأنشطة الفكرية؟

إن القرآن يبدأ فينبه الإنسان إلى حقيقة قيمتها، ويحذره من الانخداع بها، فهي ليست إلا ظلاً زائلاً وخيالاً عابراً، ولكن القرآن يعود فيندب الإنسان إلى التعامل مع الدنيا ومكوناتها، ويحذره من التأثم في الإقدام عليها.

وربَّ سائل يسأل: ما الحكمة من هذا المدّ والجزر في بيان قيمة الدنيا؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يقتنع بأن الدنيا ظل زائل وسراب باطل، ثم أن يقبل إليها مع ذلك متتبعاً خيراتها مستفيداً من ذخرها؟

ويجيب المؤلف بقوله: إن القرآن يحلّ ـ بهذين البيانين المتوازنين في تكافؤ دقيق عن قيمة المكونات ـ عقدة هامة طالما استعصى حلها على المؤرخين والمتخصصين بعلم الاجتماع. وألجأت كثيراً منهم الى القول بأن الحضارات لها أعمار كعمر الإنسان، بقطع النظر عن تأثير العوامل الخارجية أياً كانت.

فالقرآن يقرّر من خلال هذين البيانين عن قيمة المكونات، أن الشرط الأساسي لنهوض الحضارة على أساس راسخ، ولاستمرارها قوية على مرّ الأحقاب، هو أن يمارس الناس أسباب معاشهم بدافع وظيفي، لا بدافع التعشق النفسي.. ولا يتحقق ذلك إلا في ظل هذه التربية القرآنية.

وينتقل المؤلف بنا من العرض النظري، إلى الكشف عن مصداق ذلك من الواقع التطبيقي، وبيان كيفية انصباغ الرعيل الأول من المسلمين بهذه التبصرة القرآنية، وكيف تحققت لهم من جراء ذلك حضارة باسقة الأغصان راسخة الجذور.

ما هي المعرفة في القرآن؟

ثم ينتقل الدكتور البوطي الى موضوع المعرفة بالعناصر الثلاثة التي خلت، موضحاً، أن المعرفة الصحيحة لا تتم على وجهها الصحيح، إلا إذا نهضت على شرط أساسي هام. ومما لا ريب فيه أن هذا الشرط لم ينبه إليه ولم ينوه بأهميته سوى القرآن وهذا الشرط يتلخص في أن تتم المعارف الجزئية، ضمن قاعدة واسعة، من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلها. ويحث الكاتب على تأمّل كيف تتحقق المعرفة السليمة التي تبعث على الطمأنينة الفكرية والنفسية من وراء اتباع هذا الشرط، مع عرض لنموذج عملي من سير المعرفة على الوجه القرآني الصحيح، وحاشية تتضمن بيان علاقة هذا الشرط القرآني للمعرفة الصحيحة، بعلم جديد يهتم به الغربيون، اسمه علم الأنثربيولوجيا.

وإذ ينتهي الكاتب من تبين ذلك، يضمحل الإشكال الذي قد يقوم في ذهنك من أن الدنيا مليئة اليوم بالعلماء الأفذاذ، ومع ذلك فإن الكثير منهم لا يؤمنون بالله فضلاً عن أن يخافوه، فكيف يتفق حالهم مع قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده

العلماء﴾؟

فهؤلاء ليسوا علماء بالمعنى الحقيقي للكلمة، وانما هم نموذج من اولئك الذين يضعون المكبرات على رقعة صغيرة من قلب خارطة كبيرة، ثم يحملقون في تلك الرقعة وهم عن الخارطة ذاتها غافلون..!

تحجرّ الحضارة الاسلامية

وفي الفصل الأخير يثير المؤلف السؤال التالي الذي جعله عنواناً للفصل: لماذا تحجرت الحضارة الإسلامية وازدهرت الحضارة الغربية؟:

ويجيب قائلاً: ان هذا سؤال سطحي جداً، والمؤسف أن الإجابة عليه تأتي في غالب الأحيان أكثر سطحية من السؤال ذاته، وهي الإجابة القائلة، بأن السبب في ذلك هو انطواء المسلمين على أنفسهم وعدم التفتح على الحضارات الأخرى.. الخ

وهذه الاجابة يستلهمها أصحابها من الكتابَ الغربيين، دون أي تأمل أو تمحيص.. وآخر من نعده مثالاً لهؤلاء الغربيين زيغريد هونكه صاحبة كتاب «شمس الله تسطع على الغرب»... وقصة إجابتها على من سألها عن سر تحجر تلك الحضارة بعد ذلك الازدهار الفريد..

إنّ سر تخلف العالم الإسلامي يكمن في الغشاوات والحجب الكثيرة التي أسدلت على بصيرته، فأقصته عن معرفة حقيقة الإنسان، والعمر الذي يتمتع به، والدنيا التي تطوف من حوله. ثم إنه لم يقف عند حدود جهله، بل مضى يستعير للتعرف على كل من هذه العناصر الثلاثة عقول الغربيين وأبصارهم.. فهو يقع اليوم بكل أفكاره ومشاعره في منطقة الجاذبية الغربية.

أما سرّ ازدهار الحضارة الغربية، فعلينا أولاً أن نعود فنتذكر تعريف الحضارة، وأن ليس ثمة أي لزوم بين الحضارة من حيث هي، وما قد يتوقع منها من تحقيق مبادىء الخير والحق للانسان.. إننا مهما وصفنا الحضارة الغربية بالتألق والازدهار، فإن ذلك لا يصدق عليها إلا من حيث الطلاء الخارجي.. أما حقيقتها فهي على النقيض من ذلك.

ولكن كيف أمكن الله أمماً شأنها عبادة اللذة العاجلة والخضوع لسلطان المادة وحدها، من التحكم بناصية العالم الاسلامي، مهما كانت أخطاؤه؟

والجواب:

أولاً: لم يلتزم الله تعالى أن يمنّ على المستضعفين لمجرد كونهم مستضعفين، وإنما ألزم نفسه بذلك تجاه من وضعوا عبوديتهم لله موضع التنفيذ..

ثانياً: إن من سنن الله أن تظل هذه الأرض معمورة بأهلها، ماضية في أخذ زينتها، فإن كان المؤمنون أمناء على منهاجه وشرعه، جعل قيادتها اليهم، وإلاّ

جعل نيادتها وعمارتها الى الأمم الأخرى ثم سلطها عليهم بالقهر والإذلال.

وهذا يعني أن ما يتوهمه الناس ازدهاراً في الحضارة الغربية، إنما هو في الحقيقة انعكاس لتخلف الحضارة الإسلامية.

كيف تنبعث الحضارة الإسلامية من جديد؟

تساؤل مطروح، يردده الكثير، ويشير المؤلف الى ملاحظة مهمة اذ يقول: لابد أن ألفت النظر أولاً الى أن العلاج الذي سأصفه لهذه الغابة إنما هو علاج جماعي، لا يجدي إلا إذا تناولته الأمة الاسلامية بمجموعها أو بغالبيتها، وبعد هذه الملاحظة يمضي في تبيين الشروط اللازمة للانبعاث وهي:

أولاً: وجود الرغبة الكافية لدى المسلمين في السعي الى استعادة هذه الحضارة..

ثانياً: القضاء على التجزؤ وأسبابه، ولا يكون ذلك إلا بوجود قيم ومسلمات أساسية في حياتنا الفكرية، مع تغذيتها والمحافظة عليها.

ثالثاً: الاستقرار النفسي والفكري، وهو يتحقق بتوافر الشرطين السابقين مع رعاية شرط ثالث، هو توجيه العمل التربوي إلى قطع أسباب الاضطراب النفسي والفكري الذي يجتاح اليوم سواد هذه الأمة.. وبيان عوامل هذه الاضطراب النفسي.

رابعاً: تلاحم الثقة بين قطاعات الأمة، وهو يتحقق بتوفر الشروط الثلاثة السابقة، مع عوامل أخرى..

خامساً: استخدام الطاقات التربوية على تنوعها لترسيخ المسلمات الفكرية التي تحدثنا عنها، دون أن يقوم بينها أي تشاكس في ذلك.

هذه الشروط، تعني أن مفتاح النهضة الحضارية لا يتمثل ـ كما يتوهم السطحيون ــ في علوم التكنولوجيا والمشاريع الاقتصادية والتجهيزات الصناعية وحدها. بل لابدّ من قاعدة راسخة من المعارف الانسانية الرشيدة تنهض تلك العلوم والتجهيزات عليها.

والخلاصة أنه لابد من ضفر سائر المعارف الانسانية وأصول الثقافات السليمة على أساس متناسق، واتخاذها منطلقاً لمحاربة التخلف.

وهكذا نجد أن هذا الكتاب يتضمن كشفاً عن تبيان قرآني متكامل لتربية اجتماعية فذة، تتكفل بتحقيق نهضة حضارية راسخة سليمة.. ولا يقلل من قيمته ورود بعض وجهات النظر التي لا نتفق فيها والمؤلف، لأنها قابلة للنقاش.. وأملنا وطيد ان الكاتب الكبير سيزود المكتبة القرآنية بالجديد والعميق.. كما عوّدنا على ذلك فيما مضى من نتاجه الثر.. أمدّ الله في عمره.

أخبار قرآنية

اعداد: السيّد علي اشرف

صدور أول مجلة قرآنية متخصصة باللغة الفارسية:

صدر عن مؤسستنا «دار القرآن الكريم ـ قم» العدد التجريبي لمجلة «پيام قرآن» [رسالة القرآن]، بهدف تعميم الثقافة القرآنية وسد الحاجة الاجتماعية، في هذا المضمار، والمجلة تحتوي على مقالات ومواضيع مختلفة، بالاضافة الى الابواب الأخرى، التي تحتوي على منوعات قرآنية، وقد روعي في موضوعاتها مخاطبة الشباب وخاصة في المرحلة الجامعية.

ومن الجدير بالذكر أنها استطاعت، وفي فترة قياسية جداً، ان تشق طريقها في الوسط الاجتماعي، بحيث استقبلت استقبالاً حاراً، وتزايد الطلب عليها، منذ الايام الأولى من انتشارها. ونحن في الوقت الذي نرحب فيه بولادة الزميلة «پيام قرآن» لا يسعنا إلاّ أن نشد على أيدي اخواننا العاملين في هذه المجلة متمنين لهم دوام الموفقية والنجاح في مهمتهم الكبيرة لخدمة كتاب الله الخالد واتباعه المؤمنين.

تنفيذ مشروع تحفيظ القرآن لطلاب المرحلة الابتدائية:

بدأ في هذا العام تنفيذ مشروع، تحفيظ القرآن الكريم لطلاب المرحلة الابتدائية في مدينة قم المقدسة.

ويأتي هذا المشروع انطلاقاً من الحرص على توثيق العلاقة بين الطفل المسلم، وكتاب الله الكريم، واستثمار أوقات فراغه، وتوظيفها في خدمة الاسلام والبناء الاسلامي، ومواجهة المد الثقافي الغربي الذي يحاول غزو المجتمع المسلم، تقرر من

هذا العـام تنفيذ المشـروع المذكـور اعلاه، وكانت الخطوة الاولى حفـظ الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، وقـد اشترك في المرحلة الاولى مـن المشروع اكثـر من ٥٠٠٠ خمسة آلاف طـالب ابتدائي فـي منطقة واحـدة من ادارة التربية والتعليم في قـم، وقد فاز أكثر من ٩٠٠ طـالب فـي المـرحلـة الاولى، مـن المسابقات، وفي الحفل الختامي لمسابقات المرحلـة الاولى رشح خمسـون متسابقـا، باعتبارهم متفوقين، ومنحوا جوائز، ثم اعلن عن الفائزين الأوائل، وهـم عشرة وقدمت لهم جوائز تقديرية

دورة جـديدة لبـرنامج «قـرآن وترجمة»:

بدأت دورة جديدة، من بـرنامج «قرآن وتـرجمـة» الـذي تبثه اذاعـة الجمهـوريـة الاسـلامية في ايـران، حيث دأبت الاذاعـة، ومنـذ الايـام الأولـى مـن انتصـار الثـورة الاسلامية باذاعة هـذا البرنامج، وهو عبارة عن تلاوة لبعض آيات الكتاب متسلسلاً، من أول القرآن الـى آخره، ثم تـرجمتها تـرجمة تفسيرية مختصرة.

افتتاح ثاني كليـة لعلوم القرآن في زنجان:

سيتم قـريباً افتتاح ثـاني كليـة لعلوم القرآن فـي محافظة زنجـان الايرانيـة، اعلن ذلك المـديـر العـام في مـؤسسة الثقـافـة والارشاد الاسـلامي في المحـافظة، وقـال: بناءً علـى تأكيدات وزيـر الثقافـة والارشاد الاسـلامي علـى التعجيل في افتتـاح هـذه الكلية، فقد أعددنا المقـدمات كاملة، وسوف تفتتح الكلية في القريب العاجل ان شاء الله.

تخريـج دفعة من طـلاب اعداد المربين في مدينة طهران:

اصدر مركز تعليم القرآن، التابع لرابطة علماء الـدين المجاهـدين، في غـرب طهران تقريـراً عن انتهاء الدورة التعليميـة في هذا المركز.

وقـد اقيـم بهـذه المنـاسبـة، احتفـال حـاشـد، حضـره ممثل الـولـي الفقيـه في الجيـش، ولفيـف مـن عـوائل الشهـداء والمسؤولين، وافتتح الاحتفال بتلاوة عطرة من آيات الذكر الحكيم، ثـم تلاه قراءة لدعاء الصباح بثلاث لغات، ثم تلاوة لبعض السور القصار، بـاحدى عشرة لغـة، ثم القى ممثل الولي الفقيه كلمة، وقدم مدير المركز تقريراً

مفصلاً عن عمل الدورة، وأخيراً اعلن عن أسماء المتفوقين في هذه الدورة وقدمت لهم جوائز قيمة، وهم كالتالي:

١ـ السيده معصومة مراد خاني

٢ـ السيدة سعيدة عزيزي

٣ـ السيد علي شيخ الرئيس

٤ـ السيدة زهرا محبي بكانه

٥ـ السيد ناد علي زاهدي

٦ـ السيد عبد الكريم خطيبي

افتتاح كلية علوم القرآن في تبريز:

أعلن ممثل وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي في تبريز ان حكومة الجمهورية الاسلامية تؤكد على توسيع المراكز القرآنية في البلاد، ولهذا أقدمت وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي بالتعاون مع مركز محافظة اذربيجان الشرقية، على اعداد المقدمات اللازمة، لتأسيس كلية علوم القرآن في تبريز، وسيتم افتتاحها في القريب العاجل جداً ان شاء الله.

مسابقات قرآنيّة بين جيش ايران وباكستان:

بدعوة من دار القرآن الكريم التابعة لجيش الجمهورية الاسلامية في ايران اقيمت ولأول مرة مسابقات حفظ وتلاوة القرآن الكريم، بين جيش الجمهورية الاسلامية في ايران، وجيش جمهورية الباكستان الاسلامية، وكانت نتائج المسابقات التي دامت ثلاثة أيام، جيده حيث أُعلن عن الفائزين وقدمت لهم جوائز ثمينة.

